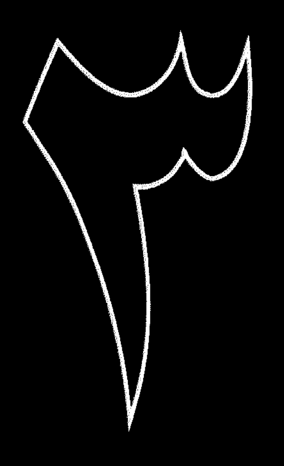
عارف تامر

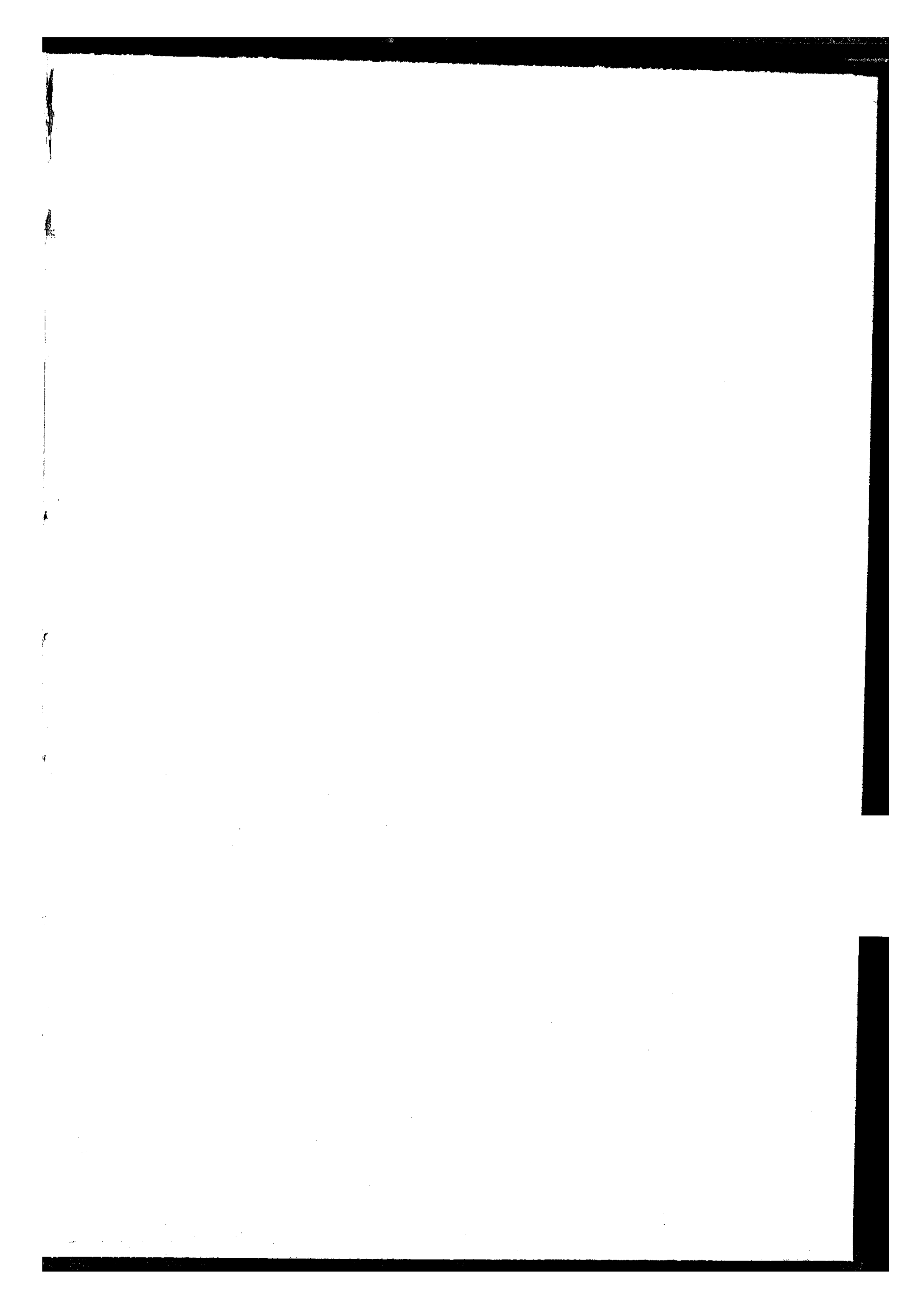
تاريخ الإسماعيلية

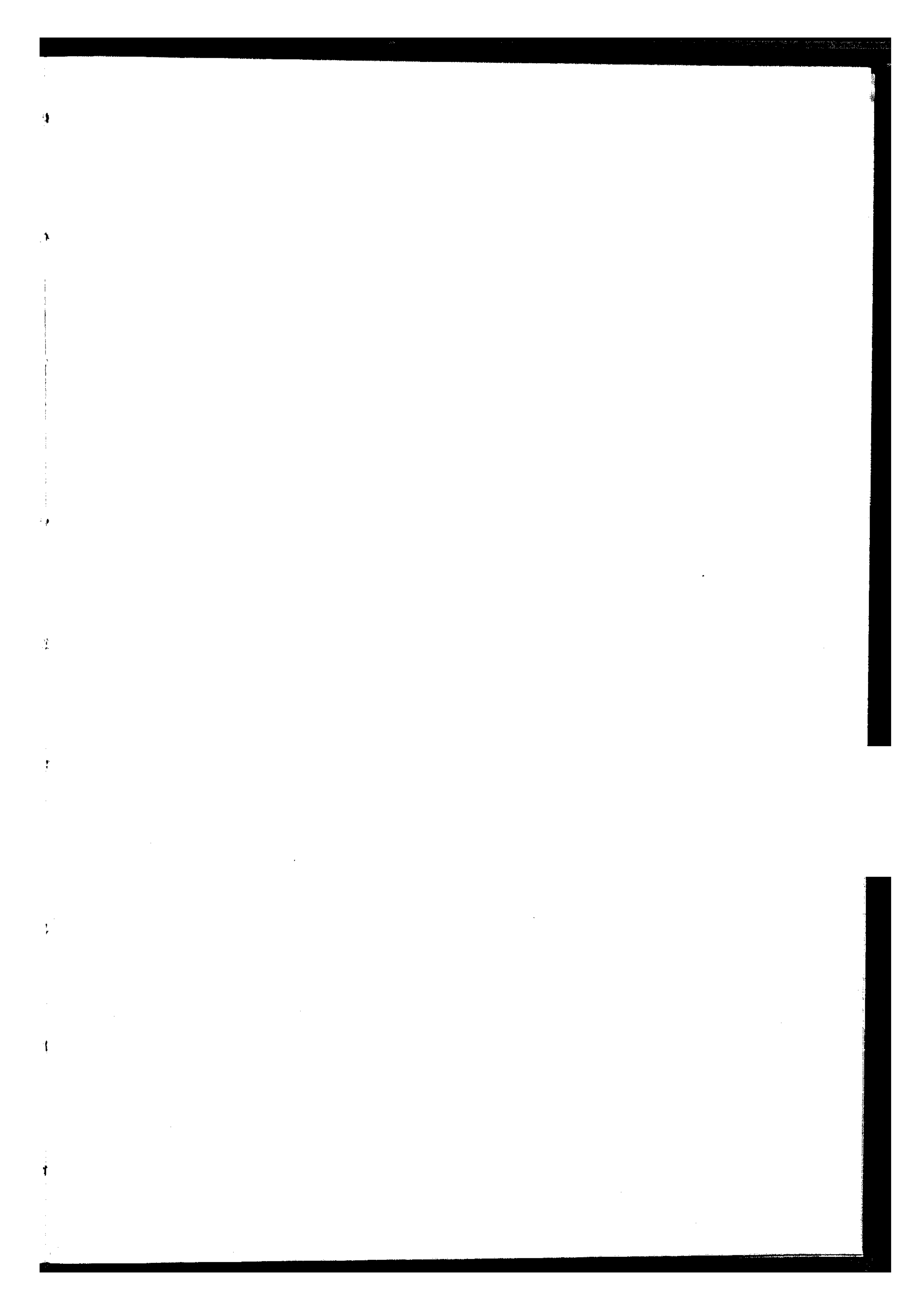


الدولة الفاطمية الكبيرة



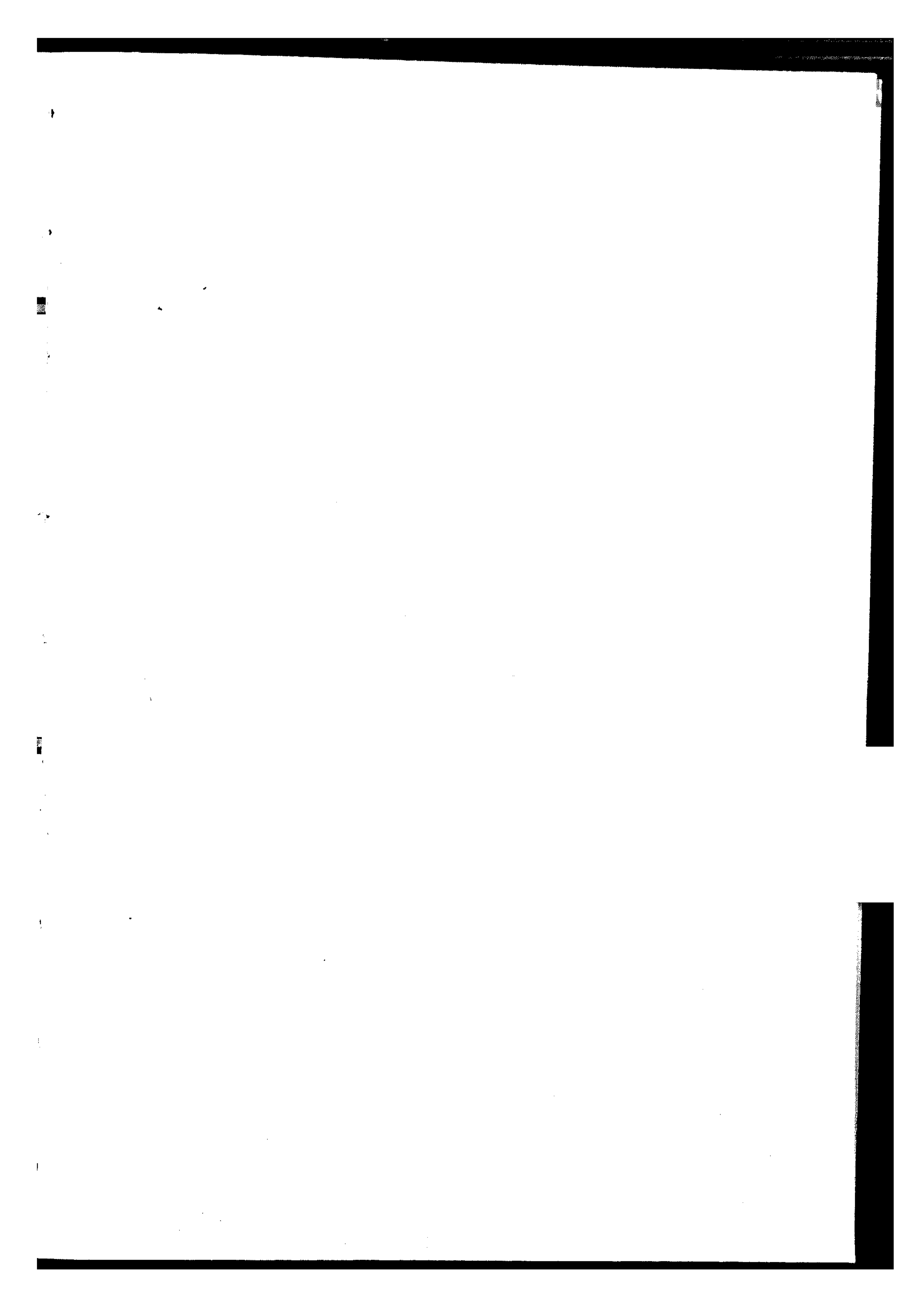






تاريخ الإسماعيلية - ٣ -

الدولة الفاطمية الكبيرة

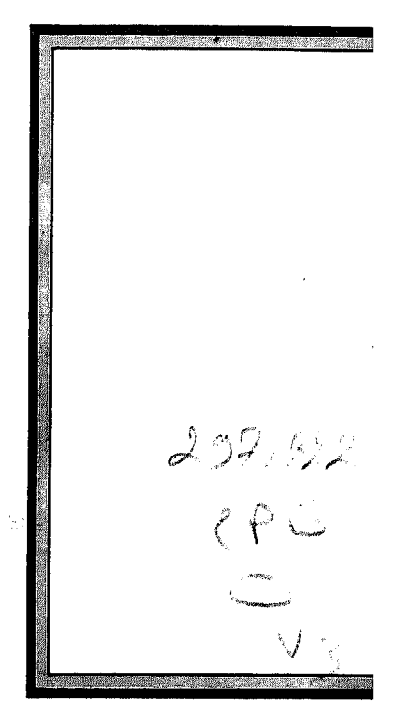


عارف تامر

تاريخ الإسماعيلية

٣

الدولة الفاطمية الكبيرة



RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

THE ISMAILI HISTORY – 3 –

The Fatimi Empire

BY

AREF TAMER

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

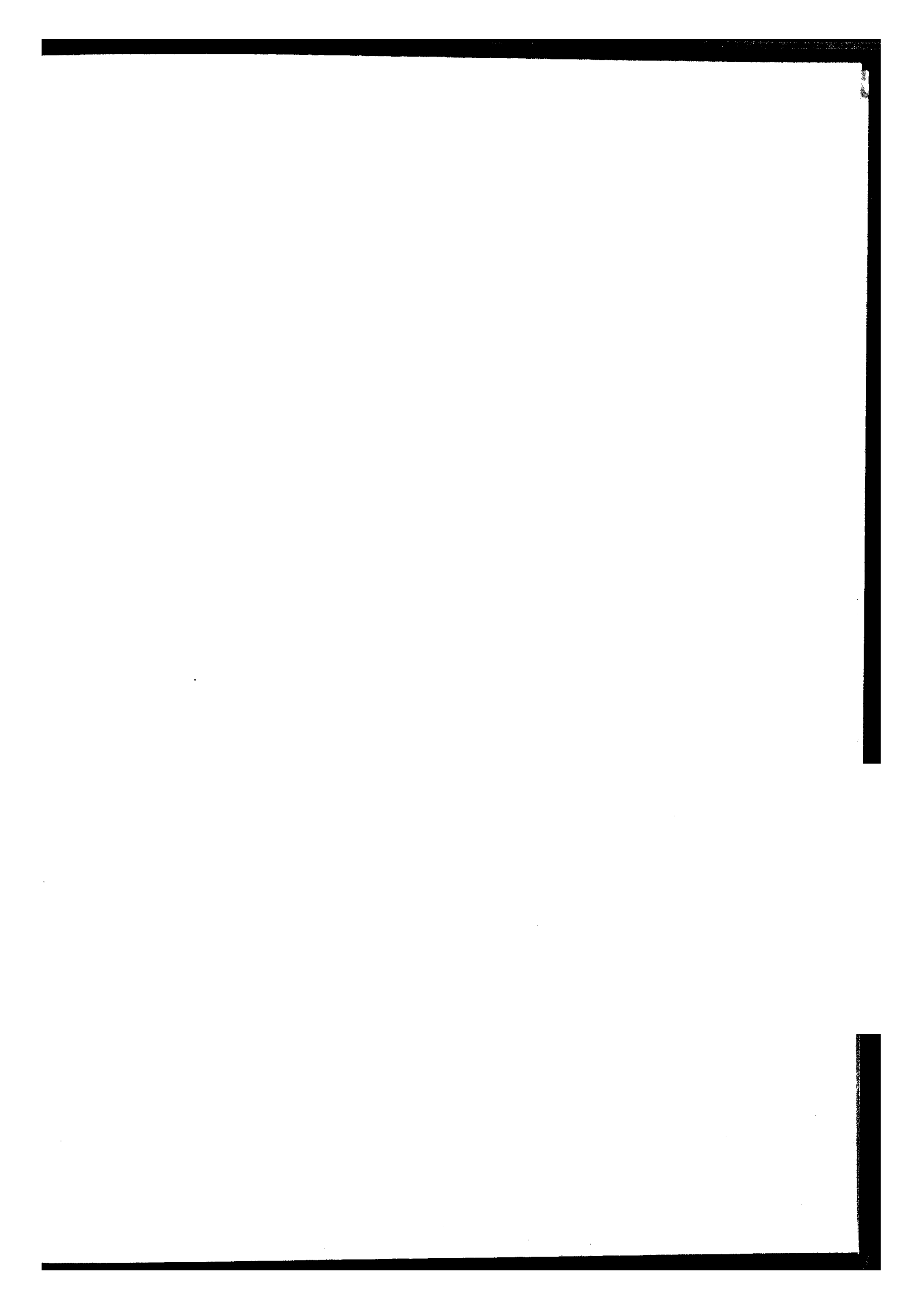
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Tamer, Aref
The Ismaili History
The Fatimi Empire
I. Title
297.20422

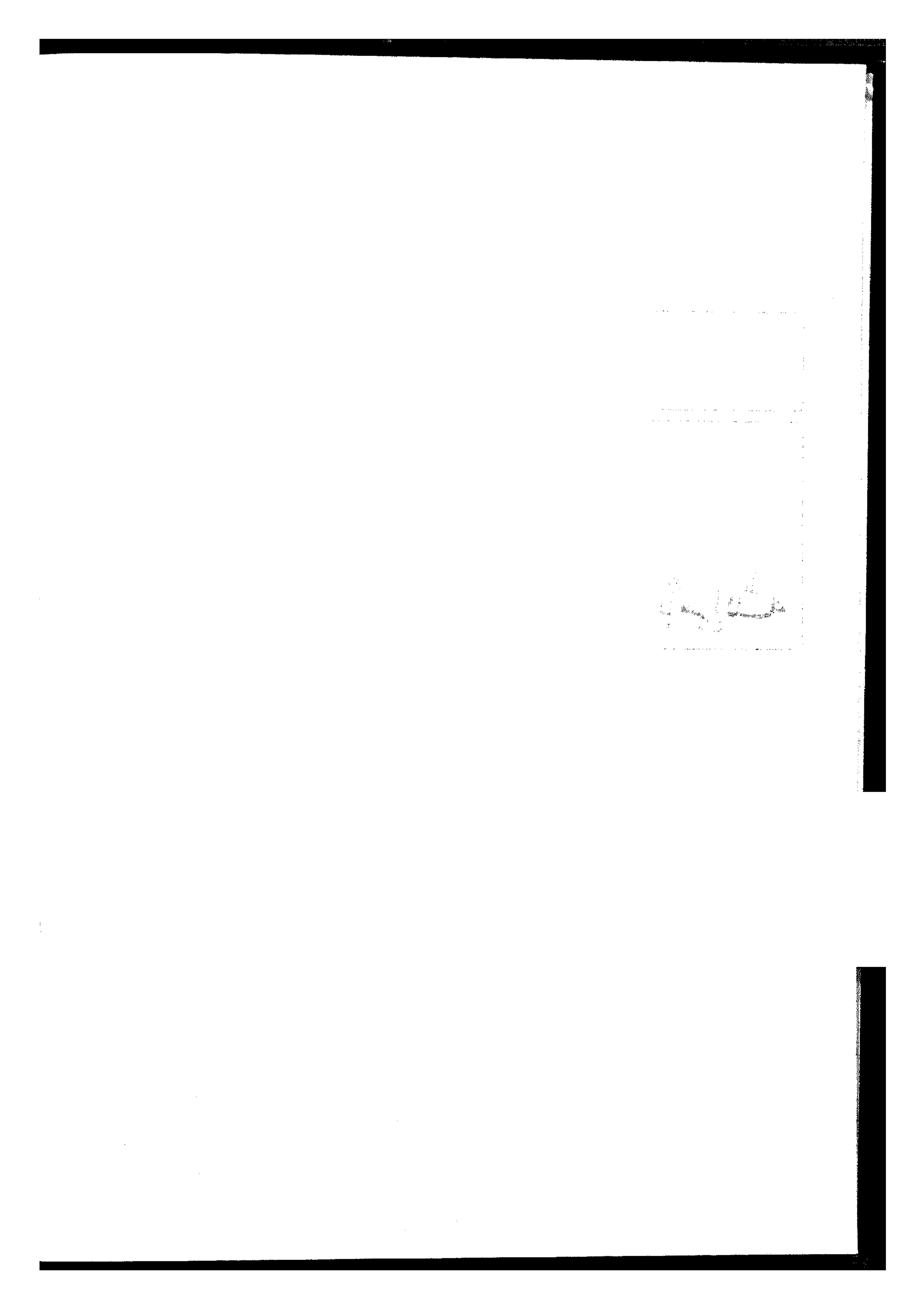
ISBN for the complete collection of 4 volumes
1855130599
ISBN for this volume 1855130742
Vol 1 – ISBN 1855130645
Vol 2 – ISBN 1855130696
Vol 4 – ISBN 1855130793

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١

محتويات الكتاب



الحاكم بأمر الله



الامام السادس عشر والخليفة السادس

يعتبر الإمام الحاكم بأمر الله من أغمض الشخصيات السياسية التي عرفها العالم، ولا نغالي إذا ما قلنا: إنه لغز القرون، وسر العصور، والبحر العميق الذي لم يستطع الفكر سبر غوره ومعرفة مورده، ولقد أثيرت حول حياته، ومماته الأقوال الخيالية، كما نسجت الحكايات والأساطير بالنسبة لطريقة حكمه، والأساليب التي اعتمدها إبان اضطلاعه بشؤون الخلافة، وكل هذا اتخذ منه البعض أداة للتندر، معادة للتسلية، وإنه لمن الغريب أن يمدحه بعضهم، ويرفعه إلى ذروة المجد بينما يتناوله الآخرون بالنقد والتجريح، والطعن في نسبه، وشخصيته وسلوكه بما يتنافى والآداب والأخلاق.

اسمه: المنصور، لقبه الحاكم بأمر الله، وكنيته: أبو علي.. ولد في القاهرة المعزية سنة ٣٧٥ هـ:

والدته هي: أم ولد، وتتحدر من أسرة مسيحية عريقة تذهب بنسبها إلى الطائفة الملكية ـ القبطيَّة، وكان والده الخليفة العزيز بالله قد تزوجها فاتحاً بذلك عهداً جديداً من التحرر الديني والطائفي، والعادات، والتقاليد خاصة، وقد تميزت هذه الزوجة بثقافتها، وآدابها، وأهليتها، وجمالها، ومكانتها في قومها.

تولى الخلافة بعد وفاة والده العزيز بالله سنة ٣٨٦ هـ مباشرةً، وكان له من العمر أحد عشر عاماً.

توفي في ظروف غامضة سنة ٤١١ هـ. فتكون مدة حكمه خمسة وعشرين عاماً، وعمره ستة وثلاثين عاماً. كل ما نعرفه عن صباه... أن أباه أحسن تعليمه، وتهذيبه، فلما مات الإمام العزيز بالله انتقلت الخلافة والإمامة معاً إليه.

كان والده الخليفة العزيز بالله في طريقه إلى الشام على رأس جيشه الجرَّار للتصدي للروم الذين دفعوا بجيوشهم إلى تلك البلاد. فعاثوا فيها فساداً وخراباً، وتشاء الأقدار أن يصاب العزيز بالله بمرض فجائي خطير ذُكر أنه «الحمَّى» الدماغية في مدينة «بلبيس» ولما عرف أن الإصابة مميتة، وأن لا أمل بالنجاة، أمر بإحضار ولده الحاكم بأمر الله من القاهرة لتوديعه الوداع الأخير، وعندما حضر نصَّ عليه بالخلافة والإمامة على مسمع من كبار رجال الدولة، والوزراء، والقوَّاد.

وتروي المصادر نقلاً عن المؤرخ المصري الأمير المسبحي، أصدق المؤرخين، وأكثرهم دقة في إيراد «الأخبار والروايات ونقدها، وتحليلها، وكان صديقاً للإمام الحاكم بأمر الله . قال:

«قال لي الحاكم وقد جرى ذكر والده العزيز: يا مختار استدعاني والدي قبل موته، وعليه الخرق والضماد، فاستدناني وقبلني وضمّني إليه وقال: واغمّي عليك يا حبيب قلبي، ودمعت عيناه ثم قال: امضِ ... والعب فأنا في عافية.

قال: فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب، إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه. قال: فبادر إليّ برجَوان وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار فقال: انزل ويحك، الله الله فينا وفيك. قال: فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسي، وقبّل لي الأرض وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة فقبل جميعهم الأرض لي وسلّموا عليّ بالخلافة.

لم يبك الإمام الحاكم بأمر الله رغم صغر سنه ولم يهن أمام المصاب، بل أمر باتخاذ التدابير السريعة لنقل جثمان أبيه إلى القاهرة، وتمَّ ذلك بسرعة. حيث سار هو على رأس الموكب الكبير الذي شارك فيه جيش مصر بكامله.. وكان يرتدي ثياب الخلافة متقلداً سيفه، وعلى رأسه المظلة، وكان صابراً متجلداً، متهيباً جلال الموت.

وعندما وصل الموكب إلى القاهرة... خرجت الجماهير الحزينة لاستقبال جثمان الخليفة العظيم الذي أحبوه من كل قلوبهم... وكانوا يذرفون الدموع، وينتحبون أسىً، ويندفعون وراء الجثمان بغية لمسه، أو تقبيل النعش المحمول على الأكف.

وعند وصول الموكب إلى القصر . أمر الإمام الحاكم بأمر الله قاضي القضاة محمد بن النعمان، بأن يتولَّى غسله، والصلاة عليه، ثم دُفن

إلى جانب والده الإمام المعز لدين الله في إحدى حجرات القصر، وفق المراسيم التقليدية المعمول بها في الدولة الفاطمية.

وفي اليوم الثاني جلس الإمام الحاكم بأمر الله في الإيوان الكبير، وحوله كبار رجال الدولة يتقبل التعازي، والمبايعة، وكان أول بيان أذاعه على الرعية في أنحاء الدولة:

«أن الأمن موطَّد... فلا كلفة، ولا مؤونة، ولا خوف على النفس، أو المال، وعلى الناس أن ينصرفوا إلى أعمالهم بحرية، واطمئنان».

وهكذا جلس الخليفة الحاكم بأمر الله على عرش الخلافة يعالج الأمور، ويصارع الأحداث وما أكثرها في تلك الفترة.

كان الإمام الحاكم بأمر الله ذا بنية قويّة متناسبة طولاً وعرضاً. فمظهره يدل على أنه من أولئك الجبابرة الأوائل... مبسوط الجسم.. فارع الطول.. بارز الصدر.. مهيب الطلعة.. .. له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما خضرة ذات نظرات حادة مروعة كنظرات الأسد، فلا يستطيع الإنسان ـ أي إنسان ـ التحديق أو إطالة النظر فيهما.. وله صوت جهوري، قوي، مرعب، يحمل الروع إلى سامعيه.

قالوا في وصفه:

كان منظره يشبه منظر الأسد... عينان لهما بريق غريب... إذا نظر المرء إليه يتملكه الرعب، ويرتعد هلعاً لعظم هيبته، وكان صوته مخيفاً كالرعد.

والحقيقة:

فهو سليل أسرة من الجبابرة العرب الأقوياء الأصحاء الذين عاشوا في الصحراء، يقارعون الأحداث، والقوى الطبيعية، ويفيئون إلى ظلال العز، والمجد، والأنفة، ولكنهم، ومع كل أسف يذهبون في منتصف العمر، عندما تكون زهورهم في بدء تفتحها.. فوالده الإمام العزيز بالله كان أيضاً عظيم القامة، عريض المنكبين، وقد اشتهر باقتناص الأسود بمفرده، وهكذا جده الإمام المعزّ لدين الله، وهكذا الإمام المنصور بالله.

إذن فالحاكم بأمر الله ورث هذه الخواص الطبيعية البديعة.. ومن الواضح أنه لم يبددها في شهوات النفس، ومتطلبات الجسد التي كثيراً ما ينغمس فيها الملوك، والأمراء، وأبناء القصور، بل حافظ على

كل ما يسمونه صحة وعافية، واستخدم بالإضافة إلى كل ذلك القواعد الطبيعية والطبية، والتقليل من المأكل ، والمشرب.. ومما تجدر الإشارة إليه... أن والده الإمام العزيز بالله توفي وهو في الثالثة والأربعين من عمره، وتوفي جده الإمام المعز لدين الله وهو في السادسة والأربعين، وتوفي المنصور بالله وهو في الثانية والأربعين، وتوفي القائم بأمر الله وهو في الخامسة والخمسين.

جاء في أحد المصادر التاريخية: أن رجلاً دفع لاغتيال الإمام الحاكم بأمر الله... فتمكن من الدخول عليه... لأن الإمام الحاكم بأمر الله كان يفتح أبواب قصره للناس، ولا يحتجب دونهم.. وعندما نظر إليه سأله عن حاجته؟ فاضطرب الرجل، وارتعدت فرائصه، ثم القى المدية من يديه، وشرع بالبكاء، مقراً بذنبه، معترفاً بجريمته.

أجل.. ارتقى الحاكم بأمر الله ذروة الفضائل حتى بلغ غاية الشرف الكامل، وظهرت مثاليته، فيما أخذ به نفسه من زهد وتقشف، بالرغم مما ورثه من الملك العظيم، والعز، والجاه، والنعيم. فلقد رفض هذا النعيم الذي آل إليه من آبائه وأجداده، وتناسى حق نفسه، وحق شبابه وأسرته عليه، فأعتق المماليك والعبيد، وملكهم أمر نفوسهم، وأعطاهم تعويضات خدماتهم، وعاش كما يعيش أي فرد من رعيته، وألغى الحفلات العامة، والمآدب الكبرى التي كانت تقام في قصر الخلافة في المناسبات والأعياد، وفي أواخر أيامه كان طعامه وشرابه مقتصرين على ما تدعو الحاجة إليه. ومن المشهور عنه أنه نهى عن تقبيل الأرض بين يديه، ولثمها، والانحناء، أو السجود على الأرض كما ألغى استعمال كلمة «مولانا» واكتفى بأن يقال له:

«السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»

وكذلك منع حرس القصر فقد ألغى مظاهر التكريم، وقرع الطبول، وأداء التحية في ذهابه، وإيابه.

لم يكن الحاكم بأمر الله يعمل على تكديس الأموال في خزائنه وتوفير الأرزاق، والممتلكات لأفراد عائلته وخاصته. بل كان يأخذ ما تحتويه هذه الخزائن فيوزعها على الفقراء، والمساكين، والمحرومين، ويتكرم بها على كل من يطلبها باستحقاق وكان يحمل كل يوم مقداراً من المال يوزعه على من يعترضه من المحتاجين في خروجه.

وكان من عادته الجلوس عند نوافذ القصر في وقت محدَّد، فيأتيه الفقراء الذين يعـرفون وقت جلـوسه، فيغـدق عليهم الصدقـات والمعونات، ولم يكن يوزع المال وحده بل الكساء أيضاً وقيل إنه أمر بصنع قماش شعبي للفقـراء كان يسمَّى «طـراز العامـة» وكان مخصصاً لهؤلاء الذين عاشوا من هباته، وعطائه. ويروى عنه إنه قال لعمه مرّة:

«يا عم... أحب أن أرى النعم عند كل الناس ظاهرة، وأرى عندهم الفضة، والذهب، والجواهر، والخيل، واللباس، والضياع، والقصور، وأن يكون ذلك كله من عندي».

وقيل إن ناظر المالية توقف مرة عن صرف الإعانات خوفاً من اختلال ميزانية الدولة... فكتب إليه يقول:

«الغربة مذلة الأعناق، والفاقة مرة المذاق، والمادة من الله الرزاق، فأجرهم على عوائدهم في الإنفاق... ما عندكم ينفد، وما عند الله باقٍ».

وعُرف عن الحاكم بأمر الله أنه أعطى الضياع، والعقارات، والأملاك العائدة ملكيتها للدولة أولاً فأولاً، ولمن كان يلتمسها من الرعية، ويتعهد بإصلاحها. ودفع الرسوم المترتبة عليها للدولة، كما أمر بالتنقيب، واستخراج الكنوز الدفينة من الآثار المصرية القديمة لصرفها على الناس، والاستفادة من ثمنها. ويشهد له التاريخ بأن يده لم تمتد طيلة حياته إلى أخذ مال أحد، أو الاستيلاء على أملاك أحد...

ويروى أن أحد ولاة الشام وهو «جيش بن الصمصامة» أوصى بتركته التي تزيد على المائتي ألف دينار إلى الحاكم بأمر الله. فجلبها أبناؤه، ووضعوها أمامه... فأخذ الإمام الحاكم الوصية وألقى نظرة عليها، ثم أعادها إلى أبناء الوالي الراحل.. وقال لهم بحضرة وجوه الدولة:

«لقد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله... وما وصَّى به إليَّ من عين ومتاع وإني قابل به، ولكني أتنازل عنه لمن هم أحقّ به مني... فخذوه هنيئاً مباركاً هدية مني».

وفوق هذا فقد خفّف الضرائب عن الناس. وسهر على راحتهم، وأبعد الظلم عنهم، وكأني به كان يفعل ذلك، ولسان حاله يقول:

أصبحتُ لا أرجـو ولا أتقي ... إلاَّ إلـهـي ولـه الفضـلُ
جـدِّي نبيِّـي وإمـامي أبـي ... وديـنـي الإخـلاص والـعـدلُ

أجل.. كان الحاكم بأمر الله جواداً كريماً، وإلى جانب الجود، والسخاء، والزهد في المال، كان يجانب الخمرة والنساء، ويحرمها على رعاياه، ولم يذكر التاريخ أنه كان في حياته، وإبَّان خلافته يتصف بما يتصف به معظم الطغاة الذين عرفهم التاريخ.

«وعلى العموم... فالإمام الحاكم بأمر الله كان لغزاً يصعب استجلاؤه، وبحراً يستحيل سبر غوره، وعقليته متوقدة عسيرة الفهم. وصفه العلاّمة الألماني «ميكلر» فقال:

«إنه من أعجب، وأغمض الشخصيات التي عرفها التاريخ.. وزاد على قوله: إن من يقرأ أقوال المؤرخين المتأخرين، وأساطيرهم، ورواياتهم، عن الخليفة الفاطمي الإمام الحاكم بأمر الله، يصاب بالدهشة ويخرج بنتيجة صحيحة هي:

إنهم لم يفهموه، واعتبروه مجنوناً فقط. وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير هو أعجب من انجبت أسرته.. فقد كان أشدهم إثارة للأساطير من حوله، وإن حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته، فلا نستطيع أن نظفر منها إلاّ بلمحات، ومن الواضح أن الإمام الحاكم بأمر الله لم يكن شخصية وضيعة ساذجة، وإنما كان لغز عصره وفيلسوف زمانه، وذهناً نيّراً بعيد الغور، وافر الابتكار، جم العطاء، وعقليته سمت على مجتمعها، وتقدمت عصرها، وكان عليها أن تتبوأ مكانها اللاّئق في التاريخ».

وقال المؤرخ المقريزي:

«إن جملة القوانين التي أصدرها الإمام الحاكم بأمر الله، جاءت بدافع الشعور الديني لإصلاح النفوس، والأخلاق، وتطهيرها من رذائل المجتمع».

وقال ابن خلدون:

«إن ما رُميَ به الحاكم بأمر الله غير صحيح، ولا يقبله العقل السليم».

وقال الدكتور جمال الدين سرور، وهو من المعنيين بالأدب الفاطمي:

«ليس هنالك ما يثبت أن الحاكم بأمر الله ذهب في معتقداته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام».

وقال محمد عبد الله عنان... «دون أن يدري» وهو من الذين تهجموا على الإمام الحاكم بأمر الله والفاطميين:

«لقد ظلم التاريخ الحاكم بأمر الله، كما ظلم غيره من المصلحين، فالحاكم

بأمر الله كان مصلحاً على طريقته، وكان يرمي بما يصدره من قوانين وأحكام إلى تحقيق غايات خفيت على العامة لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا، ومن هنا كان الريب في حكمتها، وكانت القسوة في تطبيقها».

وقال عبَّاس محمود العقَّاد:

«كان الإمام الحاكم بأمر الله يمنع تقبيل الأرض بين يديه، ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه، وأمر ألّا يزيد الناس في السلام حين يدخلون عليه.. على قولهم:

السلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، وهذه فضيلة قلما شاهد العالم الإسلامي ما يماثلها لدى الخلفاء المسلمين الآخرين».

وقال المستشرق الألماني شتروطمان:

«إن الحاكم بأمر الله الفاطمي أعاد إلى أذهان العالم الإسلامي بتقشفه، وبلبسه الخشن من الثياب، وإقلاعه عن الملذات الجسدية، وسهره على راحة شعبه.. سيرة الخلفاء الراشدين العظماء، وخاصة جده الإمام علي بن أبي طالب».

وقال الدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب الفاطمي في جامعة القاهرة:

«ما أحوجنا إلى حكم تتمثل فيه الجرأة في الحق، والعدالة، والنزاهة، والشدة في تطبيق القانون كحكم خليفة مصر الفاطمي الحاكم بأمر الله».

وقال المستشرق دوزي:

«إن قوانين الحاكم بأمر الله لم تك سخيفة كما صوَّرها لنا الرواة الذين دأبوا أن يقدموا لنا شخصية هذا الخليفة بغير حقيقتها. إنما كان الحاكم أسطورة التاريخ الذي لم يستطع أحد أن يفهم مقاصده، وأن ينفذ إلى واقعه».

وحدثني المرحوم الدكتور طه حسين أثناء اجتماعي إليه في القاهرة سنة ١٩٥٨:

«أن التاريخ لم ينصف الإمام الحاكم بأمر الله. وأكَّد لي: أنه سيتخذ من سيرة حياته الشيقة الغريبة موضوعاً لكتاب سيكتبه عنه إذا ما أمدَّ الله بعمره».

ومهما يكن من أمر.. فإن الحاكم بأمر الله، وبإجماع آراء المؤرخين كان عظيماً من العظماء ، ويكفي أن تكون الدولة الفاطمية قد نعمت في إبَّان حكمه بالرخاء، والثروة الطائلة، والازدهار الاقتصادي بما

يفيض عما وصفه المؤرخون، وذلك لأن الحاكم كان مقتصداً في النفقات بما ألغاه من المراسيم، والتقاليد، وبما منعه من البذخ، والأبهة.

وهو يُعد، الخليفة المؤمن الذي أحب البساطة في العيش، والذي كان يقصده ذوو الحاجات أثناء تجواله سواء في الليل، أو في النهار لرفع الظلامات، وقضاء الحاجات، والطلبات التي كان يقضيها بنفسه، وكان زاهداً متقشفاً في مظاهره العامة، دؤوباً على الصلاة، والعزلة، والانقطاع إلى الله.

ومن المشهور عنه:

أنه كان يكتفي عند خروجه من القصر بالركوب على فرس بسرج، ولجام عادي محلًى، بالفضة، وبنود ساذجة، ومظلة بيضاء بلا ذهب، وعمامة دون جوهر وأنه ترك ركوب العماريات، والخيل، والبغال المسوَّمة مدفوعاً بالبساطة، فتارةً كان يركب على فرس، وتارة على حمار أبيض.

لقد وصفه بعض الغلاة الخارجين على سنن الشرائع، والقوانين الإلهية، بأنه فوق مرتبة البشر وأساؤوا إليه حين قالوا: إنه متصل بعالم الغيب، وإن روح الله قد حلَّت فيه... فحاربهم واستنكر زعمهم، وتبرأ منهم على رؤوس الأشهاد، نافياً عن نفسه بأن تكون له هذه الصفات، وأكَّد أكثر من مرة - لهؤلاء الغلاة بأنه ليس إلَّا إماماً للمسلمين، وخليفة للنبيين. فهو مؤمن بالله، ومنقطع لعبادته، وزاهد في الحياة.. كما كان جده الإمام علي بن أبي طالب.

وذكر أحد المؤرخين المصريين:

> «أن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه، ولم يوفِّر شيئاً منها لنفسه، ولم يبخل على أحد بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم في شيء من أحوال هذه الدنيا.. ثم أحيا سنن الإسلام والإيمان، وبنى المساجد وشيدها، وزخرفها، وأقام الحج والجهاد. وعمَّر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الإسلام، وفتح بيوت أمواله، وأنفقها في سبيل الله ومرضاته».

الخليفة الشاب في وجه الأحداث

لم تكن مصر القاعدة الأولى في الدولة الفاطمية فحسب... بل كانت

أسطع جوهرة في تاج هذه الدولة، وأعلى ذروة في بناء الإمبراطورية الكبرى الشاسعة ذات الأطراف الممتدة من المحيط الأطلسي حتى حدود العراق. وقيام الدولة الفاطمية الفتيَّة في هـذه البقعة من الأرض، وانتقالها من المغرب إلى مصر يعتبر بداية عصر ذهبي جديد قام على دعائم من القوة، والعزة، والمكانة. فمصر في عهدها الفاطمي الجديد أصبحت بخصبها ونعمائها، وفيض مواردها أعظم دعامة لدولة الفواطم، بل أعظم قاعدة لهذا الصرح الباذخ المنيف الذي وصف بأنه أزهى عصور مصر الإسلامية، هذا إذا لم يكن أسطعها جميعاً، غير أن هذا العصر الذهبي كثيراً ما كان مدعاةً إلى التفكير والتأمل... فبينما نراه وضَّاحاً، وزاهراً في بعض نواحيه، نراه مظلماً قائماً في بعض الجوانب الأخرى، وما ذلك إلَّا لأن الخلافة الفاطمية كانت غامضة في كثير من مواقفها، ومترددة في بعض أعمالها. تتراوح بين القوة، والضعف، والهجوم، والدفـاع - الشدة، واللـين - الانتقـام، والتسامـح، مما يصعِّب عـلى المؤرخين استجـلاء ذلك الغموض، وقد يكون سبب ذلك مواقف الخلفاء الفاطميين أنفسهم، وتربيتهم، وعبقريتهم، وإجراءاتهم الجديدة، أو قل ثورتهم التي بدت غريبة على المجتمع، ومتقدمة على العصر فأعمالهم، وتصرفاتهم، وطريقة حكمهم مدعاة على التساؤل والتأمل، بسبب إشاعة الحكايات، واختراع الأساطير، وظهور المعارضة المحافظة، والرافضة لكل جديد وصالح.

فقصد الإمام الحاكم بأمر الله الخليفة الفـاطمي السادس كـان غامضاً، وما زال العالم حتى في عصرنا الحاضر يوليه الكثيـر من الاهتمام، والعناية، والتفكير. فالحاكم بأمر الله ولي الخلافة، وله من العمر أحد عشر عاماً، وخمسة أشهر، وستة أيام.

ستّ الملك

وُلِد للإمام العزيز بالله من زوجته هذه «أم ولد» ولدٌ سمي لولاية العهد باعتباره الابن الأكبر، وكان يدعى «محمداً» ولكنه توفي في حياة أبيه، ثم وُلِدَ له آخر هو الحاكم بأمر الله وبنت هي «ست الملك».. وهذه الأميرة لعبت دوراً مهماً في أحداث مصر في ذلك العهد، وكانت حازمة، عاقلة، وقوية العزم، بصيرة بالأمور، وكان والدها الإمام العزيز بالله يحبها ويؤثرها، ويستمع إليها، ويعمل بنصائحها في كثير من الأمور، وكان لها أيضاً بالإضافة إلى كل ذلك أثر بارز في توجيه

سياسة الخليفة خاصة نحو أخوالها النصارى. فكلما هبَّت عواصف السخط والاضطهاد عليهم.. تدخلت لتلطيف الأجواء، وإزالة الظلم، وإيجاد أجواء التسامح. وهنا نرى من واجبنا أن نقول كلمة ننصف بها هذه السيدة التي تناولها المغرضون بالتهجمات. فقالوا: إنها ابنة الإمام الخليفة العزيز بالله، ولكن من أم نصرانية، بينما الحاكم بأمر الله كان من أم غيرها. وجاء في أسطورة ثانية فيها الكثير من المغالطات، والجهل، بالتاريخ أن «ستّ الملك» ولدت في المغرب سنة ٣٥٩ هـ. وأن والدها الإمام العزيز بالله جاء بها إلى الديار المصرية عندما رافق والده الإمام المعز لدين الله من المغرب إلى مصر، وحبذا لو أن هؤلاء المؤرخين عادوا إلى صوابهم، وفكروا قليلاً قبل إقدامهم على تدوين وقائع التاريخ. فمن الواضح أن ولادة الإمام العزيز بالله وقعت في المغرب سنة ٣٤٤ هـ. وقدومه إلى مصر حدث سنة ٣٦١ هـ.

فمتى تزوج، وكيف أنجب «ست الملك» وهو في الخامسة عشرة، وقبلها بعامين «الأمير محمد»؟ من جهة ثانية من أين جاء بهذه الفتاة النصرانية القبطية إلى المغرب؟ وكلنا يعلم أن طائفة الأقباط لم يكن لها أي نشاط بارز في المغرب الإفريقي.

إن التاريخ الصحيح.. يرفض المزاعم التافهة السخيفة التي لا تقوم على أي دليل، والتي ذهبت إلى تشويه التاريخ الإسلامي، والتلاعب بحقائقه وواقعه.

الإمام الحاكم بأمر الله هو شقيق «ست الملك» من أم نصرانية مصرية، وليس في هذا أي خرق للمبادىء الإنسانية، أو خروج عن دائرة الدين، والآداب.

أجل.. إن الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله منح ولده الحاكم بأمر الله ولاية العهد منذ أن كان صغيراً، أي بعد وفاة شقيقه الأكبر «محمد».. وتذكر المصادر الفاطمية أنه أوصى قبل موته بولي عهده الوحيد ثلاثة من كبار رجال الدولة وهم:

برجوان الصقلي أمينه الخاص، وكبير خزانه.. والحسن بن عمار وزيره وأمير قبيلة كتامة المغربية، ومحمد بن النعمان قاضي قضاة الدولة.. وقد عهد بالوصاية الفعلية إلى الأول وهو «برجوان».

برجوان وبن عمار

كان يلقب «أبو الفتوح» وهو خصي أبيض صقلي من أواسط أوروبا، وهو من «الأرقاء» الذين وفدوا على مصر في فترات متقطعة، وكانت مهماتهم تنحصر بالخدمة في قصور الخلفاء، والأمراء، وقد رباه، واصطفاه الإمام العزيز بالله، ثم ولّاه شؤون القصر في أخريات عمره، وخلع عليه لقب «الأستاذ» كما عهد إليه بمهمات كبرى، وأولاه ثقته، وعطفه، ومحبته.

أما الحسن بن عمار فكان رجلاً قوي الشكيمة، وافر العصبة، معتزاً بنفسه وبإمارته، على «كتامة» والجيش المغربي، ولكن برجوان بحكم ظروفه، وطبيعة منصبه في القصر كان أوثق اتصالاً بالخليفة. فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين، واشتدت المنافسة بينهما إلى حد الاصطدام الكلامي في بعض الأحيان.

وكان الحسن بن عمار وقتئذٍ يتبوأ منصب الوزارة الأولى، ويشرف على شؤون الدولة فالإمام العزيز بالله هو الذي اعتمده لهذا المنصب، ومنحه لقب «أمين الدولة» وهو أول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية، وعند وفاة الإمام العزيز بالله ظنَّ أن الفرصة سنحت له، وأن الجو قد خلا.. فحصر مهمته بإعادة نفوذ المغاربة المسلوب، وإرجاع اعتبارهم إلى سابق عهده وخاصة نفوذ قبيلة «كتامة» الذي تضاءل كثيراً بفعل تدابير الخليفة الإمام العزيز بالله. واعتماده قوة ثانية تعيد التوازن إلى الدولة وهي «المشارقة» كما ذكرنا.

وفي تلك الفترة ظهر «ابن عمار» بمظهر الطاغية المتجبر المطلق الإرادة، فكان يدخل القصر، ويغادره ممتطياً فرسه، ملزماً جميع الناس بالترجل، وتقبيل ركابه، وأغلق أبواب منزله ولم يفتحه إلّا للخاصة، والأكابر من بني قومه، كما أغدق الأموال، والأعطية على كتامة خاصة، وولّى أحداثهم وظائف الدولة، وقسّم بينهم سلطاتها. فعاثوا فساداً في شؤونها، ومرافقها، وكثر اعتداؤهم على الناس، وعلى أموالهم... ... كل هذا وابن عمار يساعدهم، ويمدهم، ويغض الطرف عن أعمالهم، وعبثهم، وامتدت يده أخيراً إلى المشارقة. فاتخذ قراراً سرياً بإبعادهم، واحداً بعد الآخر، بالرغم من إرادة «ست الملك» التي كانت تتبع سياسة والدها الإمام العزيز بالله القاضية بالإبقاء على الحالة الراهنة، والتوازن بين الفريقين بالنسبة للدولة.

أدرك برجوان ما يتهدده، وجماعته من المخاطر، فكتب إلى منجوتكين، واستدعاه مع قواته من الشام للوقوف بوجه مؤامرة ابن عمار، والحد من تصرفاته. ومن جهة أخرى فإن ابن عمار علم بما أقدم عليه برجوان للإيقاع به. فأذاع على الناس بياناً بأن منجوتكين قد خرج على الخليفة الحاكم بأمر الله، وقام بثورة انفصالية ضد الدولة الفاطمية، وأن بلاد الشام قد خرجت عن حكم خليفة مصر الفاطمي، وأنه في صدد الزحف إلى مصر بعد إكمال استعداده لإرجاعها، وتأديب «منجوتكين»، وبالفعل جهز جيشاً كثيفاً من المغاربة، وزحف قاصداً الشام. فالتقى منجوتكين في عسقلان ودارت بينهما معارك طاحنة انهزم في نهايتها منجوتكين، وتمزقَّت قواته، ولكن ابن عمار رضخ أخيراً لمداخلات ست الملك، وأصدر أمراً بالعفو عن منجوتكين، وإعادة الاعتبار إليه، وكانت خطة «ست الملك» تقضي بالإبقاء على هذا القائد المظفَّر الذي انتصر في أكثر من معركة على الروم.

بعد هذا الحدث الرهيب اشتدَّ ساعد كتامة، وبالغ رجالها في الاستئثار بالسلطة، والنفوذ ، وكثر فسادهم، وطغيانهم، وبادر ابن عمار إلى أعوان برجوان فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم «جيش بن الصمصامة» والي طرابلس في ذلك الوقت، وعرف الناس في تلك الأيام أن كفة «كتامة» قد رجحت، وأن نفوذ برجوان، والمشارقة أخذ يتضاءل يوماً بعد يوم، ولكن الداهية برجوان صبر على المحنة، وقبع في مكانه لا يحرك ساكناً، ولكنه في الوقت نفسه كان ساهراً، وحذراً يرقب ابن عمار، ويتلمس الفرصة السانحة لأخذ الثأر، وإسقاط مخططاته، وعندما سنحت له الفرصة بدأ يدس الدسائس، ويؤلب زعماء الجند الناقمين، وخاصة المصريين، فلم يمضِ عام حتى تمكن من تأليف جبهة قوية ضمَّت منجوتكين وابن الصمصامة، وغيرهما من الزعماء الناقمين المعارضين. ثم وقع الانفجار المنتظر حين وثبت جماعة كبيرة من الجند والأهلين بتحريض من برجوان على الكتاميين في ظاهر القاهرة المعزية، وكان ذلك سنة ٣٨٧ هـ. فأثخنوا فيهم، مما اضطر ابن عمار إلى الخروج من القاهرة، والتخفي حيناً بعد فشله الذريع في إخماد الفتنة، وإنقاذ جماعته، تاركاً الميدان لمنافسه. وهنا قبض برجوان على زمام الأمور، ولكنه خاف من العواقب، وحسب حساباً لعودة المغاربة إلى المسرح من جديد. ففاوض ابن عمار على

الصلح، وعندما تمَّ ذلك ردَّ إليه اعتباره، وولَّاه منصبه، ومنحه امتيازاته الأولى مصانعةً لكتامة، وضمانة لسكوتها، ونزولاً عند إرادة ست الملك، ولكنه في الوقت نفسه ظلَّ مستأثراً بكافة السلطات داخل القصر، وخارجه، واختار لمعاونته رجلاً نصرانياً يدعى «فهد بن ابراهيم» عرف بذكائه، ودهائه، ومقدرته، ففوَّض إليه أمر التوقيع، وحل قضايا الناس، بينما لزم هو الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام معه بالقصر الحاكمي يسهر على توجيهه، ويستأثر لديه بكل سلطة، ونفوذ، وقد استبدّ بكل أمر في الدولة، فاستقرت وهدأت في تلك الفترة.

أجل.. لم يزل برجوان يتقدم في حكمه، ويتبوأ ذروة القوة، والنفوذ، زهاء عامين ونصف العام، وفي خلال تلك المدة وقعت عدة ثورات، وقامت بعض الاضطرابات في الشام، والمغرب، وحاول بعض الحكام الإقليميين، والزعماء المحليين الخروج على الدولة الفاطمية، فسيَّر برجوان جيشاً إلى الشام بقيادة «جيش بن الصمصامة» فقاتل الثوار في عدة مواقع، وأخضعهم تباعاً، واستعاد دمشق، كما اشتبك مع الروم البيزنطيين في معارك عديدة شمالي الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطرابات الداخلية في قلب الدولة الفاطمية، فأغاروا على الثغور بتأييد من الخارجين، والحمدانيين، ولكن القائد «جيش» هزمهم، وردهم إلى ما وراء الحدود.

وسيَّر برجوان جيشاً آخر إلى برقة لقمع الثورة التي أضطرمت فيها من قبل بعض القبائل ، فأعاد النظام إليها، وأخضع القبائل الثائرة، وولَّى عليها «يانس الصقلبي» كما عيَّن قواداً آخرين من المشارقة بحكم الولايات والثغور التابعة للدولة الفاطمية مثل «ميسور الخادم» لطرابلس و «يمن الخادم» لغزة وعسقلان... وهكذا فعل بالنسبة لمصر، فإنه عيَّن العديد منهم في الوظائف الكبرى والإدارات العامة، وخاصة في القصر. وفي تلك الفترة جنح الروم بعد هزائمهم المتكررة إلى السلم، وعقدوا معاهدة صداقة مع الدولة الفاطمية، وقعها الإمبراطور «باسيل الثاني» وقد ذكر أن البطريرك أرسانيوس وهو خال الإمام الحاكم بأمر الله لعب دوراً بارزاً في هذا المجال.

ونعود إلى الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله... فبعد مضي ما يقارب الأعوام الأربعة بدأ يعي ما يجري حوله.. فكان موقفه من هذه

الأحداث التي تجري في دولته بدافع من الطامعين، والجشعين، والمتآمرين، لا يخرج عن كونه موقف الصبر، والتريث، ومراقبة الأمور بحذر ويقظة شديدين.. فبرجوان كان يحجبه عن الاتصال برجال الدولة المخلصين، ويخفي عليه الكثير الكثير من الشؤون العامة والخاصة، أما أمّه وشقيقته ست الملك فكانتا ترعيان الفتى، وهو ينمو، ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة، ولكنهما كانتا عاجزتين عن إقصاء برجوان عن الوصاية، لأنه حرَّم عليهنّ التدخل في شؤون الدولة، وحتى الاتصال بأحد من الرجال المخلصين للأسرة الفاطمية، ولكن الشاب النابه شعر أخيراً بخطورة الأحوال، ولم يلبث أن فطن إلى موقف برجوان، واستئثاره بالسلطة، واستبداده بكل شيء وأنه يذهب في طغيانه وتعسفه حداً بعيداً، ويثير حوله، وفي داخل دولته، الاضطرابات، والقلاقل، وكان هذا يزيد في عدد خصومه في داخل البلاد وخارجها، ويعدّهم في النهاية إلى تقويض سلطانه، وكيانه.

ولكن برجوان من جهته كان يعتقد أن الجو قد صفا وخلا له... فاستسلم إلى الراحة، وانكب على ملاهيه، وملذاته، يقضي أوقاته في مجالس الأنس، والطرب، والغناء، ولم يفطن إلى ما وقع في نفس الأمير الفتى وما طرأ عليه من التبديل، والتطور. فاستمرَّ يعامله معاملة الطفل المحجور عليه، ويبالغ في حجبه بحجة حمايته، والحرص على راحته، وذهب في استهتاره إلى حد إهانته في بعض المواقف، وإهماله والتنكر له، والاستخفاف به، وكأني به قد نسيَ أن «ست الملك» هذه الأميرة القويَّة المقيمة في القصر الحاكمي تراقب الأحداث بيقظةٍ وانتباه، وأنها تأبى أن تجعل من شقيقها دمية يحركها برجوان، كما يشاء، كما كان ابن الأخشيد في عهد كافور.. وهنا اتخذت قراراً يقضي بقتله، وتخليص الدولة من شروره وآثامه، فأوعزت إلى شقيقها الإمام الحاكم بأمر الله أن يستدعي «الحسين بن جوهر الصقلي» قائد القواد، ويعيده إلى منصبه، وكان الإمام العزيز بالله قد عين الحسين قائداً أعلى للجيش بعد وفاة والده القائد الكبير جوهر الصقلي، واصطفاه، وأولاه ثقته وعطفه... فلما مات الإمام العزيز بالله أبعده برجوان عن القيادة، وقلّده ديوان البريد والإنشاء، وعندما استجاب الإمام الحاكم بأمر الله إلى طلب ست الملك أدرك

برجوان أن الأمور انعكست ضده، وأنه أصبح يعيش في ظل الأخطار، وأن الأمور لم تعد في صالحه... فاستعدَّ للأمر، واتخذ الاحتياطات اللازمة التي تكفل له النجاة من المؤامرات التي يحيكها ضده الأعداء.

نهاية الطاغية

في مساء أحد الأيام... طلب الإمام الحاكم بأمر الله إلى برجوان أن يركب معه في رحلة للنزهة، وانتظره في قصر اللؤلؤ... وهو متنزه خاص بالخلفاء الفاطميين شيَّده الإمام العزيز بالله.. وموقعه على الخليج شرقي البستان الكافوري، وكانوا يصلون إليه من ممر تحت الأرض، متصل بالقصور الأخرى، دون أن يراهم أحد. وأخذ الإمام الحاكم بأمر الله معه ريدان ـ الصقلبي حامل المظلة، وهو من أعدى أعداء برجوان.

وعندما وصل برجوان إلى القصر تقدَّم منه ريدان فقبل يديه وركبتيه، واعتذر إليه عن انشغاله عنه، وكان في الوقت نفسه يتحسَّس ثيابه خوفاً من أن يكون لابساً درعاً من الفولاذ كما هي عادته، فلما تأكد أنه لا يلبس شيئاً رماه أرضاً، وضربه بحديدة على قلبه، ثم طعنه طعنة مميتة في عنقه بسكين حادة، ثم لم يلبث أن انقضَّ عليه جماعة كانوا قد أعدّوا خصيصاً للفتك به، فأثخنوه طعناً بالخناجر، واحتزوا رأسه، ودفنوه في المكان الذي قتل فيه، وكان ذلك سنة ٣٩٠ هـ. وفي تلك الساعة خرجت والدة الإمام الحاكم بأمر الله، وشقيقته ست الملك من القصر خوفاً على الإمام الحاكم بأمر الله، فأمرهن بالرجوع ولما عاد إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع في كل مكان، فاضطرب الناس وهرعوا إلى القصر يستفسرون عن الأمر.. فأشرف الإمام الحاكم بأمر الله على الجموع وخاطبهم قائلاً:

إن برجوان عبدي.. استخدمته فنصح، فأحسنت إليه، ثم أساءَ في أشياء عملها فقتلته، وأنتم ما لكم ولهذا... ثم توجه إلى المغاربة وقال:

«والآن أنتم شيوخ دولتي، وأنتم عندي الآن أفضل ما كنتم فيه مما تقدَّم» ثم التفت إلى المشارقة، وقال:

«أنتم تربية الإمام العزيز بالله، ومقام الأولاد. وما لأحدٍ منكم عندي إلَّا ما

يؤثره ويحبه، فكونوا على رسومكم. وانضوا إلى منازلكم». فدعوا له وقبلوا الأرض وانصرفوا.

اتخذ الإمام الحاكم بأمر الله سلسلة من التدابير لتوطيدالأمور.. فاستدعى فهد بن ابراهيم وهدأ من روعه، وأقره في منصبه، كما أمر بمصادرة أموال برجوان وثروته وكانت وافرة طائلة وانطوت صفحة الرجل الذي تطاول وشمخ حتى حدثته نفسه بما هوليس أهلاً له.

وهكذا فإن الإمام الحاكم بأمر الله، وبعد أربعة أعوام أي لما بلغ الخامسة عشرة استطاع أن يطوي مرحلة الحداثة، وأن يبدأ عهده الفعلي مضطرم النفس والأهواء، وافر الذكاء، والجرأة، والعزم، وأخذ ينظر، ويفكر بما تحتاجه دولته، ومنها تعيين قائد عام للجيش، ورئيس فعلي للدولة يأخذ صلاحيات برجوان، فوقع اختياره كما ذكرنا على «الحسين بن جوهر الصقلي» قائداً للقواد. فاستدعاه، وخلع عليه، وقلده النظر في التوقيعات وأصدر أمره أن لا تبلغ إليه المهام، والظلامات إلَّا في مكتبه في القصر، وألَّا يقصد أحد داره، وألَّا يخاطب بغير لقبه الرسمي، دونما تعظيم أو تفخيم، وألَّا يمنع أحداً من مقابلة الخليفة، أو الاتصال به. وهكذا أصبح الحسين بن جوهر.. وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذي خلف أباه في منصب قاضي قضاة الدولة أعظم رجلين في الدولة الفاطمية.

في هذه المرحلة... قبض الإمام الحاكم بأمر الله بيديه على شؤون الدولة العليا.. .. فنظَّم مجلساً ليلياً كان يحضره أكابر الخاصة، ورجال الدولة، وقواد الجيش والمسؤولون عن المال والاقتصاد، وكانت الغاية منه دراسة الشؤون العامة للدولة وبحثها والنظر في الأحداث المستجدة على الساحة، وكانت هذه أول مظاهر تعلّق الإمام الحاكم بأمر الله بالليل، واتخاذه حجاباً لستر الأعمال، والأفعال، وتقرير الأمور، وفي تلك الفترة توفي «جيش بن الصمصامة» والي الشام فعيَّن مكانه «فحلاً بن تميم». ولما توفي هذا الأخير، عين بعده «علي بن جعفر بن فلاح» وهو ابن القائد الذي فتح الشام في عهد الخليفة الإمام المعز لدين الله، وفي تلك الفترة أيضاً قرر الإمام الحاكم بأمر الله إقصاء المشارقة عن مراكز الدولة الهامة، وتمكين المغاربة من العودة إلى مناطق النفوذ والحكم، كما كانوا في عهد جده الإمام المعز لدين الله.

وهذه الخطوة الجريئة كان لابد منها في مثل هذه المواقف خاصة، وذلك لكي يخلص له حكم مصر وحده، وليستقل بالرأي دون أن يكون هناك من ينازعه الأمر، فأبعد برجوان عن الجيش، والقصر من جهة، ومن جهة ثانية كان يخطط للقضاء على «الحسن بن عمار» زعيم كتامة، وكان مثل برجوان مخرباً أنانياً ظالماً لا يهمه إلا نفسه... يساعد المجرمين، ويستأثر بأموال الدولة، ويعتبره الأتراك المشارقة عدوهم الأكبر، فقد كمن له جماعة منهم في أحد الشوارع وقتلوه.

أشاعت هذه الحادثة الرعب لدى الكتاميين. فتجمعوا وأتوا إلى القصر كاشفين رؤوسهم طالبين من الخليفة العفو، والأمان، متنصلين من أعمال الحسن بن عمار ومن أفعاله وجرائمه. فقبل الحاكم بأمر الله التماسهم، وكتب لهم عهداً بذلك... ومن الجدير بالذكر أن الإمام الحاكم بأمر الله بعد مقتل برجوان، ولّى ابن عمار الوظائف الرئيسية في الدواوين والولايات، والإدارات، فرجع إلى سابق عهده، فعزل المصريين من وظائف الدولة، وقتل بعضهم. وتوقف عن صرف الرواتب للمشارقة. فضلاً عن إساءته معاملتهم، مما اضطر أكثرهم إلى الهرب إلى الشام.

اعتبر المؤرخون عصر الخليفة الفاطمي السادس الإمام الحاكم بأمر الله، عصراً غنياً بالأحداث، والاضطرابات الداخلية العنيفة في المشرق والمغرب، وفي الداخل أحياناً . إذ ترك الإمام العزيز بالله لولده الصغير الحاكم بأمر الله دولة واسعة كبرى مترامية الأطراف تشمل المغرب بتمامه، ومصر، والشام، وغيرها من الأمصار، فكانت بحاجة إلى المزيد من السهر، والعناية، والتنظيم، وبذل الجهود في سبيل توطيد الأمن، والاستقرار... ففي الشام القرامطة، والحمدانيون، والقبائل التي تقف إلى جانبهم من جهة، ومن جهة أخرى الدولة البيزنطية، أو روما الشرقية التي كانت في تلك الفترة تحتل مركز القوة، والعظمة وخاصةً في عهد الإمبراطور باسيل الثاني المعاصر للخليفتين الفاطميين العزيز بالله، والحاكم بأمر الله. فتلك الدولة البيزنطية انتهزت فرصة الاضطرابات التي أثارتها غزوات القرامطة المتكررة إلى الشام، وفلسطين واضطراب أحوالها، واصطدام الفاطميين برغبة الأهلين بعدم الرضوخ، والاستسلام

لدولتهم، فانحدروا إلى بلاد الشام، ومدوا أيديهم إلى داخلها، وشجعوا كل حركة تقوم ضدهم، كما تحالفوا مع «الحمدانيين»، ونتج عن ذلك دخولهم في معارك وحروب، ذكرنا بعضها في الأجزاء السابقة.

الفاطميون والحمدانيون

أما علاقة الحمدانيين بالفاطميين، فكانت في أغلب المراحل تتسم بالحقد والعداء. وعلى الرغم من أن الحمدانيين كانوا فرقة شيعية فإن كلا منهما كان يريد الاستئثار بالحكم. فالحمدانيون أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على إمارتهم في حلب، وما يجاورها، والفاطميون يهدفون إلى السيطرة التامة على كل بلاد الشام، وخاصة حلب لاتخاذها قاعدة لشن هجماتهم على العباسيين في بغداد من جهة، وعلى الروم من جهة ثانية.. وعلى الرغم من أن الحمدانيين في بداية، الأمر، تظاهروابرغبتهم في مساعدة الفاطميين، وعرضوا ذلك في كتاب أرسلوه إلى القائد جوهر الذي حوله بدوره إلى الإمام المعز لدين الله قبل أن يأتي إلى مصر، ولكن الإمام المعز لدين الله لم يقبل هذا العرض فهو يعرف نوايا الحمدانيين، ولا يمكن الاعتماد عليهم...

فكتب إلى قائدة جوهر الصقلي كتاباً أوضح فيه موقفه منهم جاء فيه:

«وأما ما ذكرت من أن جماعة من بني حمدان، وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة في المسير إليك. فاسمع لما أذكره لك:

احذرْ أن تبتدىء أحداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً، أو ترغيباً، ومن كتب إليك كتاباً منهم فأجبه بالحسن الجميل ولا تستدعه إليك ولا تمكن أحداً منهم من قيادة جيش، ولا ملك طرف.. فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم. وليس لهم فيها نصيب. يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة. فاحذرْ كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم».

ومهما يكن من أمر... فإن الإمارة الحمدانية في حلب، ومنطقة الجزيرة كانت تشغل مركزاً استراتيجياً مهماً بين العباسيين والفاطميين، وقد حرص الحمدانيون على الحفاظ على هذه المواقع للدفاع عن إمارتهم، إذ كانوا يعلمون أن الفاطميين يعملون على السيطرة على كل بلاد الشام، وخاصة حلب ومناطق الفرات، وهذا ما

شجع الحمدانيين على مساعدة القوى المناوئة للفاطميين، وخاصة القرامطة في عهد الحسن الأعصم، وأفتكين التركي، وذلك ليحولوا دون نجاحهم في تحقيق أهدافهم.

وقد ثبت أن صداقة وثيقة قامت بين القرامطة، والحمدانيين منذ عهد ناصر الدولة بن حمدان، وتدعمت في عهد ولده أبي تغلب الذي لم يكتفِ بتقديم الأموال، والمعدات للقرامطة، وإنما قدم إليهم الجنود.. كل هذا ويجب أن لا يغرب عن بالنا إقدام الحمدانيين على عقد معاهدة مع البيزنطيين وفيها يتجلى غضبهم على الفاطميين.

ونعود إلى ما نحن بصدده... فقد عرضنا في الصفحات الأولى تفاقم الأحداث في الشام في أواخر عهد الخليفة العزيز بالله، واعتزام هذا الخليفة مباشرة الحرب بنفسه، كما فعل عندما تصدَّى لأفتكين والحسن الأعصم، ولكن الموت عاجله في بلبيس، وهو على رأس جيشه كما ذكرنا، وبعد هذا الحدث الكبير لم يتمكن الإمام الحاكم بأمر الله من إتمام مهمة والده ، إذ كان تحت وصاية برجوان، وابن عمار اللّذين تزعّم كل منهما فرقة خاصة لمقارعة الفريق الثاني، ولم يخطر ببالهما توطيد الأمن في المناطق الخاضعة للدولة الفاطمية، بل كان همُّ كلٍ منهما الانتصار ، وسحق عدوه. وقد رأينا كيف انتهى ذلك الصراع المرير الذي كلف الدولة الكثير من الأموال، والضحايا، وأضاع عليها الفرص لإتمام رسالتها بغزو بغداد، والقسطنطينية معاً وإقامة الإمبراطورية الفاطمية الكبرى... أما الوقائع التي وقعت في تلك الفترة فنلخصها بما يلي:

في سنة ٣٨٨ هـ. اضطرمت الثورة في صور ضد الحكم الفاطمي بزعامة بحار مغامر يدعى «علاقة» فقبض على زمام الحكم فيها، وضرب السكة باسمه، ونقش عليها هذه العبارة: «عزٌ بعد فاقة للأمير علاقة».

وثار في الرملة في الوقت نفسه زعيمها «المفرج بن دغفل الجرّاح». فأرسل برجوان إلى فلسطين جيشاً كبيراً بقيادة «جيش بن الصمصامة» ، وجيش هذا كان جندياً جريئاً باسلاً وقائداً مشهوداً له بالذكاء والمقدرة، وهو من زعماء كتامة المغربية الذين انضموا إلى برجوان ضد ابن عمار الذي كان ينافسه، فسار إلى الرملة واستولى

عليها، وأخضع ثوارها، وطارد المفرج، وضيّق عليه حتى أذعن أخيراً لطلب الأمان، فعفا عنه، وأمنه، ومن هناك توجه إلى صور، وكان علاقة قد استنجد بالإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، ووعده بتسليم صور إليه، فاستجاب إليه. وأرسل المدد في البحر، ولكن وحدة من الأسطول الفاطمي أعطيت الأوامر بالتصدي للبيزنطيين، فسارت إلى صور بقيادة الحسين بن ناصر، وفائق الخادم، فحاصرا صور من البر والبحر، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة انتهت بانتصار الجيش، والأسطول الفاطمي، وسقطت صور في أيديهم، وأسر «علاقة» الذي أُرسل فيما بعد إلى القاهرة حيث أُعدم. ومما تجدر الإشارة إليه.. أن أكثر سفن الأسطول البيزنطي وقعت في أسر القوات الفاطمية، وكان ذلك سنة ٣٨٨ هـ.

أما عن علاقة بني الجرّاح الفلسطينيين بالفاطميين. . فهي علاقة متقلبة لم تكن تثبت على حال... فتارة كانوا يقفون إلى جانب الفاطميين، ويساعدونهم في حروبهم، وتارة أخرى ينضمون إلى أعدائهم، وسبب ذلك رغبتهم الحصول على المال بأية طريقة كانت. ويجب أن لا ننسى أن زعيمهم حسَّان بن الجرّاح رافق الحسن الأعصم القرمطي في هجومه علي مصر. ولما أغراه الإمام المعز لدين الله بالمال ترك حليفه، وكان سبباً في هزيمته، ومن جهة أخرى.. فإن هذه القبيلة استغلّت فيما بعد وفاة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، فهاجم أفرادها أطراف البلاد المصرية حتى وصلوا إلى الفرما - وعاودوا الكرة مرة ثانية سنة ٤١٥ هـ. حين اختلفوا مع أنوشتكين الذي جاء إلى فلسطين كوالٍ من قبل الفاطميين. فهاجموه، واضطروه إلى الهرب ثم زحفوا حتى وصلوا إلى العريش.

لقد كانت العوامل العامة، والخاصة هي التي تدفع بني الجراح إلى الوقوف هذا الموقف أثناء حكم الفاطميين لبلاد الشام، فقاموا بثورات في الرملة وطبرية، وكانت علاقتهم بالفاطميين على وجه العموم تتأرجح بين العداء والصداقة. فمرّة يساعدونهم، ومرّة أخرى يقفون في وجههم وينضمون إلى أعدائهم، متبعين في ذلك ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية، وخاصة المادية منها وقد ثبت أن الإمام الحاكم بأمر الله استعان بمفرج بن دغفل بن الجرّاح في حروبه مع أبي ركوة في المغرب، وقد استجاب مفرج لطلب الإمام الحاكم بأمر الله، وأرسل

أولاده الثلاثة على رأس أعداد كبيرة من العرب المحاربين الذين قدر عددهم بستة عشر ألف من الفرسان والمشاة.

أما جيش بن الصمصامة.. فقد سار من صور باتجاه دمشق، وكان عليها سليمان بن جعفر الابن الثاني للقائد جعفر بن فلاح فاتح الشام على عهد الخليفة الإمام المعز لدين الله، وكان الحسن بن عمار قد عينه عليها إثر انتصاره على منجوتكين واليها السابق، فنزعه جيش من الولاية وأجبره على الفرار، ثم عمل على قمع الفتنة التي أثارها سليمان في دمشق قبل فراره... وبعد أن وطّد سلطة الدولة، واصل سيره إلى «أفاميا» وهي بلدة على مقربة من مدينة حماه ، وهناك التقى بالروم، فنشبت بينهما معركة كبرى هزم فيها الفاطميون في اليوم الأول...، وفي اليوم الثاني صمدت في وجه الروم كوكبة من الفرسان بقيادة «بشارة الإخشيدي» وتمكن أحد الجنود الفاطميين الفدائيين من اختراق الصفوف، والحواجز، والوصول إلى المعسكر البيزنطي، والوثوب على قائد جيشهم المسمَّى «الدوقس» فقتله. وعلى إثر ذلك وقع الاضطراب، وعمَّت الفوضى صفوف الروم، فاتخذها الفاطميون فرصة سانحة لتعديل مواقفهم، فحملوا حملة بارعة عليهم، ومزقوهم شر ممزق، وظلوا يطاردون فلولهم المشردة حتى أبواب أنطاكية. ومن الجدير بالذكر أن أبناء «الدوقس» وكبار القواد، قد أسروا في تلك المعركة، وأرسلوا إلى مصر.. وكان ذلك سنة ٣٨٩ هـ ثم افتدتهم حكوماتهم بعد ذلك.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة، عاد جيش إلى دمشق، وعسكر في ظاهرها، فلاحق العصاة ، والمخالفين ، حتى قبض عليهم. وبسط حكم القانون على المدينة، بيد أنه لم يلبث أن اضطر إلى مواجهة خطر الروم البيزنطيين مرة ثانية، وذلك أن باسيل الثاني لما رأى باسيل ما حلَّ بجيشه من الفشل، والهزيمة.. قرَّر أن يسير إلى الشام بنفسه، فجاء وعاث فساداً وخراباً في ساحلها ما بين بيروت واللاذقية، وهنا استصرخ «جيش» الدولة الفاطمية، فأرسلت إليه المدد من كل صوب، وكان باسيل قد قصد طرابلس عازماً على احتلالها... ولكن «جيش» أعدَّ كل شيء للقائه، ونشبت بينهما معارك عنيفة في البر والبحر. وتشاء الظروف أن تصل إلى باسيل وهو في غمرة الصراع أنباءُ مزعجة عن تحركات «بلغارية» على حدود دولته،

فاضطرّ إلى الارتداد ميمماً وجهة الشمال، وفي تلك الفترة مرض «جيش» وتوفي سنة ٣٩٠ هـ فخسرت الدولة الفاطمية ألمع، وأخلص قائد فاطمي بعد جوهر الصقلي وخلفه «فحل بن تميم» في ولاية الشام. فسادَ الهدوء والاستقرار حيناً من الزمن.

أما برجوان فقد رأى أن يهادن الروم لكي يتفرغ لمعالجة الأحداث الداخلية، والقلاقل التي تفاقمت بسبب مواقف الحسن بن عمار. فأرسل إلى الإمبراطور باسيل يقترح عليه عقد الصلح والمهادنة فاستجاب لدعوته، وأرسل سفيراً من قبله إلى القاهرة حيث انضمَّ إليه بطريرك القدس «أريسطيس» منتدباً من قبل ابن شقيقته الإمام الحاكم بأمر الله، وبعد إتمام المفاوضات، والاتفاق على الشروط، سافر البطريرك إلى القسطنطينية للتوقيع على بنود المعاهدة مع القيصر، وهذه المعاهدة حددت مدتها بعشر سنوات. أما أريسطيس فأقام في عاصمة بيزنطة كسفير للفاطميين مدة أربعة أعوام حتى توفي فيها.

هذا في المشرق، أما في المغرب فقد عصفت بالدولة الفاطمية آنئذٍ العواصف، وخاصةً في طرابلس الغرب التي أعلنت الثورة على الدولة الفاطمية. فأرسل برجوان قوة كبيرة بقيادة «يانس الصقلي» لإعادة سلطة الخلافة الفاطمية... ومن الجدير بالذكر أن المغرب الأدنى المؤلف من مدينتي طرابلس، وبرقة، وما يتبعهما كانتا في ذلك الوقت تحت حكم «باديس بن منصور الصنهاجي»... وغير خافٍ على متتبع التاريخ الفاطمي... أن الخليفة الرابع الإمام المعز لدين الله حينما ترك المغرب قاصداً مصر سنة ٣٦١ هـ. استخلف على المغرب «يوسف بن زيري الصنهاجي» أو «بلكين» كما كانوا يسمونه، فقام بمهمته على أكمل وجه، وساس أمور الدولة بحزم، ووطّد سلطان الحكم، ولكنه في أيامه الأخيرة طلب من الخليفة الإمام العزيز بالله أن يضيف إليه ولاية طرابلس الغرب، وكان الإمام المعز لدين الله قد أراد الاحتفاظ بها، وضمها إلى مصر، فأجابه الإمام العزيز بالله إلى ملتمسه، واستخلفه عليها، ولما توفي بلكين خلفه ابنه المنصور، فأقرَّه أيضاً الإمام العزيز بالله إلى ولايته الجديدة، ثم خلف «باديس» والده المنصور سنة ٣٨٦ هـ. فبعث إليه الإمام الحاكم بأمر الله بالعهد، والخلع المعتادة... فجدَّد البيعة للإمام الخليفة، ولكن يبدو أن آل

زيري طمحت نفوسهم، وأرادوا أن يستأثروا بالسلطة كاملة، وأن يجعلو من الفاطميين في المغرب مجرد اسم لا صلاحيات لهم، ولا وجود، ولما كانت طرابلس الغرب تجاور مصر من ناحية الغرب، فإن الفاطميين خافوا عليها من أطماع أولئك البرابرة الأشداء الطامعين، ولذلك قرر برجوان استردادها وتحصينها، وإقامة فرقة من الجيش فيها حتى تصبح درعاً يقي مصر شر العدوان والغزوات المحتملة، فتفاهم مع حاكمها المغربي، وبعث إليها «يانس الصقلي» كما ذكرنا، ولكن باديس استراب بتلك الحركة المفاجأة، وبعث الجند لمقاتلة يانس الذي لم يستطع الصمود. فانهزم في أول معركة وسقط قتيلاً، فاضطر الإمام الحاكم بأمر الله إلى إرسال جيش آخر بقيادة يحيى ابن علي الأندلسي، فخاض مع المغاربة معارك عدّة اضطر في نهايتها إلى الانسحاب، وترك طرابلس وبعد خطوب، وأحداث، ومناورات، استطاع باديس أن يستعيدها، وأن يبسط حكمه وسلطته عليها.

عودة الى الشام(*)

بعد أن قبض الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله على زمام الأمور في الدولة الفاطمية ، توفي «فحل بن تميم» والي الشام، فعيّن مكانه «علي ابن جعفر بن فلاح» ثم عين بعده تموصلة بن بكار سنة ٣٩٣ هـ. فتوفى بعد مدة قصيرة، فخلفه «مفلح اللحياني» الذي تمكن من إعادة الهدوء، والاستقرار إلى بلاد الشام، وخاصة بعد عقد المعاهدة الفاطمية، البيزنطية، كما ذكرنا، ولكن في سنة ٤٠٠ هـ. عادت الاضطرابات من جديد، ونقم الإمام الحاكم بأمر الله على آل المغربي، وهم أسرة قوية من الأعيان والوزراء كان لها شأن يذكر في الدولة الفاطمية، ففرَّ عميدهم الوزير أبو القاسم بن المغربي إلى الشام، وكان كبيرهم أبو الحسن بن علي المغربي قد خدم الخليفة الإمام العزيز بالله وزيراً في الشام أيضاً، كما اشترك في محاربة بني حمدان أمراء حلب. ولما تولى الإمام الحاكم بأمر الله الخلافة - وكان أبو الحسن وولده أبو القاسم وهما من جلسائه وخاصته، قد اشتركا في مؤامرة ترمي إلى الإطاحة بالحكم - حكم عليهما بالموت، ولكنهما فرا

(*) راجع كتاب ه **الحاكم بأمر الله**، محمد عبد الله عنان.

قبل تنفيذ الحكم، ولجآ إلى حسان بن مفرج بن الجرّاح زعيم عرب فلسطين، فأغرياه بالخروج، والثورة، وكان موقف آل الجرّاح متأرجحاً بين التأييد والمعارضة فثار حسان، وزحف على الرملة، واستولى عليها، وقتل واليها، كما عاث جنده فساداً فيها، واجتمع التمردون آنئذٍ، واتفقوا على استدعاء الحسين بن جعفر الحسيني أمير الحرمين، والمناداة به خليفة، علوياً مكان الإمام الحاكم بأمر الله، وأطلقوا عليه اسم: أمير المؤمنين... الراشد لدين الله.

فنزع هذا ما كان بالكعبة من ذهب، وفضة، وضرب نقوداً باسمه، وأوعز إلى أبي القاسم المغربي لتحريض سائر القبائل الحجازية على خلع طاعة الفاطميين، وسار في جمع كبير منهم إلى الرملة.. وهنا اضطر الإمام الحاكم بأمر الله إلى إرسال الجيوش إلى فلسطين بقيادة «يارتكين» العزيزي، فهزم، وأسر ثم قتل. وبعد ذلك استفحل أمر بني الجرّاح، وبسطوا نفوذهم على جنوبي الشام، وحاصروا حصون السواحل، فرأى الإمام الحاكم بأمر الله أن يأخذهم باللين، والمصانعة، وبعث إليهم الأموال، والتحف، والهدايا، فاستجابوا إليه، وعقدوا الصلح، وعادوا إلى الطاعة، أما الحسين بن جعفر الحسيني، فرجع إلى مكة خوفاً من سوء العاقبة بعد أن اعتذر إلى الإمام الحاكم بأمر الله، فقبل اعتذاره . ثم إن الحاكم بأمر الله رأى أخيراً أن يستميل آل المغربي إليه، فأصدر أماناً للوزير أبي القاسم، ولكنه آثر المضي، والإقامة في بغداد... وهكذا عاد الهدوء وعادت السكينة إلى بلاد الشام.

.. وكان سقوط حلب في أيدي الفاطميين، وزوال إمارة بني حمدان من أعظم الأحداث في عصر الإمام الحاكم بأمر الله. فبنو حمدان كما ذكرنا، استعانوا بالبيزنطيين للإبقاء على إمارتهم وسلطانهم. واستمروا فترة يؤدون الجزية لإمبراطور القسطنطينية. ولم يفلح الفاطميون في عهد العزيز بالله في فتح حلب.

ولكن الصلح الذي عقده برجوان مع البيزنطيين ، أرسى قواعد الهدوء فاستتب الأمن في شمالي الشام. ونجت الإمارة الحمدانية من الفاطميين ولو إلى حين.

ومن الأحداث البارزة في ذلك العهد أن أمير حلب في أوائل عهد

الإمام الحاكم بأمر الله كان «أبا الفضائل بن حمدان» الملقب بـ «سعد الدولة» وهذا الأمير الحمداني استمرَّ في حكمها بمعاونـة وزيره المشهور لؤلؤ.. ولما توفي سعد الدولة، وثب لؤلؤ على ولديه أبي الحسن، وأبي المعالي. وانتزع الولاية لنفسه منهما وحكم باسمهما، ثم نقل الحكم إلى أسرته، فأرسل ولدي سعد الدولة مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة تقرباً إلى الفاطميين واتقاءً لخصومتهم».

توفي لؤلؤ عام ٣٩٩، فخلفه ابنه منصور الذي اعترف بسلطان الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام الدعوة له سنة ٤٠٢، ولقبه الإمام الحاكم بمرتضى الدولة. وبهذا العمل وصل نفوذ الفاطميين إلى حلب مما ساعد على إزالة سلطة الحمدانيين عنها.

قاوم أهل حلب حكم منصور لجوره وعسفه، ولما عجز عن الاحتفاظ بسلطانه في حلب رحل عنها إلى أنطاكية، فتسلم نواب الخليفة الحاكم بأمر الله حكم حلب، وفي عام ٤٠٧ أسند الخليفة الحاكم ولايتها إلى أمير من بني حمدان يُدعى عزيز الملك فاتك، فاستمر في حكمها تحت طاعة الإمام الحاكم حتى وفاته سنة ٤١١ هـ، بعدئذ استأثر بحكم حلب لنفسه، غير أن غلاماً له يسمى بدراً قتله وحلَّ محله في حكم حلب ثم سلمها فيما بعد إلى الخليفة الظاهر، وبذلك انتهى سلطان الحمدانيين في بلاد الشام.

ثورة أبي ركوة

إن أعظم حدث وقع في مصر الفاطمية في عهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله وأشده خطراً على كيان الدولة هو قيام ثورة «أبي ركوة» وغزواته لمصر.. تلك الغزوات التي كادت تزعـزع أسس الدولـة الفاطمية ، وتقضي على الخلافة الحاكمية الفاطمية. والمطلعون على أحوال تلك الفترة يقولون إن أبا ركوة قد أعاد للأذهان ثورة «أبي مخلَّد بن كيداد الخارجي» في المغرب في عهد الخليفتين الفاطميين، القائم بأمر الله، والمنصور بالله .

ينحدر أبو ركوة من سلالة الأمويين الأندلسيين. وذكر: بأن سبب التسمية تعود إلى أن أبا ركوة كان يحمل بصورة دائمة ركوة ماء لوضوئه وذلك حسب الطريقة الصوفية. أما سبب مجيئه إلى الشرق فغير واضح، فحينما حجر المنصور بن أبي عامر ـ الملقب بالقائد،

والمتغلب على حكومة قرطبة في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله الأموي وتتبّع زعماء بني أمية وفروعهم، وذلك للتخلص منهم، فرَّ «الوليد» أبو ركوة فيمن فرَّ من أعضاء أسرته خوفاً من القتل، وكان عند مغادرته لقرطبة في نحو العشرين من عمره. فاجتاز المغرب الأقصى، وأقام في القيروان حيناً يعلم الصبيان، ثم سار بعد ذلك إلى مصر فدرس فيها الحديث، ثم نزح إلى برقة، واستقرَّ في بطون «بني قرة» وهي أقوى قبائلها العربية، وهناك افتتح مدرسة لتعليم الصبيان، واتشح بثوب من الورع والتقوى، واجتذب إليه الناس بما كان يظهره من النسك، والوعظ، وذلاقة اللسان، ونبل الأخلاق.

إن بعض المؤرخين يشك في نسبته للأمويين، ويؤكد أنه من الخوارج، أو من بقايا فروع أبي مخلَّد بن كيداد الذي تقدم ذكره.

ومهما يكن من أمر، فإنه لما قطع مرحلة التجوال والدرس والاتصال... رأى أنَّ الفرصة أصبحت سانحة للعمل وللدعوة.. فكشف عن شخصه، وأظهر نسبته مدعياً أنه ابن أخي هشام المؤيد الأموي، وزعم أنه يملك مصر، ويقيم الإمامة على أسس من التقوى والعدل.. ومن المعروف.. أن بلاد المغرب، وقبائله الساذجة كانت دائماً وأبداً مهداً خصباً لبث الدعوات الدينية، والاستجابة إليها. فاستجاب إليه بنو قرة، والتفَّ حوله البدو القاطنون في أنحاء برقة.. هذا ويجب أن لا نغفل حوادث بني قرَّة وما أصابهم من الضغط والمطاردة والإرهاب في عهد الإمام الحاكم بأمر الله، وكان قد أمر بقتل البعض منهم، وسجن البعض الآخر.. وهذا ما جعلهم يستجيبون إلى أبي ركوة بمجرد أن دعاهم، وهكذا هرعت بطون برقة وقبائلها من سائر النواحي يستجيبون له واتفقوا على أن يكون لأبي ركوة، وأنصاره ثلث الغنائم، ولبني قرَّة وحلفائهم الثلثان.

في هذه الأثناء شعر والي برقة من قبل الفاطميين «إينال الطويل» بخطورة هذه الثورة الصارمة ، فهمَّ بقمعها قبل استفحال شرها، فأبو ركوة لم يتوقف، بل بادر إلى تعبئة قواته، وتزويدهم بكافة المتطلبات القتالية، وبعد أن أتمَّ كافة استعداداته، زحف بجيشه على برقة. فخرج قائد حاميتها «إينال» للقائه، واقتتل الفريقان قتالاً ضارياً في «رمادة». وبالنتيجة هزم جيش إينال هزيمة منكرة واستولى

«أبو ركوة» على خيول أعدائه وسلاحهم، ودخل برقة ظافراً، وبسط حكمه عليها دون معارضة، وكان ذلك سنة ٣٩٥ هـ.

احتل «أبو ركوة» برقة ، وبادر إلى قطع الدعوة الفاطمية من الخطبة، والتشهير بائمّة الفاطميين ولعن الحاكم بأمر الله وآبائه، وتلقّب بالثائر بالله وضرب السكّة باسمه، ودخلت الناس في طاعته، لما أظهره من عدل، ولتفنّنه في الكلام.

بادر الحاكم بأمر الله. وقد أقلقته أنباء برقة، فأرسل الإمدادات إلى إينال فخرج أبو ركوة للقائه فالتقى الفريقان في واد قفر، وكان ثوار أبي ركوة قد طمسوا آباره. فأجهد العطش جيش الفاطميين، ووقع ما لم يكن يخطر على بال حينما أخذ عدد من الضباط المغاربة، والمصريين الناقمين على حكم الإمام الحاكم بأمر الله يتسللون إلى جيش أبي ركوة معلنين رغبتهم بالانضمام إلى قواته لمحاربة الفاطميين، فازداد بهم قوة على قوة.

دارت الدائرة على الجيش الفاطمي ـ للمرة الثانية. فمزقوا شر ممزق، وفي نهاية المعركة أسر قائدهم إينال وأعدم. وعاد أبو ركوة إلى برقة يجرُّ أذيال النصر، وقد امتلأت يداه بالغنائم والأسلاب. فاستفحل أمره، وازدادت هيبته، وسلطانه، وأخذ، بعد تلك الانتصارات السريعة، يتطلع إلى امتلاك مصر. وشجعه على ذلك عدم استقرار الأمور داخل الدولة الفاطمية، وفرار بعض القادة العسكريين، والزعماء الناقمين على سياسة الإمام الحاكم بأمر الله والتحاقهم بأبي ركوة أمثال «الحسين بن جوهر الصقلي» قائد قواد الجيش الفاطمي الذي فرَّ من القاهرة، ولجأ إلى طرابلس الغرب في ظروف غامضة، وكان زعماء المغاربة في تلك الأثناء قد نزعوا ثقتهم من الإمام الحاكم بأمر الله، وأخذوا يتربصون به ويخططون للقضاء على الدولة التي رعتهم، ووفرت لهم أسباب الحياة الراغدة.

أما أبو ركوة، فقد اتخذ من كل هذا مادة لبناء قواته، وفرصة سانحة لإرسال سراياه إلى الصعيد أولاً، فعاثت فساداً في القرى والمزارع، ونهبتها، وقتلت أهلها، ولم تلق أية مقاومة، وعند وصوله إلى هذه النقطة، وجد أن الطريق إلى مصر أصبح مفتوحاً فاندفع بجموعه الثائرة نحو داخل الصعيد، وفي تلك الفترة اتفق مع شركائه على

اقتسام تراث الدولة الفاطمية، فجعل من مصر دولة تابعة له، وخصَّ عرب بني قرة بالشام.

لم يهن الإمام الحاكم بأمر الله، ولم تضعضعه الأحداث، ووصول أبي ركوة إلى صعيد مصر، وإنما اقض مضاجعه الخيانة الكبرى التي اقترفها قائد القوات «الحسين بن جوهر» وبعمله هذا ضرب الرقم القياسي بالخيانة، كما سبق لوالده أن ضرب المثل بالإخلاص للدولة الفاطمية.

ولم يكن زحف أبي ركوة على مصر وتهديدها أقل خطراً من زحف القرامطة على القاهرة، وهجوم الخوارج على «المهدية» في عهد الخليفتين الفاطميين المنصور بالله، والقائم بأمر الله، ولكن القوى الثلاث كان ينقصها في كل مرة النظام، والوحدة، والتناسق في الرأي، والعمل، والقيادة الحكيمة، وفقدان الهدف.. أضف إلى ذلك أن جيش أبي ركوة كان خليطاً من البدو، والمرتزقة، والمتعصبين الذين لا تربطهم أية رابطة سوى رابطة النهب، والسلب.

عمل الإمام الحاكم بأمر الله على استقدام الجيش الفاطمي الذي كان يتمركز في الشام، كما طلب من بني الجرّاح الفلسطينيين إمداده بقوة من عربهم، فاستجابوا لطلبه، وأرسلوا إليه ألوف الفرسان الذين انضموا إلى الجيش الفاطمي الذي عهد الحاكم بأمر الله بقيادته العامة إلى «الفضل بن عبد الله» وهو من القواد المجربين، فزحف سنة ٣٩٦ هـ باتجاه «كوم شريك» وهي قرية تقع على مقربة من الإسكندرية، وهناك التقى بأبي ركوة فدارت بين الفريقين معارك طاحنة قتل فيها أعداد من الجانبين لا تحصى، ولما رأى الفضل كثرة جموع الغزاة وشجاعتهم، لجأ إلى الخديعة، وتفاهم مع بعض زعماء بني قرة بعد أن منحهم الأموال، والعطايا بطريقة سرية ليكونوا له سنداً، وليتجنبوا القتال ما استطاعوا، واستمرَّت المعارك بين الفريقين، ولم ينفع خروج ذلك العدد من بني قرة من الميدان.

رجحت كفة المهاجمين الغزاة. فارتدَّ الفضل بجيشه صوب القاهرة، وعند وصول الأخبار إلى العاصمة الفاطمية، ذعر الناس، وسرى الخوف، وكان أبو ركوة حينئذٍ قد بلغ صحراء الهرم.. وهنا أرسل الإمام الحاكم بأمر الله جيشه الاحتياطي، وعهد بقيادته إلى «علي بن

جعفر بن فلاح» ولكنه ومنذ المعركة الأولى لم يستطع الثبات أمام الجحافل الزاحفة المندفعة... وعند عودته.. كان الإمام الحاكم بأمر الله قد أعاد تنظيم جيش الفضل من جديد، فأمره بالتصدي للجيوش الزاحفة. وفي هذا الوقت، ولأسباب لم تعرف بعد ارتدَّ أبو ركوة صوب صحراء الفيوم... فتبعه الفضل بقواته، بعد أن كان قد نظمها تنظيماً دقيقاً، وعززها بالمدد، فاستؤنف القتال، ودارت رحى المعارك بضراوة.

كان لابد لأبي ركوة من خوض المعركة الأخيرة التي أعدها، وجهَّز لها الفضل كل شيء، وفي نهايتها هزم أبو ركوة. وتمزقت جموعه ، ولكن الفضل لم يترك لها الفرصة لإعادة تجمعها فتبعها، وسدَّ عليها منافذ الهرب، وفي تلك الفترة كان يرسل للقاهرة برؤوس القواد، والزعماء، الذين خانوا مصر الفاطمية، وفضلوا اللجوء إلى الثوار. أما أبو ركوة فقد ارتد جنوباً، ولكن الفضل ظلَّ يطارده حتى حدود بلاد النوبة وهناك قبض عليه، بفضل معونة ملك النوبة روفائيل، فحمله إلى القاهرة أسيراً.

بعد تلك الانتصارات الحاسمة التي حققها القائد فضل... كان لابدّ له من الرجوع إلى القاهرة. فخلع عليه الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، وغمره بعطفه، وأقيمت الاحتفالات، والمهرجانات في طول البلاد وعرضها. أما أبو ركوة، فجيء به إلى الإمام الحاكم بأمر الله، وعندما وصل خرَّ ساجداً، وقبَّل الأرض، والتمس الصفح، وقدَّم إليه رقعة عليها هذه الأبيات:

فررتُ فلم يغنِ الفرار ومن يكن مع الله لم يعجزه في الله هاربُ
ووالله ما كان الفرار لحاجةٍ سوى فزع الموت الذي أنا شاربُ
وقد قادني جرمي إليك برمتي كما خرّ ميت في رحى الموت سارب
واجمع كل الناس إنك قاتلي فيا ربّ ظن ربما فيك كاذب
وما هو إلَّا الانتقام وينتهي وأخذك منه واجب لك واجب

بيد أن الإمام الحاكم بأمر الله لم تـأخذه بالثائر أية رأفة، فأمر بمعاقبته والتنكيل به، باعتباره سبب خـراب العديـد من المدن، والقرى، وتشريد سكانها، فضلاً عن الضحـايا التي سقطت في ميادين القتال.. مضافاً إلى ذلك تكبيد الدولة الفاطمية الأمـوال،

ونفقات القتال، والأنكى من كل هذا إعادة لعن «أهل البيت» على المنابر، فطيف به في شوارع القاهرة في هيئة زرية. ومن ورائه «سعدان» مدرَّب يصفعه كلّمـا رفع رأسه، ولما مرَّ الموكب بمنظرة الذهب حيث كان الإمام الحاكم بأمر الله جالساً مع أركان الدولة لمراقبته، استغاث أبي ركوة بالحاكم بأمر الله ، فلم يصغ إليه... وهكذا لم يصل إلى ظاهر القاهرة إلّا جثة هامدة وهناك قطع رأسه وصلب في الميدان الكبير. وأسدل الستار على الشخصية المقامرة التي أقضت مضاجع الدولة الفاطمية.

باديس يحافظ على ولائه

وننتقل... بعد هذا العرض إلى المغرب، لنرى موقف حكامه آل زيري المنتدبين من قبل الفاطميين. فهؤلا ء لم تذكر المصادر التاريخية أنهم تحمسوا للفاطميين، أو ناصروهم أثناء ثورة أبي ركوة، بل كان موقفهم يكتنفه الغموض والتريث. وأغلب الظن أنهم كانوا يرغبون، ويتمنون سقوط دولة الإمام الحاكم بأمر الله، وذلك لكي يصفو لهم جو المغرب... هذا من جهة ومن جهة ثانية، فإنهم في تلك الفترة لم يخفوا امتعاضهم من معاملة الخليفة الفاطمي للمغاربة خاصة، فقد ذكر أن «باديس بن زيري» لما وصل إلى القاهرة سنة ٣٩٦ هـ وكان في طريقه إلى الحج، وكانت ثورة أبي ركوة في تلك الفترة على أشدها، جلس في حضرة الإمام الحاكم بأمر الله فسألـه عن رأيه في أبي ركوة؟ فعظم باديس حاله، وذكر قواته، وكثرة جموعه.... وكان الإمام الحاكم بأمر الله يصغي إليه، وهو صامت لا يردّ. وعند أوبته من الحج أخرّه الحاكم بأمر الله بضعة أيام في القاهرة، ليشهد الأفراح التي أقيمت بمناسبة الانتصار على أبي ركوة، وليرى بعينه مصير هذا الثائر العنيد المتعصب.. وكان الإمام الحاكم بأمر الله يقصد من ذلك إدخال الرهبة إلى قلبه، وإعطاءه درساً مبطّناً عن مصير كل من تحدثه نفسه بالخروج على إرادته. وعصيان أوامره.

ومهما يكن من أمر... فإن المغرب ظلَّ مرتبطاً برباط الودّ التقليدي بالدولة الفاطمية. ففي سنة ٤٠٠ هـ. زحف باديس إلى طرابلس الغرب، وأخرج منها قبيلة زناتة، وفي سنة ٤٠١ هـ أرسل الإمام الحاكم بأمر الله هدية إلى باديس، وابنه المنصور، فتلقياها بالبنود،

والطبول، وفي سنة ٤٠٤ هـ وصلت سجلات من الإمام الحاكم بأمر الله بإضافة برقة، وما يجاورها إلى باديس، وفي سنة ٤٠٥ هـ أرسل باديس هدايا للخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، كما أرسلت أخته هدية ثمينة إلى الأميرة ست الملك، وكل هذا يدل على أن آل زيري ظلوا على عهدهم بالحفاظ على ارتباط المغرب بالدولة الفاطمية. أما صقلية فحافظت أيضاً على ولائها للدولة الفاطمية بفضل سياسة الكلبيين ، وخاصة في عهد يوسف وابنه جعفر، وكان الإمام الحاكم بأمر الله قد منح يوسف لقب ثقة الدولة، وولده جعفر تاج الدولة، ولما ألغى الإمام الحاكم بأمر الله جميع الألقاب في دولته الفاطمية، أبقى على هذين اللقبين ـ .. .. ومن الجدير بالذكر أنه سنة ٤٠٥ هـ. قام المغاربة في صقلية بثورة، ولكن جعفر تغلب عليهم، وعندما عادوا ثانية اشترطوا على يوسف إبعاد ابنه جعفر إلى مصر، فأرسله إلى الإمام الحاكم بأمر الله، وولَّى بدلاً عنه ابنه الثاني أحمد المعروف بالأكحل، وقد ظلَّ على ولائه للفاطميين، ولم يتغير حتى آخر حياته.

النظم الادارية في الدولة الفاطمية

امتازت الدولة الفاطمية، وخاصة في عهد الإمام الحاكم بأمر الله بنظمها الجديدة الفريدة والغريبة على المجتمع. وهذه النظم التي سبقت عصرها ابتدعها الخلفاء الفاطميون الذين تميزوا بثقافتهم الواسعة وبعد نظرهم. فكانت الوزارة وهي أول رتبة أوجدها الفاطميون في عهدي المعز لدين الله، والعزيز بالله، وقد عرف بأن الخليفة كان يتولّى بنفسه إدارة جميع الشؤون الإدارية، والمالية، والعسكرية دون مساعدة أحد إلّا بعض رؤساء الدواوين. ومن المعروف أيضاً أن أول وزير في الدولة الفاطمية أخذ صنعه الوزارة الرسمية هو «يعقوب بن كلِّس» وذلك سنة ٣٦٨ هـ. ومن ذلك الحين قامت الوزارة، التي كانت تسمى أسماء أخرى... فتارة يسمّى رجل الدولة الأول بعد الخليفة وزيراً، وتارة وسيطاً، وأخرى سفيراً، وفي بعض الأحيان أميناً أو قائداً.

أما الصلاحيات فواحدة، وهي لا تخرج عن كونها مهمة يضطلع بها كبير رجال الدولة، والمرجع الأعلى، وصاحب الحق بالتوقيع عن الخليفة، والبت في جميع الشؤون الهامة على يد مختلف الكتاب، وأصحاب الدواوين.

وفي أواخر عهد الإمام الحاكم بأمر الله أعيدت صفة الوزارة، فتولاها لأول مرة «علي بن جعفر بن فلاح» وذلك سنة ٤٠٨ هـ. ولقب وزير الوزراء ذو الرئاستين الأمير المظفّر قطب الدولة. واستمرّت مهمة الوزارة على حالها حتى أواخر عهد الخليفة الفاطمي الثامن الإمام المستنصر بالله.. وكان يتولاها في الغالب رجال مدنيون، أو أصحاب أقلام إلّا في الظروف الاستثنائية، فكان يعهد فيها إلى رجال السيف مثل برجوان، والحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد، والحسن بن عمار، وعلي بن صالح الروزباري. وإلى جانب الوزارة، كانت ثمة عدة مناصب عسكرية، وإدارية عليا منها: وظيفة صاحب الباب، أو صاحب الحجاب، وهذا يلي الوزير الأول في المرتبة، وكان له صلاحية النظر في المظالم، وهذا المنصب لم يكن موجوداً إلّا في ظل الوزارة المدنية. أما في وزارة أصحاب السيف فكان الوزير الأول هو الذي يتولّى النظر في المظالم.

ومنها وظيفة «الاسفهسلار» وهو القائد الأعلى للجيش، وكان منوطاً به النظر في أمر الجند، وجميع الشؤون العسكرية كتنقلات الضباط، والقواد، وإعداد الكتائب، وتوزيعها في المناطق ، وتهيئة الحملات الحربية، وغير ذلك.

وهناك مجموعة من الموظفين المختصين بخدمة الخليفة خاصة مثل: حامل المظلة، وحامل السيف، وحامل الرمح... ويتبع هؤلاء حملة السلاح أو الركابية، وصبيانهم، وهي فرق من الحرس الملكي.. وكان هناك أيضاً ولاية القاهرة، وولاية مصر «الفسطاط» وهذان المركزان مرتبطان مباشرة بالوزير الأول.

نظام الدواوين

وأما الدواوين فهي تمثل مختلف الوزارات في عصرنا.. وكانت تشمل: ديوان الإنشاء والمراسلات، ويتولاها أشخاص من ذوي المكانة والأمانة... فضلاً عن أن المفروض فيهم القدرة على الكتابة، وامتلاك ناصية اللغة العربية، ولهؤلاء الكتاب رئيس يعرف بكاتب الدست الشريف، وينعت بالأجل، ومهمته النظر في المكاتبات الصادرة، والواردة، والرد عليها بعد عرضها على الخليفة، واستشارته في كثير منها، ويعاونه عدد من أكابر الكتاب.. منهم: صاحب التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم، وهو يلي الرئيس في المرتبة، وله عند الخليفة مكانة خاصة، لأنه جليسه وقارئه، ويأتي بعده صاحب التوقيع بالقلم الجليل، ومهمته الإشراف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق، وكانت المظالم ترفع أولاً إلى صاحب القلم الدقيق، فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة، أو الوزير الأول، أو بما يراه هو، ثم تحمل إلى صاحب القلم الجليل، فيفصل فيها ما أجمله الأول، وبعدئذٍ تحمل إلى الخليفة فيوقع عليها، ثم تسلم إلى أربابها تمهيداً لتنفيذ ما فيها.

وهناك أيضاً ديوان الجيش، والرواتب، ولا يتولاه سوى المسلمين المقربين جداً من الخليفة، وصاحبه يكون مرجعاً لشؤون الجند، والخيل، والإقطاعات، ويلحق به ديوان الرواتب، وهو مختص بالنظر في الأرزاق، والجرايات، وديوان الإقطاع، وهو المختص بالنظر في شؤون الإقطاعات، وديوان الجهاد، ويقال له ديوان العمائر، ويختص بالنظر في أمر الأساطيل البحرية الحربية، والمدنية، وإنشائها،

وتسييرها، والإنفاق على رجال البحر... ومن المعروف أنه كان للدولة الفاطمية عناية خاصة بإنشاء الأساطيل، وحماية الثغور، ولا سيما سواحل بلاد الشام التي كانت عرضة للغزوات البيزنطية.

وبعد هذا يأتي ديوان المجلس، وهو مرجع الدواوين كلّها، وفيه كتّاب عدّة يختص كل منهم بمجلس منفرد، ويتولّى صاحبه التحدث في شؤون الإقطاعات والأرزاق لدى الخليفة مباشرة، وديوان النظر ، وهو ديوان المال، ويتولاه عادة وزير ثقة تعود إليه صلاحية النظر في شؤون الأموال العامة للدولة، وضبط الداخل والخارج، والمحاسبات، وديوان التحقيق، ويختص بالمقابلة على الدواوين الأخرى، ومراجعة أعمالها، والتحقق من انتظامها كما يدل على ذلك اسمه، وديوان الأحباس، أو الأوقاف، ويختص بالنظر في شؤون الأحباس العامة والخاصة، والإشراف على غلتها، وإنفاقها في وجوهها الشرعية، وديوان المواريث، ويختص بشؤون المواريث، وضبط أحكامها، وكان في الدولة الفاطمية أيضاً ثلاثة دواوين إدارية لها أهميتها... وهي:

ديوان الصعيد، وديوان أسفل الأرض، أو الوجه البحري، وديوان الثغور ويعنى كل منها في شؤون الأقاليم الإدارية التي تدخل في اختصاصه.

وأما الوظائف الدينية فكان أهمها، وأعظمها قدراً:

منصب قاضي القضاة، فقاضي القضاة هو أعظم زعيم ديني في الدولة، يعينه الإمام فإليه ترجع الأحكام الشرعية في المعاملات، والعبادات، والحدود. وأعني بذلك الشؤون الدينية، والمدنية، والجنائية، والنظر في شؤون السكة «دار الضرب»، فضلاً عن شؤون المساجد، وأئمتها، وموظفيها، وسائر المتصرفين فيها، وكان اختصاصه يشمل مصر، والشام، والمغرب، والحرمين، ومركزه العام في القاهرة «المعزية» وله نواب يختارهم للقضاء في الأقطار الأخرى، وعادة يصدر مرسوم تعيينه من الخليفة بالذات. هذا إذا كان الوزير من رجال القلم، أما إذا كان من وزراء السيف، فإن مرسوم تعيينه يصدر من الوزير مباشرة.

ومن الوظائف الدينية الهامة منصب المحتسب، واختصاصه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة، ويدخل في

اختصاصه الإشراف على الآداب العامة، ومراقبة أمـاكن اللهو، والنساء العابثات، وضبط شؤون المكاييل، والموازين، ومراقبة أحوال المطاعم، والمشارب العامة، ومطابقة أسعارها، ونظافتها، والسهر على نظافة المساجد، وإنارتها وحمايتها من غشيان الباعة، والمتطفلين، وتنفيذ السجلات الخاصة بالذميين، وفيما فرض عليهم، وتأديب المخالفين، وزجرهم، وله نواب في سائر الأقاليم، يقومون عنه بمثل هذه المهام، وكانت أعمال الحسبة تسند أحياناً إلى متولي الشرطة، والظاهر أن نظام الحسبة يشبه في كثير من الوجوه نظام النيابة العامة في عصرنا. فالمحتسب يشبه في مركزه، واختصاصه في بعض الوجوه مركز النائب العام.

وهناك أيضاً، وكـالة بيت المـال، ويتولاهـا رجل ثقـة من رجال الاختصاص ، ويفوض إليه الخليفة النظر في شؤون المالية، وبيع ما يرى بيعه، أو ابتياعه من المتاع، والنظر في شؤون الرقيق، وإنشاء ما يحتاج إليه الخليفة من الأبنية، والسفن، وما يختص به.

وكان إلى جانب كل هذه المناصب، والاختصاصات.. مناصب تختص بخدمة الخليفة، والقصر، وقد أشرنا إليها.. وأهمها:
حامل المظلة والسيف، والرمح.. بيد أن أهمها وظائف الأساتذة «المحنكين» ومنهم صاحب المجلس، وهو الذي يتولّى الإشراف على المجلس الذي يجلس فيه الخليفة، وإخطار رجال الدولة بحضوره، وهذا المنصب يشبه إلى حد ما منصب مدير المراسيم في عصرنا، ثم صاحب الرسالة وهو الذي يتولّى إبلاغ رسالة الخليفة إلى الوزير ،أو غيره من كبار رجال الدولة. ثم متولي القصر وهو الذي يشرف على شؤون القصر بوجه عام، وصاحب الدفتر المعروف بدفتر المجلس، وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لشؤون الخلافة . وحامل الدواة أي دواة الخليفة ويتولى زمام الأقارب، وهو المشرف على شؤون الأسرة الفاطمية، وأعضائها، وزمام الرجال، وهو المختص بإعداد طعام الخليفة، والنظر في شؤون الخدم، ومستخدمي القصر، وعبيد الخليفة، وهناك الطبيب الخاص، ويعاونه عادة أطباء آخرون ينتقيهم بنفسه، ويكونون تابعين له... ثم قرّاء الحضرة وهم الذين يقرأون بحضرة الخليفة. أما الشعراء فيتبعون ديوان الإنشاء. وقد أنشئت في عهد الخلافة الفاطمية، ولأول مرة هيئة رسمية خاصة، مهمتها

النظر في شؤون الأسرة العلوية التي تنتسب إلى «البيت النبوي» وعرفت هذه البيئة يومئذٍ، أي بعهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله «بنقابة الطالبيين»، وفي العصور المتأخرة عرفت «بنقابة الأشراف» ولا تزال قائمة في بعض البلدان الإسلامية حتى يومنا هذا، وكان يتولّى النظر بشأنها أحد أكابر شيوخهم وأجلهم قدراً، ومهمته تنحصر بالسهر على صحة الأنساب، والتصديق عليها، ورعاية شؤون أفراد الأسرة، وقضاء مصالحهم، وعيادة مرضاهم، والسير في جنائزهم، والعمل على توثيق أواصر الوفاق والمحبة فيما بينهم.

الحاكم بأمر الله والنهضة الثقافية

ازدهرت العلوم والثقافة ازدهاراً كلياً في مطلع القرن الرابع الهجري. ففي تلك الفترة رفع البويهيون، والحمدانيون لواء العلم والأدب في المشرق، كما ساهم العباسيون ، والأندلسيون في ذلك، ولكن الفاطميين كانوا أكثر رغبة، واندفاعاً في هذا السبيل، وما ذلك إلّا لأنهم يعتقدون بأن كل نهضة علمية لا يمكن لها أن تصل إلى مستوى السبق والازدهار، إلّا إذا تولتها أيدي أحفاد الرسول الكريم محمد (ص) ثم إن الإسماعيليين كانوا يعتقدون أيضاً بأن الإمام هو المصدر للعلم، وللعرفان، وأنه هو «المعلم». فالخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله مثلاً اشتهر بسعة اطلاعه، ولم تشغله مهام الخلافة، وأعباء الحكم عن البحث، والتأليف، وقد ثبت أنه كثيراً ما كان يحتم على ابنه وولي عهده المعز لدين الله بأن يتوفر على الدرس، والتحصيل، والتزود من العلم وإنه كان حريصاً أيضاً على حث العلماء على الاستزادة من العلوم، ومواصلة البحث والدراسة.

ومكتبة الفاطميين التي كانت في المنصورية بالمغرب، ثم انتقلت إلى القاهرة المعزية، كانت زاخرة بالكتب، ومفتوحة الأبواب لكل طالب وراغب، ومن المشهور عن الخلفاء أنهم كانوا يعقدون المجالس العلمية، والندوات الثقافية، فيحضرها رجال الدولة، والعلماء، والأدباء، فيظهرون مقدرتهم، وإلمامهم بالفلسفة، وعلم التأويل ـ والفقه، والحديث، والطب، والهندسة، وعلم الفلك.

وبالإضافة إلى كل ما تقدم فقد كان لهم مجالس خاصة، تسمّى مجالس الحكمة، وهي خاصة بتعاليم الدعوة الإسماعيلية، ففيها كان

الدعاة يتولون شرح ما غمض من كتب الباطن، والتأويل، والفلسفة، والإلّهيات. وكانت هذه المجالس جزءاً من مخططات الدولة، ولها أثرها البارز في سير الدعوة في الأقطار الإسلامية بحيث كان يختار للاضطلاع بها دعاة عباقرة، ولهذا نستطيع القول بأن الفاطميين قد ضربوا بسهم وافر في تنظيم شؤون دعوتهم، فنمَت نمواً مضطرداً، وأنجبت رجالاً أفذاذاً سبقوا عصورهم، وقدموا للعالم الإسلامي أروع النتائج الفكرية، وأغزر الثمرات العلمية.

أجل.. كانت مصر نصيرة العلوم والآداب، وخاصة في عهد الدولة الإخشيدية ولكن الفاطميين جاؤوا ليضيفوا إلى ذلك اهتمامات أوسع مدى. فلما قامت دولتهم في مصر شغلت باديء ذي بدء بتوطيد ملكها الفتي. فكان اهتمامها بالحركة العلمية محدوداً.

دار الحكمة

بيد أن الحركة الفكرية لم تلبث أن ازدهرت عقيب الجامعة الفاطمية الكبرى «الأزهر» التي بناها القائد جوهر الصقلي بإيعاز من الخليفة الإمام المعز لدين الله، ثم أقيمت فيها فيما بعد بأمر الخليفة الإمام العزيز بالله، حلقات التدريس كما نظمت مجالس الحكمة في القصر الإمامي، وفي جامعة الأزهر أيضاً. وأنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله «دار الحكمة»، وهي أول مجمع علمي أو أكاديمية تأسست في العالم الإسلامي، وقد كانت تلقى فيها المحاضرات على الطلاب من مختلف المذاهب، وتغطي جميع أصناف العلوم والفنون.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما كان للوزير يعقوب بن كلّس من أثر بارز في توجيه الأزهر وجهته الجامعية ، وقد أدرك الحسن بن زولاق المصري عميد الحركة الأدبية في عصر الأخشيديين أثر الدولة الفاطمية في هذا المجال، فأخذ بقسطه في زعامة تلك الحركة، وتولّى رعايتها في عهد الخليفتين المعز لدين الله، والعزيز بالله.

ومما يجب أن يدوَّن أن المعز لدين الله أولى ابن زولاق عطفه، وتقديره، ـ من جهته، فإن ابن زولاق عرف قدر الإمام المعز لدين الله، فوضع عنه كتاباً قيماً. ولكن هذا الكتاب لم يعثر له على أثر.

ومن جهة ثانية... فإن الإمام الحاكم بأمر الله أولى الحركة العقلية قسطاً كبيراً من اهتمامه ورعايته، فأجزل المخصصات لدار الحكمة،

وزوّدها بخزائن الكتب القيمـة، وعقد مجـالس المناظـرة للعلماء، وللأدباء، وغمرهم بصلاته، وقرَّب إليهم عدداً من أقطاب المفكرين والأدباء المشهورين في ذلك العصر. أمثال: الأمير المسبحي، ومحمد ابن القاسم بن عاصم شاعره وجليسه، وكان من أشعر شعراء العصر، أبـي الحسن علي بن محمد الشـابشتي صاحب كتـاب «الديارات» وغيرهم.

تشجيع العلماء

ولابد لنا، ونحن نتحدث عن الحركة العلمية في عهد الإمام الحاكم بأمر الله ، من الوقوف قليلاً عند العلاَّمة الرياضي، والمهندس الكبير «الحسن بن الهيثم» الذي اشتهر بكتابه «علم المناظر في البصريات»، وهذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية، وصار كتاباً مدرسياً في أوروبا، ومن المعلوم أن ابن الهيثم كان يعيش في دمشق عندما سمع الحاكم بأمر الله عن لسانه كلاماً مؤداه:

> «لو سمح لي خليفة مصر الإمام الحاكم بأمر الله الفاطمي لعملت في النيل عملاً يغني مصر».

فبعث بطلبه، ولما جاء إلى مصر زوّده في كل ما يحتاج إليه، وأرسله إلى موقع الشلالات في أسوان، وهناك أجرى دراسات واسعة، ثم عاد إلى القاهرة، وعندما مثل أمام الإمام الحاكم بأمر الله أعلن له بصراحة استحالة نجاح المشروع فشكره الإمام الحاكم بأمر الله على صراحته. وأبقاه في مصر قريباً من دار الحكمة، مشمولاً بعطفه، ورعـايته.

ويجب أن لا يسهى عن بالنا بأن الإمام الحاكم بأمر الله طلب إلى عامله في حلب، أن يرسل إليه أبا العلاء المعري الشاعر الفيلسوف، ولما اعتذر بسبب مرضه، أمر أن يترك له ريـع الدولة من بلدة معرة النعمان السورية طيلة حياته.

وأرسل الإمام الحاكم بأمر الله بطلب الفيلسوف الكبير «أحمد حميد الدين الكرماني» الذي كان يعيش في العراق، وعندما حضر، حَصَرَ مهمته بإلقـاء سلسلة من المحـاضرات في دار الحكمـة لتعريف خصائص الإمامة، ومعرفة مرتبة الأئمة، ومحاربة العناصر التي حاولت تشويه مبدأ التوحيد وهو المبدأ الإسلامي الأساسي الذي

كان الإمام مسؤولاً عن حمايته والدفاع عنه. فقام بالمهمة على أكمل وجه، وفي القاهرة وضع رسالة «مباسم البشارات» و «الرسالة الواعظة» وهي تهدف إلى الاعتدال بالاعتقادات الفاطمية، وإلى سلوك الطريق الصحيح. والكرماني الذي سنتحدث عنه في الصفحات الآتية من موسوعتنا، هو حجة العراقين، ومن أعظم الفلاسفة الذين أنجبتهم الدعوة الإسماعيلية، فكتابة «راحة العقل» في الإلّهيات من أعظم الكتب التي خرجت من المدرسة الفلسفية الإسلامية الإسماعيلية.

ومن العلماء البارزين في ذلك العصر «علي بن يونس الفلكي» المعروف «بابن يونس» وقد عرف أن الإمام الحاكم بأمر الله قربه، ومحضه عطفه.. وكان والده «العزيز بالله» قد أقام له مرصداً على جبل المقطم، حيث تمكن من أن يرصد منه كسوفين للشمس، ولهذا العالم كتاب «الزيج الحاكمي» الذي كتبه تخليداً لذكرى الإمام الحاكم بأمر الله... ومن الجدير بالذكر أن ابن يونس هو أول من اخترع «بندول» الساعة، وليس «غاليلو» كما ذكر.

ومن الأمور التي تستدعي النظر، علاقة الحاكم بأمر الله بابن سينا ووالده الذي كان من دعاته، وهذا ما سنوضحه أيضاً.

إذن نستطيع القول باطمئنان أن الإمام الحاكم بأمر الله قد رعى العلم، وقرَّب العلماء، وتعهد النهضة الفكرية وهي صغيرة، ولم يزل بها حتى أوصلها إلى الذروة، وجعلها مهوى لأفئدة العلماء الآخرين من الأقطار الأخرى الذين وفدوا إلى مصر للإسهام بهذه الحركة الأدبية الكبرى.

النهضة العمرانية

لم تشغل الخليفة الفاطمي الإمام الحاكم بأمر الله، الأحداث الجسام، والاضطرابات التي كانت تعصف في دولته من حين لآخر سواء في الداخل أو الخارج عن الأعمال العمرانية، والمآثر الخيرية الجليلة، وتجميل عاصمة ملكه القاهرة «المعزِّية» فقد عني بتجديد الجامع الأزهر وأدخل عليه الإصلاحات، والتحسينات الضرورية، كما أنشأ جامعة «دار الحكمة» و «دار العلم» بالإضافة إلى مسجده

المعروف بجامع الحاكم، أو الجامع الأنور... وكان والده الإمام العزيز بالله قد بدأ ببنائه، ولكنه مات قبل الفراغ منه ولما فرغ الإمام الحاكم بأمر الله من عمارته عني بفرشه وتأثيثه عناية فائقة، وزيَّنه بالستور الفخمة، والتنانير الفضيَّة، وذكر أنه صلَّى فيه لدى افتتاحه، وكان يوماً مشهوداً من أيام مصر الخالدة.

وأنشأ جامع راشدة، وأشرف بنفسه على تأثيثه، وتزيينه أيضاً، كما صلَّى فيه لدى افتتاحه، وخطب في الناس، وهكذا بالنسبة لجامع المقس، وبنى في جبل المقطم مصلًّى عرف بمصلَّى العيد، وكان يختلف إليه من حين لآخر، عندما يؤثر العزلة، والانقطاع للعبادة والتأمل.

وفي سنة ٤٠٣ هـ. أمر الحاكم بأمر الله بإحصاء المساجد التي لا مورد لها، فوجد ثمانمائة وثلاثين مسجداً في جميع أنحاء مصر، فأصدر أمره بأن ترصد لها النفقات الضرورية، كما أجرى فيها الشعائر. وفي سنة ٤٠٥ هـ. وقف عدة مزارع، وقرى، وأراض على القراء، والفقهاء، والمؤذنين، وموظفي المساجد، وحفاري القبور، والعاملين في المصحات العامة، والمستشفيات، كما وقف على الأزهر «دار الحكمة» وقسماً من أملاكه الخاصة، وخصها ببعض ما كان يرد إليه من الجهات الأخرى، وهي أموال الزكاة الخاصة.

ومن المآثر المشهورة للإمام الحاكم بأمر الله... أنه أغدق المنح على الأساتذة المولجين بدار الحكمة، وخصصَّ لهم ما يكفل الحياة. أما قصر اللؤلؤ على الخليج، فكان قد بناه والده الإمام العزيز بالله، وجعله منتجعاً خاصاً، وعندما جاء الحاكم بأمر الله أدخل عليه التحسينات.

وزراء الحاكم بأمر الله

رأينا أن نأتي هنا على أسماء الوزراء الذين عملوا في دولة الإمام الحاكم بأمر الله الفاطمية، مع لمحة موجزة عنهم، وذلك لكي لا تفوت القارىء الكريم أية شاردة أو واردة من تاريخ الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الكبير.

١ - **علي بن عمر العداس**: مغربي الأصل، كان من ضمن القائمين على أمور الخراج. وفي أيام الخليفة الإمام المعز لدين الله ضمن كورة

بوصير سنة ٣٦٤ هـ. وبعد ذلك ولّاه الإمام العزيز بالله الوساطة، وقد جاء هذا بعد وفاة يعقوب بن كلِّس، ولم يلقبه بالوزير، وقد مكث في منصبه هذا مدة عام كامل. كان ينظر في شؤون المالية، ويشرف على العمال. وأمر أن لا يصرف شيء إلَّا بتوقيعه. ظلَّ في عمله بديوان الاستيفاء طيلة خلافة الإمام الحاكم بأمر الله.

٢ ـ **جعفر بن الفضل بن فرات**: اختلف المؤرخون على المدة التي قضاها في الوزارة بعهد الإمام الحاكم بأمر الله، كما اختلفوا في الشخص الذي خلفه في الوزارة، ولكن من المؤكد أنه عزل من وظيفته في أول شهر تولَّى فيه الإمام الحاكم بأمر الله شؤون الخلافة.

٣ ـ **الحسن بن عمَّار**: لقبه الإمام الحاكم بأمر الله بأمين الدولة... هو شيخ قبيلة كتامة المغربية، وسيدها دون منازع، وأول من أعطي لقباً من رجال الدولة الفاطمية.. .. كان مستبداً، وظالماً، وقام بتصرفات شاذة منتهزاً صغر سن الإمام الحاكم بأمر الله.

٤ ـ **برجوان «أبو الفتوح»**: خصي أبيض من الصقالبة البلقانيين... تربى في قصر الخلافة، وصار قيّماً على الحاكم بأمر الله. وقف بوجه ابن عمار، وخاض معه جملة معارك حربية وسياسية... انتهى نهاية مؤثرة.

٥ ـ **الحسين بن جوهر الصقلي** : هو ابن القائد الكبير جوهر الصقلي فاتح مصر وبلاد الشام وموطِّد دعائم الدولة الفاطمية في المغرب... لقبه الإمام الحاكم بأمر الله بقائد القوَّاد، وأعطاه صلاحيات مطلقة للحكم، ولكنه انحرف وفرَّ إلى صفوف أبي ركوة الثائر كما أسلفنا.

وعندما انهارت الثورة فرَّ إلى دمشق واختبأ فيها، ولكن الإمام الحاكم ظلَّ يلاحقه حتى قبض عليه وأعدمه.

٦ ـ **صالح بن علي الروزباري**: عراقي الأصل، التحق بخدمة الفاطميين، وتقلَّد ديوان الشام، ثم تولَّى بعد ذلك الوساطة بعد عزل الحسين بن جوهر. لقبه الإمام الحاكم بأمر الله بثقة ثقات السيف والقلم.

٧ ـ **منصور بن عبدون**: نصراني تولَّى ديوان الشام. اتهم

بالاختلاس. تولّى الوزارة، بعد عزل صالح بن علي، ثم عزل أخيراً بتدبير من الحسين بن جوهر.

٨ - **أحمد بن محمد القصوري**: أحد كتاب الدولة البارزين، والأغلب أنه عراقي، ظلَّ في الوزارة عشرة أيام.

٩ - **زرعة بن عيسى بن نسطورس**: هو ابن الوزير عيسى بن نسطورس، وهو من النصارى القلائل الذين ظلوا في منصبهم بعد وفاة الإمام الحاكم بأمر الله.

١٠ - **الحسن بن طاهر الوزّان**: كان متولياً بيت المال، لقّب بأمين الأمناء، وتسلّم مسؤولية الوزارة، وكان حريصاً على أموال الدولة.

١١ - **الحسن وعبد الرحمن أبناء أبي السيِّد**: أقامهما الإمام الحاكم بأمر الله في الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة، وحرصا عليها، ولكنهما لم يبقيا في عملهما سوى إثنين وستين يوماً.

١٢ - **علي بن جعفر بن فلاح**: من أجلّ الوزراء الكتاميين المغاربة، ومن أشهر قواد الدولة الفاطمية ، هو وأخوه سليمان، وهما نجلا القائد جعفر بن فلاح الكتامي المغربي الذي فتح الشام في عهد الإمام المعز لدين الله، وكان ابن عمار قد أرسلهما إلى الشام لحرب منجوتكين عندما أزمع هذا القائد مهاجمة مصر بتحريض من برجوان. وقد ظلَّا يديران شؤون بلاد الشام حتى قوي ساعد برجوان، فحرَّض عليهما الجند. ولقدِ استعان الإمام الحاكم بأمر الله بعلي بن جعفر في إقرار النظام في الشام بعد فتنة آل الجراح.

ثم قلَّده فيما بعد الوساطة، وأُضيفت إليه ولاية الإسكندرية، وتنيس، ودمياط، والشرطتان العليا، والسفلى، والحسبة... قتل علي اغتيالاً... أما سليمان فقد ذكر أنه انتهى نهاية غامضة.

١٣ - **صاعد بن عيسى بن نسطورس**: ثالث شخص من آل نسطورس.. تولّى الوساطة

١٤ - **المسعود بن طاهر الوزّان**: حلَّ محلّ شقيقه في ولاية بيت المال فترة قصيرة، وبعده حلَّ محله عمار بن محمد.

١٥ - **عمار بن محمد**: اختاره الإمام الحاكم بأمر الله، وذلك سنة

٤١١ هـ أخذ البيعة للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله. كما دبَّر شؤون الخلافة بتفويض من الأميرة «ست الملك» بعد وفاة الإمام الحاكم بأمر الله.

الحاكم بأمر الله والمجتمع

اتفق المؤرخون جميعهم، على أن الإمام الحاكم بأمر الله كان مولعاً بالتجوال وحيداً، ومغرماً بالسير منفرداً في شوارع عاصمة دولته القاهرة «المعزية» وعبر أزقتها، وأسواقها، وساحاتها في الليل، وأحياناً في النهار، وغرضه من ذلك دراسة أحوال الشعب، وطريقة معيشته، وحياته، والوقوف على غذائه، وكسائه، وما يفكر فيه، فمثل هذا التجوال، والتفقد يزيحان النقاب عن وضع شعبه، وما تشكو منه الطبقات، وخاصة الفقيرة المحرومة.

وإننا عندما نراه يصدر أوامره بتعليق المصابيح على أبواب الحوانيت، والدور، والأمكنة العامة الأخرى في عاصمة دولته، فلكي تبدو المدينة في الليل، وكأنها شعلة مضيئة مما يسهل عليه الاستطلاع والمراقبة، والاطلاع على كل ما يجري على ساحة بلده.

يروى أن الإمام الحاكم بأمر الله خرج مرة متخفياً تحت جنح الظلام، فطاف بين المنازل، وشاهد حلقات الرقص، وما يمارس فيها من خلاعة وفجور.. وزار الحمامات العامة فرأى الرجال، والنساء معاً، وفي الشوارع كانت الجرائم الأخلاقية ترتكب على قارعة الطريق، وفي الزوايا دون وازع.. أما السكارى فكانوا يترنّحون في الشوارع، وبعضهم يسقط إعياءً في الوحول، وعلى الأرصفة.

أجل.. كان الشعب المصري في ذلك العصر، أي عصر الإمام الحاكم بأمر الله، يعيش حياة الرغد، والرفاهية، والبساطة في العيش. فالدولة الفاطمية سهرت على راحته، وأمنت له الرخاء، والعمل، وضمان الازدهار، والحياة الأفضل، وشاركت الطبيعة في العطاء، بأن منحت الأرياف، والأراضي كل ما تتطلبه من المياه، فأعطت المواسم الجيدة، وتوفرت الخيرات، وأصبحت الحياة العامة تسير على غاية ما يرام، لهذا اتخذ الناس من المصابيح في اللّيل فرصة للخروج إلى مواطن اللهو ، والسحر، والقصف، والغناء، وقضاء السّهرات الصاخبة في المنازل.

وهكذا سطعت ميادين القاهرة المعزية بالوقود، والزينات، وغصّت بصنوف اللهو، والمرح، وأنفقت في هذا السبيل الأموال الوفيرة في المآكل. والمشارب، والسماع، ومعاقرة الخمرة، وظهرت النساء في المجتمعات بكثرة، وتدفق تيار المجون، والغواية، والفجور صاخباً عاتياً فجرف أكثر الناس، وأصبحت القاهرة «المعزية» بأنوارها الساطعة، ومناظرها الخلاّبة، وملاهيها العابثة.

هذا ويجب أن لا ننسى قدوم الأفواج التي لا تعد من الغرباء، سواء من المشرق أو من المغرب إلى القاهرة للعيش فيها، ومشاركة أهلها حياتهم، وأرزاقهم، ومن الجلي الواضح أنهم وجدوا الحرية المطلقة أمامهم تمنح لكل الناس. فعاثوا فساداً، ومارسوا أعمال السرقة، والنهب، وارتكاب الجرائم، وعلّموا المصريين الكثير، الكثير من دروس الفساد، والمجون، وتدني الأخلاق.

المصلح الاجتماعي

وفي هذه الصفحات من الموسوعة سأتخطى حدود التاريخ... وليسمح لي القارىء أن أخرج عن النطاق المألوف ، وأرمي جانباً الصفحات التي كتبت عن الإمام الحاكم بأمر الله، لأن هذه الصفحات جاءت كما نرى خالية من أية دراسة موضوعية، أو تحليل مفيد عن هذا المصلح الاجتماعي الذي ضرب الرقم القياسي بخدماته لامتة، وإصلاحاته للمجتمع الذي عاش فيه... تلك الإصلاحات التي سبقت عصره، وفاقت كل ما كان قبلها، وبعدها ولكن كان حاله حال كل مصلح اجتماعي يأتي إلى أمة غير أمته في عصر غير عصره.

لقد كان الإمام الحاكم بأمر الله عالماً، وطبيباً، وفيلسوفاً، وكان رجل دولة، وسياسياً ماهراً، ومخططاً بارعاً لا يعادله أحد في عصره، ولكن ومع كل أسف لم يقدره المجتمع الغارق في الجهل حقّ قدره، ولم يفهمه الشعب الذي أولاه محبته، وعطفه ، وهكذا التبس عليه، وضاع في متاهات الظلام. وكلّ ما فعله أقطاب ذلك المجتمع أنهم راحوا يستنبطون الأفكار، والخيالات، ويخترعون الروايات، والأساطير، عن هذا العبقري الخارق الذي كانت حياته أطرف ما قرأناه، وسمعناه، كما أن في وفاته كل ما يثير النفوس، ويوقظ الشعور، ويجعل الإنسان في موقف الحيرة، والاستغراب لا

يعرف كيف يقوّم الحوادث، والأحداث، ولا كيف يهتدي إلى الحقيقة المحتجبة وراء سجف الغيب.

لقد أجمعت المصادر التاريخية على القول: بأن الإمام الحاكم بأمر الله منع أكل «الملوخية، والجرجير، والترمس، والمتوكلية. وأكدت هذه المصادر أن سبب هذا المنع قضايا دينية، ورواسب عالية قديمة كان الإمام الحاكم بأمر الله حريصاً على الأخذ بها، وتطبيقها، وتتلخص بأن السيدة عائشة زوجة الرسول الكريم «محمد» (ص)، كانت تحب الجرجير، وأن معاوية بن أبي سفيان الأموي كان يحب الملوخية... إلخ. وما أشبه ذلك من الأقوال التافهة والرخيصة التي لا نعتقد أن الإمام الحاكم بأمر الله ينحدر إلى حدّ التفكير بها، أو مجرّد التحدث عنها، أو جعلها أداة للانتقام بعد مضي مئات الأعوام. وإني لا أدري ما هي الأسباب التي حملت المؤرخين على اللجوء إلى ترديد مثل هذه الأقوال السخيفة في كتبهم، كما إني حتى الآن لم أعثر على مصدر يذكر أن السيدة عائشة كانت تحب الجرجير، أو أن معاوية كان يفضل الملوخية.

والواقع أن الإمام الحاكم بأمر الله كان طبيباً أو عالماً بعلم النبات، ولذلك فقد أدرك بخبرته أن الإكثار من كل هذه النباتات يزيد في كميات دم الإنسان ويقوي فيه الغريزة الجنسية. ويغيّر الواقع النفسي، ويضفي قابلية النزوع نحو الشر.

وكان الشعب المصري، يفضل هذه النباتات على كل غذاء، خاصة عندما يتناولها خضراء، ولذلك فإنه يمكن القول إن تدبير الإمام الحاكم كان منطلقاً من حرصه على مصلحة شعبه فقط.

وكان الإمام الحاكم بأمر الله قد منع أكل «الدلنيس» وهو نوع من الصدف الصغير الموجود بكثرة على شواطىء الأنهار، وكان الناس يأكلون ما بداخله نيئاً ومملحاً... وقد ثبت أنه يورث الدودة الوحيدة في الأمعاء، وهذا المرض شاع وكثر في الديار المصرية في ذلك العهد... إذن فالحاكم بأمر الله لم يكن مجنوناً، أو جاهلاً، عندما حرَّم أكله، والاتجار به.

ومنع الإمام الحاكم بأمر الله ذبح الأبقار السليمة إلَّا في أيام عيد الأضحى... لماذا؟ أليس من حق هذا الخليفة الساهر على مصالح

رعيته أن يحافظ على هذا الحيوان الأليف الذي يؤدي أجل الخدمات للمزارعين في مجال حراثة الأرض... هذا فضلاً عن إمدادهم بالطاقة الكبرى من الحليب والسمن، والألبان.

ومنع صيد السمك الذي لا قشر له، وكذلك حرّم بيعه. والمعروف أن هذا النوع كان في طريقه إلى الانقراض في ذلك العصر، علماً بأنه من الأنواع المرغوبة النادرة.

أما القوانين الإصلاحية الأخرى التي أصدرها الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله بشأن النساء، واستئصال البغاء، وإشاعة الآداب العامة في المجتمع، فقد كان يقصد منها إزالة الطابع السيء عن أكبر عاصمة للعالم الإسلامي، وإظهارها للغرباء، وللسواح بأنها تمثل المدينة الفاضلة، وقاعدة الآداب الإسلامية، وكل هذا امتاز بالحكمة ، والعقل والمحافظة على القيم والتراث.

ومن القوانين التي صدرت في هذا الصدد: أنه منع على كل إنسان دخول الحمامات العامة بلا مئزر وحرَّم أيضاً على النساء كشف الوجه في الطرقات العامة، أو خلف الجنائز، والتبرج، والتزيّن عند خروجهن، كما منعهن البكاء والعويل وراء الموتى، وزيارة القبور، ومنعهن من دخول الحمامات العامة منعاً مطلقاً، أو الخروج من منازلهن في الليالي مهما كانت الأسباب.. فهل صدرت هذه القوانين عن رجل في عقله مس من الجنون؟ وهل يستحق الإمام الحاكم بأمر الله أن ينال بسبب هذه الأوامر، اللوم، والانتقاد، والاتهام بالزندقة أو الجنون.

ومنع الإمام الحاكم بأمر الله مزاولة البيع والشراء في الليل، وذلك خوفاً من التلاعب بأصناف المواد، والأوزان، ومنع على التجار إقفال حوانيتهم، وأبواب الخزانات، والدروج. وذلك لكي يقول للسارقين، وللّصوص أن قانون الإعدام ينتظر كل من يقبض عليه، وهو يقوم بالسرقة، وشدَّد على إزالة بيوت الخمَّارين. وهذه القوانين بمجموعها يراها البعض غريبة، ولكن قلة من الناس أدركوا أبعادها، ومنفعتها، واعتبروها صادرة عن ضمير حي، ووجدانٍ طاهر.

وأصدر الإمام الحاكم بأمر الله أوامره بقتل الكلاب الشاردة أينما وجدت، إلّا كلاب الصيد، فطُوردت، وأعدمت حتى خلت منها الطرق،

والساحات. كما أمر بقتل الخنازير التي في مصر، وخاصة في الأمكنة التي توجد فيها النصارى، وأمر بمنع صيد الطيور بالشرك، والحفر، والتحيل، وخاصة «الصيد الجماعي» هذا من ألف عام ونيف ... فهل يذكر هؤلاء الذين اتهموا الإمام الحاكم بأمر الله بالجنون، أن الدول المتحضرة بعد ألف عام سارت على خطته، وتبنت نظريته، وأصبحت مدينة له بهذه الأفكار؟

وعندما تعرضت مصر في أواخر عهده إلى الجفاف، والنقص في مياه النيل، وعندما وقع الغلاء، والاحتكار بادر الإمام الحاكم بأمر الله إلى إصدار الأوامر الجريئة القاسية التي تحرم خزن أية مادة غذائية، أو تموينية تزيد عن الحاجة، وحدّد أسعار القمح خاصة، وبعدها المواد التي يحتاج إليها الشعب.

وعاقب المخالفين بالإعدام في حالة إقدام أيّ منهم على الاستغلال أو التلاعب بالأسعار أو الاتجار بقوت المواطنين... وأية جريمة ارتكبها في تحريمه لعب الشطرنج الذي كان شائعاً بكثرة، واعتباره من الملاهي التي تعوق المواطن عن العمل النافع لأمته وبلاده، وهكذا بالنسبة لصناعة التنجيم التي يتفرع منها التدجيل. كما شدد على الجزارين، وألزمهم بلبس البياض والالتزام بالنظافة، وتغطية اللحوم بقماش أبيض شفّاف كي لا يغط عليه الذباب، أو يلحق به الغبار. فهل نلام بعد كل هذا إذا ما اعتبرنا الإمام الحاكم بأمر الله مصلحاً اجتماعياً، قلما شهد العالم الإسلامي من يماثله عقلاً، وفكراً، وتقدمية؟

لقد كان الإمام الحاكم بأمر الله، دنيا من الأساطير، والعبقرية، والإبداع، والذهن الحاضر، الهائم، المضطرم الذي يظهر في بعض الحالات حاملاً المزيد من التطرف، والجرأة المقرونة بالحكمة، والسمو، والتقدير، والتأمل. وعلى العموم... فإن هذه الشخصية استطاعت أن تفيض، وتعطي من أفكارها كل خير وفضيلة وجمال، وأن تقبض على المجتمع بكلتيْ يديها، وأن تطبعه بطابعها العجيب.

إن الإمام الحاكم بأمر الله عندما فكّر، وخطّط وقصد إصلاح ذلك المجتمع، بل عندما أدخل عليه التعاليم غير المألوفة، والأفكار السابقة لعصرها. في ذلك الزمن البعيد، أدرك أنه سيتعرّض للانتقاد،

وسيصل الأمر إلى حد اتهامه بالجنون، ولكنه لم يبالِ، لأنه كان على علم بأن المجتمع المريض، أي مجتمع ـ لابد له أن يصحو ذات يوم على الحقائق، ويبادر إلى تقدير خدماته، وأعماله.

في الواقع... لم يكن ينقص الإمام الحاكم بأمر الله شيء من أمور الحياة... كان امبراطوراً لا تغيب عن ممتلكاته الشمس، وكان معروفاً بأنه ينحدر من أعرق بيوتات العرب حسباً ونسباً، وإلى جانب ذلك كان يملك الشباب الناضر، والعلم، والقوة، والرجولة، وكانت الحياة تبسم له، وتدعوه إلى الأخذ بأسبابها، وأفراحها، ومسراتها... ولكنه بادر إلى طلاقها، وآثر الحياة البسيطة، وسهر الليالي، وارتدى الخشن من الثياب، وطاف على حماره الأبيض وحيداً دون حراسة، أو موكب أو أبّهة. يتفقد الرعية، ويتأكد من تطبيق القوانين، ويحسن على الفقراء، والمحرومين.. وإلى جانب كل هذا كان يختلط، بشعبه، ويسمع شكاواته، وينصف المظلومين، ويعطي كل ذي حق حقه، ويصدر الأوامر بشأن الترفيه عنه وإسعاده... فأين هو الجنون... وأين الظلم والتعسف من كل هذا؟

لقد كان عصر الحاكم بأمر الله من أغرب عصور التاريخ... كان عصراً ضاعت في طياته الحقائق، وطمست الوقائع... عصراً قام على الفساد في الحكم ومبدأ الاغتيالات، والنهب، والسرقات، والعسف، والفجور، والتعدي على الآمنين.. فماذا كان على الحاكم أن يفعل حيال هذه المفاسد، والرذائل، وهو خليفة المسلمين؟

لقد كانت الاغتيالات ترتكب في الظلام، فيضيع فاعلها، ومدبرها... وفي نهاية المطاف يأتي أعداء الإمام الحاكم بأمر الله، فيوهموا الناس بأنه وراء جرائم القتل التي كانت تقع كل يوم، وكانت مقاصدهم، وغاياتهم إظهاره للناس بأنه سفاح، وطاغية ومفطور على سفك الدماء، وقتل الأبرياء، ومن المؤسف أن الناس صدقوا ذلك، ولكن لا أدري كيف نصدق نحن ذلك، وقد عرفنا الحاكم، وآباءه، وأجداده، وسيرتهم مع الرعية، وحكمهم العادل... وهل يكون طاغية من أقام دار الحكمة ـ أول أكاديمية للعلوم في العالم الإسلامي ـ وكيف نصدق أخبار الظلم عن عالم كان يقضي أوقاته في مجالسة الفلاسفة، ورجال العلم، والشعراء، وعن مسلم جعل دأبه إقامة المساجد، والإحسان إلى الفقراء والمحرومين، وإنصاف المظلومين، والزهد في

المال والدنيا، والكره لمظاهر الأبّهة، والعظمة، والانقطاع للصلاة، والعبادة، والاكتفاء، بالقليل من الطعام؟

إن كل هذا جدير بالدراسة، والتأمل، وحبذا لو أن المؤرخين والباحثين حلّلوا هذه الأمور، ودرسوها في ضوء العقل، والمنطق، والضمير... قبل أن يدونوا الصفحات الطويلة العريضة عن الرجل العظيم، ويحشوها بالترهات، والأكاذيب.

نحن لا ننكر بأن الإمام الحاكم بأمر الله أمر بقتل بعض الوزراء، والقوّاد، والعمّال الكبار ممن ثبت عليهم جرم التلاعب. وسرقة أموال الدولة، والإثراء غير المشروع، وسلب أموال الناس وممتلكاتهم، أو ممن اشتركوا بثورات، ومؤآمرات ضد الدولة.

لقد ذكرت المصادر: أن الإمام الحاكم بأمر الله مارس الضغط على الذمّيين ـ اليهود والنصاري ـ وفرض عليهم قيوداً صارمة، وخرّب كنائسهم، ودمّر أديرتهم دونما سبب... فلماذا يفعل الإمام الحاكم بأمر الله كل هذا مع رعاياه النصارى واليهود... وما هو المقصود من هذه التدابير الصارمة؟ في حين نراه يستخدم بعضهم في مناصب عالية؟

... أمّا تدمير كنائسهم، وأديرتهم فلا أعتقد أنه أقدم عليها. وقد مرَّ معنا أنه أباح الحريّات الدينية في دولته، وأعطى هذه الحريات لأصحاب المذاهب، والأديان كافة لممارسة طقوسهم وعباداتهم دون استثناء، وخاصة النصارى الذين يعتبرون أخواله، ومن أقرب الناس إليه.

لقد كان أعداء الخلافة الفاطمية في عهد الإمام الحاكم بأمر الله يقترفون الجرائم ضد النصارى واليهود فيعتدون عليهم، وعلى مقدساتهم، وغايتهم من ذلك زعزعة أركان الدولة، وإظهار الحاكم بأمر الله بمظهر الطاغية بالنسبة للعالم المسيحي، أو العاجز من حماية الأقليات الدينية التي تعيش في دولته وحتى الآن لم نتوصل إلى غرض الحاكم بأمر الله من تدمير الكنائس والأديرة وما الذي دعاه إلى ذلك. والمواطنون النصارى واليهود لم يخرجوا على النظام، أو يعبثوا بالأمن؟ أمّا وضع الإشارات المميزة على صدورهم... فربما كان الغرض منها تمييزهم عن غيرهم من بقية الطوائف، ومعرفة

العناصر التي كانت ترتكب الجرائم، وتلصقها فيهم ظلماً، وعدواناً. فحامل الإشارة في هذه الحالة يكون منظوراً من قبل رجال الأمن، ومعروفاً لديهم.. فلا يمكن لأحد بعد هذا ان يلصق به التهمة.

هذا من جهة... ومن جهة أخرى. ففي عهد الحاكم بأمر الله... انقسم النصارى الأقباط في مصر إلى فرقتين: «الملكانية» وكانت على مذهب بيزنطية، و «اليعقوبية» أو «النسطورية».. وهما صاحبتا كنيسة مستقلة عن بيزنطية ولا سيما «اليعقوبية أو الارثوذكسية» وهي ملّة غالبيتها تشكلها الجماعة المصرية.

وفي عهد الإمام الحاكم بأمر الله ازداد نفوذ الملكانية.. لأن والدة الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله تتحدر من هذه الطائفة، وهكذا الأميرة «ست الملك» وهي ابنتها من الخليفة الإمام العزيز بالله. وقد مرَّ معنا أنه في عهد الإمام الحاكم بأمر الله تمَّ تعيين «أريطس» بطريركاً على بيت المقدس، و «أرسانيوس» شقيقه بطريركاً على القاهرة أو البلاد المصرية، ومن الجلي الواضح أنه في تلك الفترة، مارست الطائفة الملكانية ضغطها، وحملاتها على الطائفة الثانية.

من هنا يصبح بالامكان القول: إن المصادمات الطائفية، والصراعات الداخلية الدامية بين الفريقين. كانت تحتدم، ويستعر أوارها من حين لآخر، حتى تصل أحياناً في عنفها، وضراوتها إلى حد الهجمات على الكنائس، والأديرة، وإشعال النيران فيها، ونهب محتوياتها، وكانت الملكانية هي المتغلبة في أكثر الأحيان، لأن عدداً غير قليل من أفرادها كان يستخدم في الجيش، والشرطة، ووظائف الدولة العليا. وإزاء هذه الأحداث لم يسلم الإمام الحاكم بأمر الله من ألسنة الفريق الثاني الذين اتهموه بالتحيز لأخواله، وإمدادهم، والانتصار لهم في أعمالهم التدميرية العنيفة.

لقد قرأنا في كتب التاريخ العربي، والإسلامي صفحات طافحة بالمديح والإطراء للخليفة الإمام الحاكم بأمر الله.. وقرأنا في كتب غيرها عبارات الذم، والنقد، والتجريح، وهذه المتناقضات تجعلنا مضطرين إلى عدم تصديق كل ما قد ذكر عن هذا الخليفة العظيم، فكيف يكون ظالماً من نصب نفسه، وكرسها لإنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم.. وكيف ننسب الجنون إلى إنسان متفوق بعلمه، وعبقريته، وعباداته، وإصلاحاته للمجتمع؟

لم يمر في التاريخ... ولم نسمع أن أسرة من الأسر تعرضت في حياتها إلى ظلم المجتمع وتحامل الناس، مثل هذه الأسرة الفاطمية، وفي يقيني أن سبب ذلك هو تفوقها على الآخرين في مجالات الحياة كافة، ووقوفها في الطليعة في كل سبيل يهدف إلى الرقي والحضارة والتقدم.

أجل... لقد اتهموا الإمام الحاكم بأمر الله بكل شيء... اتهموه بالجنون... بالظلم... بالطغيان، وذهبوا إلى حد القول بأنه ادّعى الألوهية.. كما قالوا... إنه اغرم بشقيقته «ست الملك» فهل بقي شيء في جعبة هؤلاء المتزمتين المجردين من الشرف والأخلاق والضمير لم يصبُّوه، ويفرغوه من جعبة ترهاتهم وكفرهم على هذا المعلم المصلح الكبير.

إننا نقف بوجوم لنقول لهؤلاء: سامحكم الله... فالحقيقة لا بدّ لها من الظهور، مهما أسدل عليها من ظلام، وإن للباطل جولة ثم يضمحل. فالحاكم بأمر الله لم تبدر منه أية بادرة أثناء حكمه تنم عن ترغيب أو تشويق لإخراج أحد عن دينه. وله قول مأثور في هذا الصدد:

> «إن كل الناس في دولتنا... أحرار في اختيار مذهبهم، وإظهار ما في ضميرهم، وممارسة طقوسهم.. ولا إكراه في الدين».

وقد قرأنا في أكثر من كتاب تاريخ... أنه سمح لأتباع مذهب مالك بأن يدرسوا أصول مذهبهم في دار الحكمة، وقد اعتبر ذلك من مآثر الحاكم، ومن بعد نظره.

وهذا البيان يؤيد ما ذهبنا اليه من أن الحاكم بأمر الله لم يكن متعصباً لدين من الأديان، بل كان متسامحاً مع الفرق الدينية الإسلامية، وغير الإسلامية الأخرى، وممًا يجب أن نشير اليه: أنه عيَّن في رئاسة القضاء بمصر قاضياً سنياً هو: «ابن أبي العوام» وعندما قال بعض خاصته:

إنه ليس على مذهبك، ولا على مذهب من سلف من آبائك.. أجاب:

يكفي أنه ثقة ومأمون، ومصري، وعارف في القضاء، وفي أهل البلد، وليس في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره.

وذكر بأن الإمام الحاكم بأمر الله أصدر تحريماً بمنع سب أعداء المذهب في أي مكان جرياً على سنة آبائه الحميدة، كما حرَّم اللعن

لدرجة القتل، وللإمام الحاكم بأمر الله مرسوم في هذا المعنى نورد بعض ما جاء فيه. قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله، ووليه «أبي علي» الحاكم بامر الله... امير المؤمنين.

الى كلّ حاضر وباد:

أمّا بعد، فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين: «لا إكراه في الدين»(*). مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه. معاشر المسلمين: نحن الأئمّة، وأنتم الأمّة. من شهد الشهادتين، ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرم عليها ما حرّم، من كل محرم من دم ومال ومنكح. الصلاح والاصلاح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد من العباد يستقبح. يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عمّا انقضى فلا يذكر...»

الى أن يقول:

«يؤذن بحيّ على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون. لا يُسَبُّ أحدٌ من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف والخالف فيهم بما خلف، لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، والى الله ربّه ميعاده ... ﴿أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم، الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾(**).

معشر المؤمنين: نحن الائمة، وأنتم الأمة. عليكم أنفسكم لا يغركم من ضلّ إذا اهتديتم، الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون.

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على رسوله سيدنا محمد (ص) وآله الاكرمين».

ومن مآثر الحاكم بأمر الله، وتدابيره، وإصلاحاته... أنه شدَّد على مراقبة التجار وأصحاب الحرف والصناعات مراقبة دقيقة لمنع الغش، والتلاعب بالأسعار، وكان يعاقب المخالف عقاباً صارماً. ومن قوانينه أنه ألغى جميع الألقاب في الدولة بدءاً بنفسه.

ومهما يكن من أمر.. فقد عرفنا أن الفاطميين عندما جاؤوا إلى مصر، اطلقوا للشعب الحرية المطلقة بتناول حياتهم كما يريدون. فكانوا يشربون الخمرة بكثرة، وفي ذلك الوقت اشتهرت مصر بصنع «البيرة»

(*) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية ٢٥٦.

(**) القرآن الكريم، «سورة المائدة»، الآية ١٠٥.

المسمّاة «الفقّاع» والنبيذ المسمَّى «المرز»، وعندما أصدر الحاكم أوامره بإضاءة، الشوارع، والأسواق، والحوانيت في مصر وفي العاصمة القاهرة، لبلا اتخذ الناس ذلك سبباً لمبالغة الفرح والسرور، فخرجت النساء في الشوارع والطرقات، وكان الناس يشربون الخمرة في الشوارع، والحوانيت، وامتلأت بيوت الفساد، والفجور، والبغاء، وساد مصر نوع من الإباحية العلنية.

فماذا على الإمام الحاكم بأمر الله، وهو خليفة المسلمين أن يفعل؟ وهو يرى هذه العواصف المدمرة تجتاح رعاياه فتصيبهم في أخلاقهم، وشرفهم... ألا يجب عليه أن يضع حداً لهذا المجون المتفشي في كل مكان من أنحاء دولته؟ أليس هو المسؤول عن صيانة الأخلاق والآداب؟

من الواضح أيضاً أنه عندما منع شرب الخمرة ووجد أن قراره لم يأتي بفائدة، حرَّم كل ما يدخل في صناعتها، فقطعت كروم العنب وديس العنب في الطرقات، وكسرت جرَّات العسل ودنانها، ومنع بيع الزبيب.. ومع كل هذا فإن بعض المؤرخين الذين دأبوا على التهجم، والطعن بالحاكم بأمر الله.. ادعوا أنه لم يحرّم الخمرة تنفيذاً لأوامر الله، وإنما حرمها على الناس، وأباحها لنفسه...فيا للتجني الظاهر... وياللتحايل البغيض.. وهكذا قُلْ عن الحمَّامات العامة. فقد تأكد أنها تحولت في عهد الإمام الحاكم بأمر الله إلى مواخير، وكانت مختلطة من الرجال، والنساء، وبدون مئزر، فمنعها منعاً باتاً تحت طائلة العقوبات الصارمة.

وممَّا يجب أن يذكر... أن الحكام الذين جاؤوا بعده، وضعوا قيوداً صارمة على دخول الحمَّامات. ونظموها، وجعلوا بعضها للرجال، وبعضها للنساء. فكانوا بقوانينهم مقلدين.. للإمام الحاكم بأمر الله.

ومن بين التهم التي قُذِفَ بها الإمام الحاكم بأمر الله، تهمة حرق القاهرة المعزية. مرحى، مرحى لقد بات للمسلمين «نيروناً» يباهون به أهل رومة. «فويل لهم مما كتبت أيديهم».

الحاكم الزاهد العادل المنقطع لأمور دينه وعقله، يحرق القاهرة لماذا؟ وكيف يحرق مدينة بناها جدّه المعزّ لدين الله؟ وإذا كان سيحرقها لماذا صبّ جهده وبذل وسعه في بناء دورها وقصورها ومعاهدها

العلمية؟ ثم هل هانت عليه تربة ضمّت رفات آبائه وأجداده الى هذا الحدّ؟ لقد أعمانا التعصّب عن رؤية نور الحقّ وأصمّنا التحيّز عن سماع اسئلة العقل البسيطة، حتى بات الرجل من مؤرخي الكراهية والمقت يأتي بالشيء وضدّه، كقولهم إن الحاكم بأمر الله قد أمر بهدم كنائس النصارى وبيعها، ثم يوردون العهد الذي أعطاه لهم وهو التالي نثبته كما نقلناه من كتب القوم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

هذا كتاب من عبد الله، ووليه المنصور ابي علي الحاكم بامر الله امير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله امير المؤمنين، لجماعة النصارى بمصر.

عندما انهوا إليه الخوف الذي لحقهم، والجزع الذي هالهم. فأقلقهم واستزرأهم بظل الدولة. وتحرّمهم بحضور الحضرة بما رآه، وأمر به من تكميل النعمة عليهم، بتوخيّه لهم ذمة الإسلام وشرعه من تصيّرهم تحت كنفه، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة، وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة، وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلّد حكمه على الأحقاب، ويتوارثه الأخلاف منهم، والاعقاب:

فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، وأمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم.

هذا على نفوسكم، ودمائكم، وأولادكم، وأموالكم، وأحوالكم، واملاككم، وما تحويه أيديكم، أماناً صريحاً ثابتاً، وعقداً صحيحاً باقياً. فثقوا به، واسكنوا اليه، وتحققوا أن لكم جميل رأي أمير المؤمنين، وعاطفته، ونصرته تحميكم، وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد ولا تتطاول إليكم بمضرة يد إلّا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه، وعظم انكساره مضيّقاً فيه من ذراعه.

والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثراء في كنف دولته، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم، وعهده الذي يشرفه طرفكم.. وكفى بالله شهيداً... وليقرر في أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم إن شاء الله تعالى.

كتب في شهر شعبان سنة ٤١١ هـ.

واتهموه أيضاً بالالحاد، وتعطيل الشريعة، وادعاء الألوهية.

وهو الذي كان يبني المساجد. ويصلي بالناس ويعتكف في الأمكنة الخالية للعبادة، والتأمل، والانقطاع، ولهؤلاء نوجه بعض ما أورده الفيلسوف الكرماني المعروف «بحجة العراقين» في رسالته «الواعظة» التي أملاه بها الحاكم بأمر الله والتي وجهها الى الحسن الفرغاني المعروف «بالاخرم».

«وأمّا قول أصحابك.. إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه. فقول كفر «.. تكاد السموات يَتَفَطّـرنَ منه. وتنشَقُّ الأرضُ. وتَخِـرُّ الجبالُ هداً..» أن دعوا للإِلَه المعبود غيراً».

فيا لجسارة على الله تعالى حين جعلوا له تعالى شريكاً ، ما أعظمهـا، ويا لجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى.
ما أفظعها... ولقد قالوا قولاً عظيماً، وافتروا إثماً مبيناً، وإن ذلك إلاّ كفر محض.. فما أمير المؤمنين عليه السلام، إلاّ عبد لله خاضع، وله طائع يسجد لوجهه الكريم، ويعظمه غاية التعظيم، وباسمه يستفتح، وعليه في أموره يتوكل، وأمره إليه يفوض، والله تعالى فقد فضلّه على خِلقه، وجعله من جهة الرسول محمد (ص) خليفة له في أرضه، ووسيلة لعباده إلى جنته، وأوجب طاعته على عباده، وهو سلام الله عليه، يتبرأ إلى الله تعالى ممن يعتقد ذلك فيه.

وكيف يكون معبوداً، وهو جسم ذو أبعاض مؤلفة، ونفس ذات قوى مكلفة، يأكل ويمشي، وينام، ويستيقظ، وتنطوي عليه الأحوال المتضادة من رضى وسخط، وغم ومسرة، وسقم وصحة كغيره من البشر.

وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه... كلاّ إن المعبود ليس إلاّ الإِلَه الذي يسجد له أمير المؤمنين سلام الله عليه، ويوحده، ويسبحه عن النعوت والصفات يقدسه، وله يسجد النبيون، والأوصياء، والأئمة المتقون، وتابعوهم، وإياه يعبد، وله يسجد من يخرج إلى الكون منهم ما دام عقل، وفاض عدل الذي خلق السموات بأفلاكها، والنجوم بأنوارها، والأركان بطبائعها، والمواليد على أجناسها.

﴿لا تَسْجدُوا لِلْشَمْسِ ولاَ لِلقَمَر، واسجدُوا لِلّهِ الذيّ خَلَقَهُنَّ إن كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبدونَ﴾(*). وإلى هؤلاء أيضاً نوجه ما ذكره الخليفة الفاطمي الإمام المعز لدين الله.. قال:

«ينتهي إلينا أخبار عن بعض من يزعم أنه يتولانا، وبعض من يدعي أنه

(*) القرآن الكريم، «سورة فُصلت»، الآية ٣٧.

يدعو إلينا من الغلو فينا... والقول بما لم نقله في أنفسنا، وبما لم يسمعه أحد منّا، حتى كأنهم أعلم منّا بما يقولونه فينا، ونحن نبرأ إلى الله من كذبهم علينا، وتقولهم فينا، ونحن عبيد من عباد الله، مخلوقون، مربوبون، لاعلم لنا إلّا ما علمنا، وصار إلينا عن نبيه جدنا محمد (ص) ممّا أودعه الله إياه، وأورثناه ممن بعده، وأودعنا، لا نحيط من علمه إلّا بما شاء، ولا من غيبه إلّا ما اطلع عليه منّا من ارتضاه، وكيف أحب وشاء.

لا ندعي النبوة والرسالة، بل نحن المستحفظون على الإمامة. حلالنا من كتاب الله، وحرامنا منه، وطاعتنا مفروضة على عباد الله بحكمه.. من عرفنا فقد عرف الله، ومن جهلنا فقد جهله.

نحن الدالون بحكمته عليه، والقائمون بأمره على عباده نحن دون ما يقول الغالون، وفوق ما يظن الجاهلون. إنّما أراد من نحلنا علم الغيب، ونسب إلينا تنزل الوحي، ممن يدعو بزعمه إلينا أن يجعل ذلك مقدمة لنفاقه علينا. فإذا أراد ذلك قال لمن كان دعاه:

لم ادعكم إلّا لمن وصفت لكم فيه ما وصفت، فيصدهم بذلك عنّا... لعن الله الصادّين عنّا.. فإنهم عن الله يصدون، وبدينه يتلاعبون، أرادوا الدنيا، وعسر عليهم طلبها من وجوهها، فالتمسوا بوجه الدين لينالوا من حطامها ما هو عن قليل منهم زائل، وهم به مطالبون وقد سعد من أخذ عنّا ما نعطيه، واقتصر عليه، ولم يقل بغيره، ولا تكلف من القول، ما لا يعلمه.

لقد انتهى إليّ عن بعضهم أنه قال:

وددت أنه لو سئلت عمّا لا يكون فأجبت عنه، فرأى عند نفسه، ومن سمع ذلك ممن يصدقه، أنه قد جاء بما أبان به من علمه، وافتخر بذلك له، فلو تدبر هذا القول من وفّق للصواب، لوضح له من خطئه أن ما لا يكون لا يكون عنه جواب لأنه لا يكون».

اضطراب الدعوة وتفشي الكفر والالحاد

تسرب الى القاهرة المعزية وإلى داخل مصر بعض المنتسبين، الغرباء على الدعوة الإسماعيلية الذين تدربوا خارج مصر، وفي أيديهم معاول الهدم والتدمير، فاعلنوا عن مذهب جديد يقول «بألوهية» الإمام الحاكم بأمر الله.واعتقد هؤلاء الغرباء أنهم. بهذا الإعلان يتقربون الى الإمام الحاكم بأمر الله فيرفع درجتهم ويعلي شأنهم ولحق بهم عدد من الناس طمعاً بالتقرب منهم والانتفاع من هذا المسلك. وقد أجمعت المصادر التاريخية الإسلامية عامة والفاطمية خاصة على القول بأن الإمام الحاكم بأمر الله استنكر هذا السلوك وأنّب

القائلين به ونهاهم وهددهم كما أمر بقتل البعض منهم وأحضر إليهم الدعاة من مصر ومن المشرق ومن كل مكان لكي يتولوا نصحهم وإرشادهم ولكنهم لم يرتدعوا وعاندوا في إصرارهم وجنونهم وظلوا على غيِّهم ينفثون سموم الكفر والإلحاد ويقولون بالإمام الحاكم بأمر الله أقوالاً لم يسبق لأحد من آبائه وأجداده أن سمع مثلها من قبل.

ولكن هذه الفرقة من الغلاة التأليهيين لم يقدّر لها الحياة والاستمرار لقد كان لها جولة ثم اضمحلت كما اضمحل غيرها من الفرق الخارجة عن النظام السماوي والقانون الإلّهي. وتشير المعلومات المتوفرة لدينا بأن هذه الفرق قد أُبيدت وقُضي عليها في عصر الإمام الحاكم بأمر الله وفي عهد ولده الظاهر لإعزاز دين الله.

أمَّا «الموحدون الدروز» فهي الفرقة التي انشقت عن الإسماعيلية الأم، وتوقفت عن الركب الإمامي عند الإمام الحاكم بأمر الله، فقالت بعودته، وإني لا أرى أي مأخذ يمكن أن يؤخذ عليها في اجتهاداتها هذه.. ألم تتوقف قبلها مجموعة من الشيعة عند الإمام الثاني عشر، ثم ألم تتوقف الإسماعيلية «المستعلية» فيما بعد عند ما يسمَّى الإمام «الطيب»... وهكذا الفرقة الإسماعيلية المؤمنية النزارية؟

لقد قرأت بعض كتب هذه الفرقة، وأطلعت على العديد من مخطوطاتها، وعرفت الكثير من رجالاتها، وشيوخها، وفيهم علماء، وأدباء، ورجال وطنيَّة لهم جولات، وخدمات عربية وإسلامية.

والحقيقة هي أنه ليس في الدروز واعتقاداتهم ما يصح أن نسميه خروجاً على المألوف، فهي، وفي كل أدوارها كانت تتبع التعاليم الفاطميَّة الصحيحة التي تحارب الانحراف، والغلو، والشرك، والتطرف، وقد ورد كل هذا في رسائل اخوان الصفاء، والرسالة الجامعة التي نبهَّت، ودعت الى التمسك بأهداب الإسلام، والقرآن، ولكن عن طريق العلم، والفعل، والمنطق، وقد أسيء فهم كل هذا، وكان خطأ النقَّاد عدم فهمهم للرموز، وللأسماء، وللحدود التي وردت في مخطوطاتهم.

ففي كتبهم تطالعنا أقوال دعاتهم التي تنص:

«على أن الله هو الواحد. الأحد، الفرد الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن

له كفؤاً أحد... فهو المنزه عن الأسماء والصفات... لا يتجانس ولا يحدّ، ولا يتشاكل، ولا تبصره الأبصار...»

ثم قالوا: إن الإمام الحاكم بأمر الله هو إمام، وحارس الشريعة، ومصدر القوانين، وإنه ممثل العقل الفعَّال في عالم الطبيعة. كما قالوا بالحدود العلوية كالأمر، والكلمة، والعقل، والنفس...الخ. وطبقوها على حدود العالمين الجرماني، والطبيعي، ورتبوا العقول العشرة، وآمنوا بالتأويل الذي هو تفسير المعاني الباطنية، وكل هذا لا يختلف عمَّا لدى الإسماعيلية إلَّا ببعض الاجتهادات، والنظريات، والفروع.

ومهما يكن من أمر... فكل هذا قد ورد في كتاب «أصل الموحدين الدروز» لمؤلفه «أمين طليع».. وهذا الكتاب قرَّظه مشائخ العقل، وأقروا ما جاء فيه، وباركوا عمل مؤلفه. ففي الصفحات ٦٤ و ٦٥ قال ما نصُّه الحرفي:

«كان بعضهم يخاطبونه بسيدنا ومولانا... فمنعهم من ذلك، على أن يكتفوا بلقب أمير المؤمنين، وأباح دم كل من خالف ذلك.. ومن أوامره:

أن لا يقبل أحد له الأرض، ولا يقبّل ركابه، ولا يده عند السلام عليه في المواكب، وأن لا يزاد على قولهم:

السلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته... ولا يقل الخطباء يوم الجمعة سوى:

اللهمَّ صلِّ على محمد المصطفى، وسلِّم على أمير المؤمنين علي المرتضى... اللهمَّ سلِّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين... اللهم واجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك».

وجاء في كتاب «مذهب الموحدين الدروز» صفحة (١٥٠) ما يلي:

«حكم/٢٥/عاماً.. أي من عام سنة ٣٨٦ هـ. حتى سنة ٤١١ هـ.. فلم نجد في أثنائها لا في سيرته ولا في أقواله انحرافاً عن الإسلام، وليس لدينا ما هو منسوب إليه، أو صادر عنه ما يدل على دعوى الألوهية، أو يخالف شروط الخلافة، وأحكام الإسلام.

وأخيراً:

لا بد من التوضيح بأن مذهب الدروز الذي قرأنا عنه، هو مذهب توحيدي قائم على العقل، وعلى دعائم من الفلسفة، وقد ذكرنا أنهم

يقولون بالتوحيد، ورفض كل شرك، وبأن الله هو أحد فرد صمد، وإلى جانب ذلك توجد قاعدة التأويل.

دعاة الموحدين (الدروز)

ويبدو لنا أنه من الضروري في هذه الصفحات أن نأتي على موجز لدعاة الموحدين الدروز، وذلك تتمة للموضوع الذي نعالجه.

١ ـ **حمزة بن علي بن أحمد الزوزني**: ولد سنة ٣٧٥ هـ. وتخرج من جامعة «جنـديسابـور» بفارس. كان عالماً كبيراً فاق أقرانه في العلوم الدينيَّة، والفلسفة الإلهية. التحق بدار الحكمة في القاهرة المعزيَّة وتقرَّب من الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، وحظيَ لديه بمكانة مرموقة: لقب نفسه: العقل، وهادي المستجيبين.

٢ ـ **اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي**: كان عالماً، وقائداً، وشاعراً. قاد جيوش الإمام الحاكم بأمر الله في كثير من الميادين، وكان اليد اليمنى لحمزة. كتب مجموعة من الرسائل الفلسفيـة القيمـة. لقب نفسه: بـالنفس الكليَّة، والشيـخ المجتبى، وهرمس الهرامسة، وأخنوخ الزمان، والحجة الصفيَّة الرضية.

٣ ـ **محمد بن وهب القرشي**: ينتسب لآل البيت النبوي الكريم.. كان عالماً وصادقاً... لقب نفسه بالكلمة، والشيخ المرتضى، وسفير القدرة، وفخر الموحدين، وعماد المستجيبين، والكلمة العليا.. ذكر أن لـه عدداً من الرسائل والمؤلفات.

٤ ـ **سلامة بن عبد الوهـاب السامـري**: لقب نفسه بـالسابق تكريماً وإجلالاً، وسميَ: الشيخ المصطفى، ونظام المستجيبين، وعز الموحدين، والجناح الأيمن.

٥ ـ **علي بن أحمد السموتي**: كان غزير المادة، ومجتهداً، ودؤوباً على الدرس والعمل، كتب أكثر رسائل التوحيد، وظلَّ يكافح حتى سنة ٤٣٤ هـ. وهو التاريخ الذي تمَّ بخلاله إغلاق باب الدعوة التوحيدية تقية، وتفادياً للجور، والظلم، والتشريد، والتنكيل، والقتل الجماعي الذي نزل بالموحدين في مصر، والشام على أيدي حاكمها صالح بن مرداس الكندي: لقب نفسه: الشيخ المجتبى، وبهاء الدين، ولسان المؤمنين، وسند الموحدين، والناصح لكافة الخلق أجمعين.

نهاية الامام الحاكم بأمر الله

بدأ الإمام الحاكم بأمر الله لغزاً صعب الحل، وانتهى سراً من الأسرار التي لم يتمكن أحد من الوصول الى استجلائه... وهكذا بقي، وسيبقى لغز الدهر، وسر الزمن. إلى ما لا نهاية... أمّا أقوال المؤرخين، وأمّا الروايات، والأساطير فكلها جاءت دونما دليل، وكانت في جملتها مضطربة لا تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. وكل هذا زاد في الاعتقاد بأن جريمة الاغتيال، وإخفاء الجثة دبرت من قبل رؤوس كبيرة لها سوابق في اقتراف الجرائم، وماضٍ عريق في أعمال القتل، والاغتيالات وربما كانوا ممن نجوا من سيفه، وفروا إلى بلاد بعيدة، ثم عادوا متنكرين، وبأيديهم الخناجر مدفوعين من عناصر، أو من دول معادية، وربما كانوا ممن نال أحد أقربائهم الأذى، أو لعلهم ممن كانوا، يحملون للإمام الحاكم بأمر الله الحقد الديني المتوراث، وهؤلاء كانوا كما مرَّ معنا يحللون سبّه على منابر المساجد أثناء تأديتهم الصلاة، وليس بعيداً أن يكونوا من الأقباط اليعاقبة الذين كانوا يخوضون حرباً عنيفة ضد الأقباط الملكيين أخوال الإمام الحاكم بأمر الله، الذين كانوا مشمولين بعطفه ورعايته، ومحسوبين في كل ما يبدر منهم عليه. وليس هناك أغرب، وأتفه من اتهام شقيقة الإمام الحاكم بأمر الله الأميرة «ست الملك» والقول بأنها كانت وراء الجريمة... ونحن هنا ملزمون بترديد ما ذكرته المصادر، وبالرغم من أننا لا نقرها، ولا نؤمن بصدقها.

لقد ذكرت هذه المصادر: بأن الأميرة «ست الملك» استعانت بأحد قوّاد الجيش المسمّى«حسين بن دوّاس» وهو مغربي ومن شيوخ «كتامة»، وأنها ذهبت إليه ليلاً، واستحلفته، وبعد أن وثقت منه قالت له: أنت تعلم ما يقصده أخي منك... فهو يريد قتلك، وفوق هذا لقد ادعى الألوهية، وهتك ناموس الشريعة الإسلامية، وناموس آبائه وأجداده، وازداد جنونه يوماً بعد يوم.

وذكروا أن الأميرة ست الملك وعدته بأن تجعله القائد الأعلى للجيش وللبلاد، كما وعدته بالأموال، والاقطاعات. فقبل ابن دوّاس العرض، وباشر بتنفيذ الجريمة بأن أرسل عبدين من عبيده... نفذا عملية الاغتيال بسهولة. ومن المعروف عن الإمام الحاكم بأمر الله أنه كان

مولعاً بالخروج الى جبل المقطَّم في الليل حيث يتفرَّغ للانقطاع، والعزلة، ومراقبة حركات النجوم، ورصد الكواكب... وكان من عادته أيضاً أن يستبقي بعض الخدم بانتظاره كل ليلة عند باب القصر، فإذا ركب ركبوا معه، وعندما يصل الى الجبل كان يردهم ما عدا الركابي أي حارسه الخاص.

وممَّا ذكروه أيضاً أن الأميرة ست الملك راقبت أخاها من قصرها الذي كان قريباً من قصر أخيها... فلمَّا خرج أرسلت وراءه العبدين، وزودتهما بخنجرين حادين، فلحقا به إلى جبل المقطَّم، وهناك أجهزا عليه، كما قتلا الركَّابي، ثم حملا جثة الإمام الحاكم بأمر الله الى ابن دوَّاس فحملها بدوره إلى ست الملك التي عملت على إخفائها.

وزاد المؤرخون بأن الأميرة ست الملك عمدت فيما بعد إلى قتل ابن دوَّاس، والعبدين، وذلك إخفاءً للجريمة.

وهناك رواية أخرى تقول: بأن الإمام الحاكم بأمر الله ليلة خروجه إلى المقطَّم... كان يرافقه الركَّابي وهو حارسه الخاص وحده، فاعترض طريقه سبعة رجال من البدو ، والتمسوا منه العطاء ولكن بجفاء وغلظة. فأجابهم: بأنه لا يحمل مالاً يدفعه لهم، ولكنه يرسلهم إلى متولي بيت المال، وكان وقتئذٍ «ابن بدوس» المسؤول عن الشؤون المالية للدولة الفاطمية، لكي يقوم بنقدهم خمسة آلاف درهم.. فقالوا: إنهم لا يمضون إليه، لأنه لا يدفع لهم شيئاً، واشتدَّ الجدل بينهم وبينه، وأخيراً طلبوا إليه أن يرسل معهم الركَّابي لينجز لهم ما وعد به من عطاء. فأمر الإمام الحاكم بأمر الله الركَّابي بمرافقتهم فسار مع أربعة منهم صوب المدينة، وتخلَّف الثلاثة الآخرون.

ثم إن الركَّابي عاد بعد أن أدَّى مهمته، فلم يجد سيده في المكان الذي تركه فيه، وطال بحثه دون جدوى، حتى لقيه أحد الرجال فسأله، وذكر له صفة الإمام الحاكم بأمر الله، وصفة حماره.. فأخبره أنه رأى الحمار في طريقه معرقباً، ثم أخذه إلى الموضع. وفي صباح اليوم التالي سارت الأميرة ست الملك، وجميع الأمراء والوزراء والقواد إلى الجبل، وما زالوا يتتبعون أثر الإمام الحاكم بأمر الله، حتى وصلوا إلى «دير القصير» وهناك بحثوا في الدير، وفي أكثر المواضع التي كان من عادته أن يرتادها، فلم يقفوا له على أثر..

ولكنهم عثروا في مكان آخر على ثيابه. وفيها آثار الطعنات، والدماء، ولكنهم لم يجدوا الجثة فاستدلوا من ذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين ارتكبوا جريمة القتل. وإخفاء الجثة في الجبل.

وذكر مؤرخ آخر:

«بأن الإمام الحاكم بأمر الله... عندما سار في طريقه إلى المقطّم، وبعث الركّابي مع نفر من عرب «بني قرّة» الذين اعترضوا طريقه... صرفوا الركّابي عند قبر «الفقاعي» في وسط القرافة الكبرى.. ولمّا لم يعد الإمام الحاكم بأمر الله كعادته في صباح اليوم التالي، خرج القضاة، والاشراف، والوزراء، والقواد إلى الجبل، فبحثوا عن الإمام حتى آخر النهار. ولكنهم لم يعثروا له على أثر، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى... وفي اليوم الخامس خرج «مظفّر» صاحب المظلة، «ونسيم» صاحب الستر، و «ابن مسكين» صاحب الرمح وعدة آخرون من رجال الدولة، وتوغلوا في شعب المقطّم حتى بلغوا دير القصير على مقربة من حلوان... وهناك عكفوا على البحث، والتنقيب، وما زالوا حتى عثروا على الحمار الأشهب، وقد قطعت ساقاه الأماميتان وعليه سرجه ولجامه... فتبعوا الأثر، وإذا هناك أثر راجل خلف أثر الحمار، وأثر رجل آخر أمامه... فتتبعوا ذلك الأثر وما زالوا حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي حلوان، فنزلها البعض حيث عثروا على ثياب الإمام الحاكم بأمر الله، وهي سبع جباب مزررَّة لم تحل أزرارها، وفيها أثر الطعنات... وعندئذٍ أيقن الناس بقتله.

وينقل المؤرّخ المقريزي، في خططه، عن الأمير المسبحي، رواية تقول إنه «في المحرم سنة ٤١٥ هـ. قبض على رجل من بني حسين بالصعيد الأعلى، فأقرّ بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس، تفرّقوا في البلاد، وأظهر جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه. فقيل له: لِمَ قتلته؟ فقال: غيرة لله وللإسلام.. الخ».

والأمير المسبّحي، هو مؤرخ ثقة، وله من طويل صحبته للإمام الحاكم بأمر الله، ورفيع مكانته في القصر الفاطمي، ووقوفه على المعلوم والمجهول من أسرار ذلك العصر، ما يحملنا على الأخذ بما يقول فهو قد رأى وسمع كل ما دار في حجرات القصر عقيب مصرع الإمام، وبالتالي فهو شاهد عيان وليس كالشاهد العيان مصدراً ينقل عنه.

بيد أن رواية الأمير، تأتي إلى الخاطر بسؤال يلحّ على الجواب، وأعني السؤال عن غيرة رجل بني حسين هذا على الإسلام، ما هي؟

وما سببها؟ وهل كان الرجل واحداً من الخلق اجتهد في الرأي فقرّر اغتيال الخليفة؟ أم أن ثمّة من يقف وراءه؟

نقول هذا ونذكّر بأن في «الغيرة على الإسلام» نكهة عباسية لا يخطئها الأنف، وهي ليست المرة الأولى التي ينبز فيها أعداء الفاطميين، بالمروق من الدين والخروج عليه. والذي أراه هو أن الرجل وأصحابه كانوا من المؤمنين السذّج، غرّر بهم أعداء الدولة الفاطمية، فخُدِعوا بما سمعوا وركبتهم الحمية ومضوا إلى ما نعلم من عظيم الإثم وسوء الجناية وهم يحسبون أنهم يتقربون إلى الله بقربان عظيم.

وما دمنا قد وضعنا هذه الرواية في الميزان، فلا بد لنا أن نسأل عن دين القاتل الذي سلّم القوم بصواب فتواه واجتهاده في قتل إمام الأمة، أو قل، في قتل رجل من عامّة المسلمين دون الرجوع إلى فقيه عالم بالأحكام له من علمه وورعه أن يفتي في الناس، ما دين هذا الرجل الذي لا يريد إلّا الإسلام ليحلّ حلاله ويحرّم حرامه، ثم يطعن صدره بحديدة وكأن الرسول لم ينه عن ذلك في الحديث المأثور «من وجأ نفساً بحديدة حشر يوم القيامة وحديدته بيده يجأ نفسه بها خالداً مخلّداً في النار... الخ» لقد كان القوم في عجلة من أمرهم عندما نسبوا للرجل، المغرّر به، ما نسبوه من قول. نعم لقد أهلك الرجل نفسه، فما في ذلك شكّ، ولكنه فعل ذلك يأساً وقنوطاً فلقد أقر بالوزر الفادح الذي يثقل ضميره، عندما أفاق على ما جنته يداه وعلم أنه قد أهلك نفساً بغير نفس، وأنه جنى على الأمّة جناية لا تذهب بها الأيام.

يبقى القول بأن رواية الأمير تنفي التهمة عن الأميرة ستّ الملك وتعلن براءتها مما قُرِفَتْ به، وإلى هذا ذهب المقريزي، وهو عندي الصواب.

ثمة أيضاً رواية تقول بمقتل الإمام الحاكم بأمر الله على يد ابن دواس، الذي أراد الإمام قتله، ففرّ هارباً ولجأ إلى جماعة من أهل بادية مصر، وكانوا من أنصار أبي ركوة، فاتفق معهم على اغتيال الإمام واتمّوا ما اتفقوا عليه وأن الأميرة ست الملك احتالت على ابن دواس، الذي عاد إلى بيته بعد مصرع الإمام، فدعته إلى قصرها

ودسّت في الوقت نفسه جماعة فتشوا منزله فوجدوا سكين الإمام الحاكم فيه، فكانت قرينة لا تردّ.

وثمّة رواية أخرى تقول بأن القتلة كانوا من قبيلة المصادمة المغربية بتحريض من الأمويين في الأندلس وقيل بل هم سويديون يتزعمهم سويد بن الحارث...

ولكن أيّاً كان القاتل، وأيّة كانت دوافعه، فإن الروايات كلها تجمع على مصرع الإمام الحاكم بأمر الله وانتقاله إلى حضرة ربّه، ضحية تدبير سري وأن غموض ملابساته، وغياب قرائنه، تحمل على القول بأنه كان تدبيراً أكبر من طاقة الفرد الواحد وأبعد مرمى من غايات مؤمن بني حسين.

يبقى الكلام في التهمة الموجهة إلى ستّ الملك:

لماذا تقتل ست الملك ذات الطول والحول، التي لا تحتاج شيئاً ولم يحرمها أخوها من شيء، أخاها الحاكم؟

أغيرة على الدولة الفاطمية؟ وانتصاراً للتراث الفاطمي؟

ست الملك تغار على الدولة أكثر من أخيها؟ أفلا يكلف المرء نفسه جهد قراءة ما أُثِرَ عن الحاكم بأمر الله من نصوص وسجلات وتوقيعات وخطب، ليحكم عليه ولينظر في أمره، هل كان شرّا على الدولة أم أنه كان حاكماً عادلاً لا يلتوي عليه الحق، ويأخذ الناس بما يأخذ به نفسه، ويوصي قاضيه بتقوى الله والحرص على إنفاذ أحكام الله، وينظر إلى مصالح أمته فيرى فيها رأياً قد لا يعيه العامي ولا يقبله المتجنّي حتى تأتي الأيام بالدليل على صوابه؟ ثم إننا لم نقرأ في كل ما وصلنا من صحف عن أخبار ذلك الزمان أن الإمام الحاكم بأمر الله، كان جشعاً شرهاً، أو سارقاً متعسّفاً، يضع أموال الخلق في غير مواضعها، ولا عرفنا عنه الحقد والحرص على الانتقام وحكايته مع الشريف العلوي الذي صرخ به وأساء القول في حضرته على مرأى من الناس ومسمعهم، موجودة وهذه ليست رواية شيعية فقط مما يعني أنها سليمة من شكّ «المحققين» وريبهم العلمي.

وبعد، فستّ الملك سيدة نبيلة عرفت بالذكاء والتعقل والحكمة والحزم فلا بد لها إذن من أن تعرف أن السماح للخلق بالتطاول على الإمام

وقتله سيكون أوسع ثغرة تفتح في بناء الدولة، فست الملك تعرف، لا جرم، أخبار بني العبّاس، ومصارع خلفائهم على يد الغلمان والقواد لأن أحدهم فتح الباب فصار سدّه مستحيلاً على من جاء بعده.

لقد سقط الإمام الحاكم بأمر الله صريعاً، فيما قرأنا ويعلم الجميع، على أرض مصر وليس في صقع من أصقاع القطب الشمالي، فمن أين اتوا إذن بتلك الأثواب الصوفية السبعة فوق بعضها البعض طباقاً كالسموات والأرضين؟ وكيف أطاقها الإمام.

لقد قُتِل الإمام الحاكم ويقتل مراراً، مرة بيد من وجأه بمديته فقضى عليه، ومرات على يد الأساتذة الذين أساؤوا إلى تاريخه.

لقد كان الإمام الحاكم بأمر الله يحظى بتقدير، واحترام الشعب المصري خاصة في ذلك العصر البعيد نظراً لما يمتلكه من صفات عالية. وقد ذكر تاريخ مصر أن بعض القوّاد قدموا أنفسهم قرابين في سبيله، واعتقدوا فيه بأنه خير من حكم بلادهم، وسهر على راحة شعبها.

أمّا عقيدته الدينية فقد وصفها «حجة العراقين» الفيلسوف الكبير الكرماني بقوله: إنه إمام مؤمن بالله وبرسوله... وإنه كرَّس نفسه لعمل الخير، وتعشق المثل، وهام بجلائل الأعمال.

لقد ذكروا صفاته، وأخلاقه في كتب عديدة، ولكن ضاع أثرها، ويعتبر الأمير المسبحي مؤرخ عصره، وأصدق من كتب عنه، وإليه يعود الفضل بما ذكر عنه من حقائق. ومن المعلوم أن المؤرخ المقريزي سار على أثره، بإنصاف الإمام الحاكم بأمر الله، وتصويره على حقيقته.

وأخيراً، وتتمة للفائدة رأينا أن نضع في هذه الصفحات صورة طبق الأصل عن البيان الذي أذاعه الإمام الحاكم بأمر الله على رعيته قبل وفاته، عندما اضطربت الدعوة، وعصفت بها رياح الانقسام، فكان لا بد له من إغلاق أبوابها، وتوقيف نشاطها... وهذا هو البيان:

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاقبة لمن تيقظ من وسن الغافلين، وانتقل عن جهل الجاهلين، وأخلص منه اليقين، فبادر بالتوبة إلى الله تعالى، وإلى وليه وحجته على العالمين، وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين، واغتنم الفوز مع

المطهرين والمتقين، ولم يكذب بيوم الدين، وكان بالغيب من المصدقين به والموقنين، وأعتقد أن الساعة آتية بغتة لا ريب فيها وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا عدوان إلا على الظالمين المردة الشياطين، الفسقة المارقين، وكل حلاف مهين، الناكثين الباغيين المفسدين الطاغيين، أهل الخلاف والمنافقين المكذبين بيوم الدين، المغضوب عليهم والضالين، والحمد لله حمد الشاكرين، حمداً لا نفاد لآخره أبد الآبدين، وصلى الله على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن إلى الخلق أجمعين، ومبشراً ونذيراً بأئمة من ذريته هاديين مهديين، كراماً كاتبين، شهداء على العالمين، ليبينوا للناس ما هم فيه مختلفون، وعنه يتساءلون، ويرشدونهم إلى النبأ العظيم، والصراط المستقيم، سلام الله السني السامي عليهم إلى يوم الدين.

أما بعد أيها الناس فقد سبق إليكم من الوعد والوعظ والوعيد، من ولى أمركم وإمام عصركم، وخلف أنبيائكم وحجة باريكم، وخليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع ما اقترفتم فيه، من الاعذار والإنذار ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع، واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا، وأنتم مع ذلك في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلالة تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون. كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، وقد علمتم معشر الكافة، أن جميع ما ورثه الله تعالى لوليه وخليفته في أرضه، أمير المؤمنين سلام الله عليه، من النعم الظاهرة والباطنة، قد خول إمام عصركم لشريفكم ومشروفكم من خاصتكم وعامتكم، من ظاهر ذلك وباطنه، على الإكثار والإمكان بفضله وكرمه، حسب ما رأى سلام الله عليه، ولم يبخل بجزيل عطائه، وهنا كم منة منه، مع ذلك ما أوجبه الله تعالى له عليكم، في كتابه من الحق، فيما ملكته أيمانكم، ولم يشارككم في شيء من أحوال هذه الدنيا، نزاهة عنها ورفضاً منه لها، على مقداره ومكنته، لأمر سبق في حكمته، هو سلام الله عليه اعلم به، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه، ما لم ينل مثله بشر من الماضيين من أسلافكم، ولا أدرك قوة أنبأ منه أحد من الأمم الذين خلوا من قبلكم من المهاجرين والأنصار، في متقدم الأزمان والأعصار، ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق، ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى، بل منة منه عليكم، ولطفاً بكم ورأفة ورحمة، واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ولتعرفوا قدر ما خصصكم به في عصره من نعمته وحسن منته وجميل لطفه، وعظيم فضله وإحسانه، دون من قد سلف من قبلكم، فاشكروا للّه ووليه كثيراً على ما خولكم من فضله، ولعلكم تشكرون، وتعملون عملاً يرضى ويضاهي أعمال الأمم السالفين أضعافاً، حسب ما ضاعفه لكم ولي الله في عصره، من نعمه الظاهرة الجليلة، من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة

والأنعام إلى غير ذلك من الأرزاق والإقطاع والضياع وغيره من أغراض الدنيا، على اختلاف أصناف إحسانه، ورقى خاصتكم وعامتكم إلى الدرجات العالية، والرتب السامية، لتقفوا مسالك أولى الألباب، وأمركم وشرفكم بأحسن الألقاب، وجولكم في الأرض مشرقاً ومغرباً، وسهلاً وجبلاً، وبراً وبحراً، فأنتم ملوكها وسلاطينها وجباة أموالها تفك لكم بمادة ولي الله الرقاب، وتنقاد إليكم الوفود والأحزاب، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فعشتم في فضل أمير المؤمنين، سلام الله عليه، رغداً بغير عمل، وترجون بعد ذلك حسن مآب. ومن نعمه الباطنة عليكم، تمسككم في ظاهر أمركم بموالاته، تعتزون بمعاني دنياتكم وترجون بها نجاتكم والفوز في آخرتكم، فقد تمنون على الله وعلى وليه بإيمانكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم إلى الإيمان، فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية، ولو استقمتم على الطريقة الوسطى لاسقيتم ماء غدقاً. ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان التي هي الدين عند الله، وبه شرفتم وطهرتم في عصره على جميع المذاهب والأديان، وميزكم من عبدة الأوثان، وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان، وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم، وقد كانت قديمة من قدم الأزمان، وانقادت الذمة إليكم طوعاً وكرهاً، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وبنى الجوامع وشيدها، وعمر المساجد وزخرفها، وأقام الصلوة في أوقاتها، والزكوة في حقها وواجباتها، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الإسلام، وفتح بيوت أمواله، وأنفق في سبيله، وخفر الحاج بعساكره، وحفر الآبار وآمن السبيل والأقطار، وعمر السقايات، وأخرج على الكافة الصدقات وستر العورات، وترك الظلمات، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات التي جعلها الله تعالى عليكم من المفترضات، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً، وداولها بين الناس حيناً ودهراً، وفتح لكم أبواب دعوته وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليهديكم بها إلى رحمته ويحثكم على طاعته، وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام، لتبلغوا مبالغ الصالحين، فشينتم العلم والحكمة، وكفرتم الفضل والنعمة، ونبذتم ذلك وراء ظهوركم، وآثرتم عليه الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل، في قصة موسى عليه السلام، فلم يجبركم ولي الله عليه السلام، وغلق باب دعوته، وأظهر لكم الحكمة، وفتح لكم خارج قصره دار علم، حوت من جميع علوم الدين وآدابه، وفقه الكتاب، في الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، مما هو في صحف الأولين وصحف إبراهيم وموسى صلى الله عليهم أجمعين، وأمدكم بالأوراق والأرزاق والحبر والأقلام لتدركوا بذلك ما تخطون به وتستبصرون، وبه من الجهل تفوزون، وقد كنتم من قبل ذلك في طلب بعضه تجهدون، فرفضتموه وقصرتم، وعن جميعه أعرضتم إعراض المضلين، ولم يزيدكم ذلك إلا فراراً، ومال بكم الهوى إلى الموبقات، ومكنتم من اكتساب

السيئات، ونقضتم العلم وأظهرتم الجهل، وكثر بغيكم ومـرحكم على الأرض، حتى كاد لها أن تضج إلى الله تعالى فيكم من كثرة جوركم ومرحكم عليها، وولى الله سلام الله عليه، مكافح لها فيكم رجاء أن تتيقظ خاصتكم، وتستفيق من السكر والجهل عامتكم، فما ازددتم إلا طغياناً وعصياناً واختلافاً؛ تتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وعدو الله وعدو أمير المؤمنين، قد قصر عن الفساد يده مخافة من سطوات ولى الله ورضى منه بالمسالمة والمهادنة، حتى ليس لأمير المؤمنين سلام الله عليه عدوٌ يجاهده ولا ضدٌ يعانده، والكل من هيبته خايف وجل، وأنتم معشر الخاص والعام بحضرته، تضمكم دولته، وتشملكم ولايته وتلزمكم طاعته، وأنتم مع ما تقدم ذكره من مساوئكم متحادقين متعاندين متزاحفين، يجاهد بعضكم بعض كالروم والخزر جرأة على الله بغير مخافة منه ولا ترقب، ولا ينهاكم عن سفك الدماء وهتك الحريم دين من الله، ولا وقار من أمامكم ولا يقين، قد غلب عليكم الجهل فلن ترجوا لله وقاراً، ولن تقولوا ان إمام عصركم واحد، وإن الإسلام والإيمان قد شملكم، وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله، ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فأي نازلة هي أكبر منها وأيّ شماتة للعدو، ويلكم أعظم من مثلها. لقد أصبتم معشر الناس في أنفسكم وأديانكم، وأصيب فيكم ولي الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أفأمنتم أيها الغافلون أن يصيبكم ما أصاب من كان قبلكم من أصحاب الأيكة وقوم تبع، ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ألم نهلك الأولين، ثم نتبعهم الآخرين، كذلك نفعل المجرمين﴾(٢) ومثل هذا كثير في كتاب الله عز وجل، ومما أصاب أهل العناد والخلاف والمنافقين والمفسدين في الأرض، فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه، من عظم إسراف الكافة أجمعين، ولذلك خرج من أوساطكم، قال الله ذو الجلال والإكرام، ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهـم ﴾(٣) وعلامة سخط ولى الله، تدل على سخط الرب تبارك وتعالى. فمن دلائل غضب الإمام، غلق باب دعوته، ورفع مجالس حكمته، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره، ومنعه عن الكافة سلامه، وقد كان يخرج إليهم من حضرته، ومنعه لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه، وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد وفي شهر رمضان، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان، ولا يذكرون، ومنعه

(١) **القرآن الكريم**، سورة الفجر، الآية ١٤.
(٢) **القرآن الكريم**، سورة المرسلات، الآية ١٨.
(٣) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال، الآية ٣٣.

جميع الناس أن يقولوا مولانا، ولا يقبّلوا له التراب، وذلك مفترض له على جميع أهل طاعته، وإنهاؤه جميعهم عن الترجل له من ظهور الدواب، ثم لباسه الصوف على أصنافه وألوانه، وركوبه الأتان، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة في موكبه، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم وهم عن جميع ذلك في غمرة ساهون؛ استحوذ عليهم الشيطان، فانساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

فقد ترك ولي الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى، يخوضون ويلعبون في التيه والعمى، الذي آثروه على الهدى، كما ترك موسى قومه حتى آن الهلاك أن يهجم عليهم وهم لا يعلمون، وخرج عنهم وهم في شك منه مختلفون، مذبذبون بين ذلك، لا إلى الحق يطيعون، ولا إلى ولي الله يرجعون، قال الله تعالى، ولو ردوه إلى الله والرسول، وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم؛ أيها الناس كلام الله أوعظ واعظٍ، وبين منه وعظمكم بهذه الموعظة من الفقر والحاجة إلى عفو الله تعالى، وعفو وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه، أعظم منكم.

فبالنسيان تكون الغفلة، وبالغفلة تكون الفتنة، وبالفتنة تكون الهلكة؛ وقد قال الله تبارك وتعالى، ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله توّاباً رحيما﴾[1]. وقال عز من قائل، ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾[2]، ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[3].

وقال تبارك وتعالى ﴿فإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني﴾[4].

فالبدار البدار معشر الناس أن وقفتم على براح من الأرض يكون أول طريق سلكها أمير المؤمنين سلام الله عليه، وقت أن استتر نصبَ (عند الدروز نضو) أعينكم، وتجتمعوا فيها بأنفسكم وأولادكم، وطهروا قلوبكم وأخلصوا نياتكم لله رب العالمين، وتوبوا إليه توبة نصوحا وتوسلوا إليه بأوجه الوسائل بالصفح عنكم والمغفرة لكم، وأن يرحمكم بعودة وليه إليكم ويعطف بقلبه عليكم، فهو رحمة عليكم وعلى جميع خلقه، كما قال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله، ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[5].

---

(١) القرآن الكريم، «سورة النساء»، الآية ٦٤.
(٢) القرآن الكريم، «سورة مريم»، الآية ٦٠.
(٣) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية ٢٢٢.
(٤) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية ١٨٦.
(٥) القرآن الكريم، «سورة الأنبياء»، الآية ١٠٧.

فالحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين سلام الله عليه أثراً، ولا تكشفوا له خبراً، ولا تبرحوا في أول طريق يتوسل جميعكم، كذلك أمراؤنا؛ فإذا أطلت عليكم الرحمة، خرج ولي الله أمامكم باختياره راضياً عنكم، ظاهراً في أوساطكم، فواظبوا على ذلك ليلاً ونهاراً قبل أن تحق الحاقة وتقرع القارعة ويغلق باب الرحمة، وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة، وقد أعذر من أنذر، ونصح من قبلكم نفسه وحذر، والخطاب لأولى الألباب منكم، والتعيين عليهم والمشيئة لله تبارك وتعالى، والتوفيق به والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى وصدق بكلمات ربه الحسنى.

كتبه مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه في شهر ذي القعدة سنة إحدى عشر وأربع ماية.

وصلى الله على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وسلم على آله الطاهرين وحسبنا الله ونعم والوكيل.

تحتفظ أصحاب العلم بهذه الموعظة من المتقين، ولا يمنع أحد من نسخها وقراءتها، نفع الله من وفق للعمل بما فيها من طاعة الله وطاعة وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه.

حرام حرام على من لا ينسخها ويقرأها على التوابين في جامع أسفل.

وحرام حرام على من قدر على نسخها وقصر والحمد لله وحده.

الأعياد والمواكب الفاطمية(*)

كان عصر الدولة الفاطمية في مصر.. من أزهى عصور التاريخ، فقد اجتمع فيه الكثير من أسباب القوة، والعظمة، والبهاء. فهذه الدولة كانت شامخة تمثل الزعامة، والخلافة الإسلامية تمثيلاً صحيحاً في ظروف سياسية، ودينية خاصة، ومن الواضح أنها حافظت على تلك الميزات حرصاً على أن تطبع المجتمع بطابعها، وأن تصوغ روح الشعب، وعقليته، وتفكيره، وحياته العامة، والخاصة. وفقاً لمناهجها، ورسومها.

وإما نرى.. أن الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية.. اتخذت صوراً ومظاهر خاصة، وتقلبت بين ألوان من البذخ، والترف، والبهاء. قلَّ أن نجدها في عصر آخر من عصور مصر الإسلامية، وقد كانت هذه الحياة مرآة للدولة الفاطمية، تشع بخواص قوتها، وفخامتها، وبهائها، ووحي مناهجها، السياسية، والدينية، والعقلية.

(*) راجع كتاب **الحاكم بأمر الله** محمد عبد الله عنان.

وكانت أعياد الدولة، ومواسمها الباهرة، ولياليها الساطقة مثار البهجة والمرح العام. فالأعياد، والمواسم **تتشح** بالفخامة، والبهاء، والرسوم وتبدو بأثواب من الرونق والجمال.

وقد وصف لنا بعض المؤرخين هذه الأعياد، والحفلات، والمواكب، ووصفوا أمامنا صوراً واضحة برَّاقه عنها، فظهرت بمنتهى الروعة، والفخامة. ومن المؤكد أن عصر الإمام الحاكم بأمر الله رغم اضطراب أوضاع دولته، وقيام **الانتفاضات**،والثورات، لم يخل من هذه المظاهر، والمشاهد الفخمة، ولا سيما قبل أن تصدر مراسيم الإمام الحاكم بأمر الله بالتقليل من المظاهر **الباذخة**، والأبهة، والعظمة.

أجل.. لقد كانت المواكب، والحفلات الفاطمية تبلغ ذروة البهاء، والبذخ أيام الأعياد الرسمية، والمواسم المعترف بها في الدولة، وهي كثيرة في عهد الدولة الفاطمية... وتبدأ:

برأس السنة الهجرية، وليلة المولد النبوي الكريم، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وغرة رمضان، ويوم الفطر، ويوم النحر «عيد الأضحى».. وأمَّا الأعياد الأخرى فهي:

مولد الإمام علي بن أبي طالب، ومولد الحسن، والحسين، وفاطمة، ويوم عاشوراء، أي العاشر من محرَّم، وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين بن علي في كربلاء. أمَّا الأعياد الأخرى فهي:

عيد فتح الخليج، يوم النيروز، وعيد الشهيد، وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بهذه الأعياد في فيض من الروعة، والبهاء، والبذخ، فتقام المآدب، والحفلات الشائقة، ويكثر البذل والعطاء، ويستقبل الشعب هذه الأيام المشهودة بالرقص، والأفراح، تغمره البهجة، والسعة، والمرح.

أمَّا الاحتفال بعيديْ الفطر والأضحى، فكان من أعظم المشاهد، ويعتبر موكب العيد من أفخم مواكبها، وأروعها.. ففي ليلة عيد الفطر كان ينظم بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع، فتنتثر عليه صنوف الحلوى، والفطائر الشهيَّة ممَّا أعدَّ في دار الفطرة الخلافية، فإذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه، وفتحت

أبواب القصر، والإيوان على مصاريعها، وهرع النـاس من جميع الطبقات إلى السماط. وحين تبزغ الشمس يخرج الخليفة في موكبه إلى الصلاة، ويكون خروجه من باب العيد إلى المصلَّى.

وهنا نكتفي بما ذكره مؤرخ العصر الأمير المسبحي في وصف هذا العيد:

وفي يوم العيد يركب الخليفة لصلاة العيد، وبين يديه الجنائب، والقباب من الديباج بالحلي، والعسكر في زيه من الأتراك، والديلم، والعزيزية، والأخشيدية، والكافورية، وأهل العراق.. بالديباج المثقل، والسيوف، ومناطق الذهب، وعلى الجنائب السروج بالذهب، والجوهر، والعنبر وبين يديه الفيلة، وعليها الرجالة بالسلاح. ويخرج بالمظلة الثقيلة بالذهب، وبيده قضيب جده عليه السلام.

فإذا عاد الخليفة من الصلاة، كان ثمة سماط آخر أبهى، وأروع. فيجلس الخليفة في مجلسه وأمامه مائدة من فضة، وعليها أواني من ذهب أيضاً غاصة بأفخم الألوان وأشهاها، وقبالة المائدة سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مـدعو، وقـد نثرت عليـه الأزهار، والرياحين، وصفّت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور، والحلوى الشهية، ويجلس إليه رجال الدولة، والعظماء، والأكابر، فيأكل من شاء، وعند الظهر ينفضُّ المجلس، وينصرف الناس.

وأمَّا عيد الأضحى:

فكان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو المتبع في صلاة عيد الفطر، ثم يخصّ بسماط حافل يقام في أول يوم منه، بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى، ويمتاز خاصة باشتراك الخليفة نفسه في اجراءات النحر، وكان قيام، الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر، والرسوم التي جرت عليها الخلافة الفاطمية في الأعياد العامة.

فلنتصور أمير المؤمنين متشحاً بثوب أحمر قانٍ يسير في موكبه ماشياً إلى دار النحر، وقد كانت تقوم في ركن خارجيٍ من القصر، وبين يديه الوزير الأول، أكابر رجال الدولة، ويكن قد أعدَّ في المذبح برسم التضحية واحد وثلاثون فصيلاً وناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة،

وحاشيته، وقد فرشت حافتها بأغطية حمراء يتقى بها الدم، وحمل الجزارون كل بيده إناءً مبسوطاً يتلقى به دم الضحية، ثم تقدم رؤوس الأضاحي إلى الخليفة واحدة بعد أخرى، فيدنو منها، وبيده حربة يمسك بها من الرأس، ويمسك القاضي بأصل أسنانها، ويجعله في عنق الدابة، فيطعنها به الخليفة، وتجر من بين يديه، وهكذا حتى يأتي عليها جميعاً، وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير، ويقدم لهم الضحية الأولى، ويفرق قطعاً صغيرة على الأولياء والمؤمنين.

وفي اليوم التالي ينظم الموكب نفسه إلى المنحر، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً، وفي اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين، ويجري توزيع لحوم الأضاحي خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم في أطباق خاصة للتبرك، ويخص دار الحكمة، ودار العلم بقسط من هذه اللحوم.

وكانت ثمة أعياد رسمية، أو قومية أخرى تقام أحياناً في فيض من البذخ، والمرح وأحياناً تفرض في إقامتها فروض معيَّنة، وأحياناً تلغى، وذلك إنها لم تكن أعياداً إسلامية.

أمَّا بالنسبة للحفلات الدينية الرسمية، وللأيام المشهودة، فقد كانت تزين فيها المدينة أعظم زينة، ويكثر الخليفة من الصلة والهبات، وكان يركب مرة أو مرتين في الأسبوع للتنزه في البساتين والحدائق التابعة للقصور الملكية، والضواحي المدنية، ولكن بعد حين الغى الإمام الحاكم بأمر الله أكثر هذه المظاهر، واستعاض عنها بمنهج حياتي خاص سار عليه حتى آخر يوم من حياته.

ومهما يكن من أمر... فهكذا كانت الخلافة الفاطمية تحتفي بأعيادها، ومواسمها، ولياليها في بذخ طائل... وهكذا كانت رسومها، ومواكبها، ومظاهرها مثال الروعة، والبهاء، أو قل شذوراً تذكي الخيال إلى الذروة.

لقد كانت مخططاتهم ترمي إلى إرضاء الشعب، وجعله تحت فيض من المسرات، والمواكب الباهرة مضافة إلى الحفلات، والمآدب، والأعياد، وكان عليهم أن يأسروه بمظاهر الكرم الوافر.. والجود، والسخاء لكسب ولائه، وعرفانه، وتأييده.

السجلات الحاكمية

أصدر الإمام الحاكم بأمر الله سجلات عديدة. وهي مراسيم، وقوانين أذاعها على الشعب، وبالنظر لأهمية بعضها التاريخية رأينا أن نبسط ما كان منها ذا أهيمة... ونبدأ بالأمان الذي أعطاه الإمام الحاكم بأمر الله للقائد «الحسين بن جوهر الصقلي» عندما فرَّ من القاهرة، ويستدل من هذا الأمان أن الإمام الحاكم بأمر الله رغب إلى الحسين بأن يعود إلى ما كان عليه.

الامان للحسين بن جوهر الصقلي

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعد... فانك بأمير المؤمنين ظهرت، وبسقيا نعمته نبت، وأغصانها أقلتك، ودوحاتها أظلتك، وعهدها تميمتك، وعقدها ذخر لي، وغنيمتك، وكم لآباء أمير المؤمنين على آبائك نعم أمثالها، وفيهم عوائدها، وبواديها، وأشكالها، فاشتروهم من التجّار وملكوهم أزمة الأحرار، وأعطوهم أعنة الكبار، وجعلوا أعقابهم ملوك الأقطار، وأعلام الأمصار. فصاروا رؤوساء بعد أن كانوا أذناباً وصدروا بعد أن كانوا أعقاباً. فقادوا العساكر، ورقوا رؤوس المنابر، وركبو رقاب الدهر، وحكموا في الأموال، والدماء بنافذ الأمر، وأبقى ذلك أمير المؤمنين، ووفّره، وأفاض بسجاله وأدره، ولم يقتصر بك على ذلك حتى جذب بصنيعك من مطارح العبيد إلى مطالع الأحرار الصيد.. فعقد لك الوزارة، والقيادة، وجللك رداء العز، والسيادة، وألقى إليك مقاليد الأمر، وبسط يديك في البدو والحضر. وأعطاك ما لم تسم بك إليه همة، وخولك ما لم يبلغ بك إليه أمنية، وفضلك على كثير من مواليه وعصبه، وأدانيه، وأقاربه، وعظم خطرك، وقدرك، وأنفذ صيتك، وذكرك.

تنهي، وتأمر، وتورد، وتصدر، وتنفع، وتضر، وتسوء، وتسر... وصرت بشدة أمرك، ورفعة قدرك جباراً عظيماً، وسلطاناً قويماً تمضي ما شئته، ولا تناقض، وتملك ما أردت ولا تعارض، ولم يدر أن مثل احسانه إليك يكفر، ومثل متجره فيك يخسر، فبطرت عيشك، ونسيت أمسك، وجهلت نفسك، وخنت ولي نعمتك، وعصيت مالك ناصيتك، فاستبدلت بشعار الطاعة جلباب المعصية، وركبت بمركب العبودية مركب الحرية، وأوضعت، وأوجفت، قائد الضلالة والجهالة، ونقضت العهد، وحللت العقد، وخيل إليك بسوء نيتك، وسقم طويتك الغدر الذي ليت عليه. فظننت أن أمير المؤمنين، «وبعض الظن إثم» قال عمّا عاهدك، وبدا له فيما عاقدك،

وحاشاه من ذلك، وما عسى ـ غفر الله لك ـ أن تقول إذا تناقلت زلتك الألسن العادلة، وبثت حديثك الأندية الحافلة، وما عذرك إذا قيل لك لِمَ خرجت عن الأوطان، وتطرحت في البلدان، وخليت دارك التي فيها درجت، ومنها خرجت، وقلدت نفسك بما لا يدحضه الاعتذار، ولا يعفيه الليل، والنهار، ولم يثلم لك مال، ولا يغير لك حال، ولم تبتز ثوب الكرامة، ولم تسلب ظل السلامة.

نعوذ بالله العظيم من نعمة تتعرَّى عن جلبابها، ومَوْهِبة تسلخ من أهابها، ومع ذلك فتدعي أنَّا نبتغي لك الغوائل، وننصب لك الحبائل، ونقصد منك المقاتل، ونشره إلى حيازة مالك،ونسارع إلى استضامة حالك، لا عن دلالة تقيمها، وتظهرها، ولا من حجة تتدلى بها، وتذكرها إلَّا إرادة أن يتداول الناس دعواك، ويتفاوضوا شكواك، فيخيل في نفوسهم، ويقرر في قلوبهم أن لك رخصة فيما ارتكبته،وفسحة فيما اجتنيته،ويا لله لو كانت التهمة بنا واقعة لكانت طاعتك لنا أزين من مخالفتنا.. كيف وعلّام الخفايا والغيوب، والمطلع على الضمائر في القلوب يشهد عليك باستحالة ما تذكره، ويناقض ما تضمره، ولو كان أمير المؤمنين يريد بك سوءاً، ويبغي لك مكروهاً، لكان مرامه أيسر، وطريقه أحضر، ولأخذك جهراً، وأسرك قهراً، ولم يراقب فيك أمراً.. فإن الله تعالى قدره، ولله تعالى القدرة التي لو رام بها البحر لأغرقه، أو البر لأحرقه، أو الجبل الراسي لدكدكه، والفلك الدوَّار لأمسكه، فإن نزلت عن مطية العصيان، وخلعت خلعة الطغيان، واستقلت عثرتك، واستغفرت ذنبك، وأتيت إلى باب مولاك، ورجعت إلى آخرتك، وأولاك، وجدته عليك عطوفاً، وبك رؤوفاً، ولعذرك ممهداً، ولجريرتك متغمداً، فيسحب ذيله على ذنوبك، ويسبل ستره غلى عيوبك، ويشملك أمانه الذي لابسه يوقى النار، وتصرف عنه آفات الليل والنهار، ويردك إلى سبيل وفائك، ويعيد إلى أرضك صوب سمائك، ويعطف عليك بالحفظ، والاستقامة إليك، والشح عليك، ورفع الظنة عنك، وإلقاء كلام الموحشين منك، فيرد اقطاعك، ورسومك، ويراعي أمورك، وحقوقك فتشتد أواخيك، وتحمي نواحيك، وتزاد على ما كنت تحويه، وتعطى أكثر مما ترومه وتبتغيه، وتكون في أيامه مرفهاً مبجلاً، وفي دولته معززاً، ومفضلاً، مرفوعاً عن بذلة الخدمة، محمولاً على جلالة الحرمة مسامحاً فيما تطلبه وتهواه مسوغاً ما تقترحه، وتتمناه، ومشفعاً فيما تلتمسه، مجاباً إلى ما ترومه، وتفعله، فإن أبيت إلَّا الإباء، والعلو، والجماح، والعتق، فما أهون انتسافك، وما أيسر اختطافك، وما أقرب ما تلتف عليك الحبائل، وتحيط بك الغوائل، وتساورك المنية، وتحيط بك الأمنية.. وقد أعذر من أنذر... والسلام على من أبصر، وفكَّر.

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على محمد نبيه، وآله الطاهرين.

«الحاكم بأمر الله»

القضاء في الدولة الفاطمية

«وهذا مرسوم حاكمي بتولية «الحسين بن علي بن النعمان» القضاء في الدولة الفاطمية، وفيه تظهر مثالية الإمام الحاكم بأمر الله، وعدله، وتعاليمه الصائبة الحكيمة على الاتباع والمسؤولين في دولته».

«هذا ما عهد عبد الله ووليه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، للقاضي حسين بن علي بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر، والإسكندرية وأعمالها، والحرمين حرسهما الله تعالى، وأجناد الشام، وأعمال المغرب، وإعلاء المنابر، وأئمة المساجد الجامعة، والقومة عليها والمؤذنين بها، وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد، والنظر في مصالحها جميعاً، ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتحاه، وقصده وتوخاه، من اقتفائه لآثاره، وانتهائه إلى إيثاره، في كل علية للدولة ينشرها ويحييها، ودنية من أهل القبلة يدثرها ويعفيها؛ وما التوفيق إلا بالله ولي أمير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمورهم وولاه.

أمره أن يتقي الله عز وجل حق التقوى، في السر والجهر والنجوى، ويعتصم بالثبات واليقين والنهي، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى؛ فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل إليها حصين، ومعقل لمن اقتفاها أمين، ومعول لمن عول عليها مكين؛ ووصية الله التي أشاد بفضلها، وزاد في سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[١].

وأمره ألا ينزل ما ولاه أمير المؤمنين (إياه) من الأحكام في الدماء والإشعار والإبشار والفروج والأموال، (عن) منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة، وحرماته المعظمة، وبيناته المبينة في آياته المحكمة؛ وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء والمأثور عن أبينا علي سيد الأوصياء، وآبائنا الأئمة النجباء، ـ صلى الله على رسوله وعليهم ـ قبلة لوجهه إليها يتوجه، وعليها يكون المتجه. فيحكم بالحق، ويقضي بالقسط، ولا يحكم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إيثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول: ﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[٢]: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[٣].

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة»، الآية ١١٩.
(٢) **القرآن الكريم**، «سورة ص»، الآية ٢٦.
(٣) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة»، الآية ٨.

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان، من إعزازه والشد على يده، وتنفيذ أحكامه وأقضيته؛ والقصر من عنان كل متطاول على الحكم، والقبض من شكائمه، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه. من ترك المجاملة فيه، والمحاباة لذي رحم وقربى، وولي للدولة أو مولى؛ فالحكم لله ولخليفته في أرضه، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين، والمتطاول عليه، والمباينّ للإجابة إليه، حقيق بالإذالة والنهوض؛ فليتق الله أن يستحي من أحد في حق له، ﴿والله لا يستحي من الحق﴾(١).

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للمتحاكمين، ويرفع عنهم حجابه، ويفتح لهم أبوابه، ويحسن لهم انتصابه، ويقسم بينهم لحظه ولفظه، قسمة لا يحابي فيها قوياً لقوته، ولا يردي فيها ضعيفاً لضعفه؛ بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته، ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾(٢).

وأمره أن ينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع، وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الأحكام، ويستشف أحوالهم استشفافاً شافياً، ويتعرف دخائلهم تعرفاً كافياً، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم في سرهم وجهرهم، والجلي والخفي من أمورهم، فمن وجده منهم في العدالة والأمانة، والنزاهة والصيانة، وتحري الصدق، والشهادة بالحق، على الشيمة الحسنى، والطريقة المثلى (أبقاه)، وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى؛ وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله، ليكون في الأمرين على ما يحد له ويمثله، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام، وإليها يرجع الحكام، والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيء بالإحكام؛ قال الله تقدست أسماؤه: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾(٣). وقال تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾(٤).

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام والوصايا

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الأحزاب»، الآية ٥٣.
(٢) القرآن الكريم، «سورة آل عمران»، الآية ٣٠.
(٣) القرآن الكريم، «سورة النساء»، الآية ١٣٥.
(٤) القرآن الكريم، «سورة الفرقان»، الآية ٧٢.

وأولي الخلل في عقولهم، والعجز عن القيام بأموالهم؛ حتى يجوز أمرها على ما يرضي الله ووليه من حياطتها، وصيانتها من الأمناء عليها، وحفظهم لها، ولفظهم لما يحرم ولا يحل أكله منها؛ فيتبوأ عند الله بعداً ومقتاً، آكل الحرام والموكل له سحتاً؛ قال الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا﴾(١).

وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقومة عليها، والخطباء بها والمؤذنين فيها، وسائر المتصرفين في مصالحها، مشارفة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله، من تطهير ساحتها وأفنيتها، والاستبدال بما تبذل من حصرها في أحيانها، وعمارتها بالمصابيح في أوقاتها، والإنذار بالصلوات في ساعاتها، وإقامتها لأوقاتها، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها، مع المحافظة على رسومها وحدودها، من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾(٢).

وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة، بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس، ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس؛ إذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع، ويبتاع الرقيق، وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق؛ فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحة للدين، وضرر على المسلمين، يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين.

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التي لا يمكنه أن يشاهدها، بأفضل وأعلم وأرشد وأعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين في استعماله. قال الله عز وجل: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ (٣).

هذا ما عهد أمير المؤمنين فأوف بعهده، تهتد بهديه، وترشد برشده، وهذا أول إمرة أمرها لك فاعمل بها، وحاسب نفسك قبل حسابها؛ ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون﴾(٤).

وكتب في يوم الأحد لسبع ليالٍ بقين من صفر سنة ٣٨٩ هـ.

---

(١) القرآن الكريم، «سورة النساء»، الآية ١٠.
(٢) القرآن الكريم، «سورة النساء»، الآية ١٠٣.
(٣) القرآن الكريم، «سورة الأحزاب»، الآية ٧٢.
(٤) القرآن الكريم، «سورة النحل»، الآية ١١١.

وقفيّة الجامع الازهر ودار الحكمة

وهذا مرسوم وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ودار الحكمة.

هذا كتاب أشهد قاضي القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقي على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود، في مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر في شهر رمضان سنة أربعمائة، أشهرهم وهو يومئذ قاضي عبد الله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين، من بلاد الشرق والغرب، بمحضر رجل متكلم، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة، التي يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الازهر بالقاهرة المحروسة، والجامع براشدة، والجامع بالمقس، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة، مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم؛ ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجري ذكرها؛ فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، الذي كله بفسطاط مصر، ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التي علوها والمخزنين الذين ذلك كله بفسطاط مصر بالراية، في جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق في الموضع المعروف بحمام الغار، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التي بفسطاط مصر بالراية أيضاً بالموضع المعروف بحمام الغار، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسي، بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفعاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجاري مياهه وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه؛ وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتلة بتلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات، حتى يرث الله الأرض والسموات، على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي إليه ولايتها ويرجع إليه أمرها، بعد مراقبة الله

واجتلاب ما يوفر منفعتها، من إشهارها عند ذوي الرغبة في إجارة أمثالها، فيتبرأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً، فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الإشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع، يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مضفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراضها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار، ومن ذلك لثمن عود هندي للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر ديناراً، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلي سبعة دنانير، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة خمسة دنانير، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلاً بالرطل الفلفلي دينار واحد، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلي نصف دينار، ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار، ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً، ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتي مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعني الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف، منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار في كل شهر من شهور السنة، والمؤذنون والقومة، لكل رجل منهم ديناران في كل شهر، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع في كل سنة أربعة وعشرون ديناراً، ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه في هذا الجامع في سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسي بقر للمصنع الذي لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار، ومن ذلك

للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسي البقر المذكورين في السنة سبعة دنانير، ومن ذلك لأجرة متولي العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجري مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع إثنا عشر ديناراً. وإلى هذا انقضى حديث الجامع الأزهر وأخذ في ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلاً فضة، فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلاً، ومنها لجامع راشدة تنور وإثنا عشر قنديلاً، وشرط أن تعلق في شهر رمضان وتعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به، وشرط شروطاً كثيرة في الأوقاف منها أنه إذا فضل شيء اجتمع يشتري به ملك فإن عاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به، وأشياء كثيرة؛ وحبس فيه أيضاً عدة آدر وقياسر لا فائدة من ذكرها فإنها. مما خربت بمصر.

صلاحيات داعي الدعاة ومهامه

وفيما يلي رسوم الحاكم بأمر الله بتعيين «داعي الدعاة» وتحديد مهامه وشرح صلاحياته.

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس، والمتعالي عن أن تدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالإيناس، الذي اختار الإسلام فأظهره وعظمه، واستخلص الإيمان فأعزه وأكرمه؛ وأوجب بهما الحجة على الخلائق، وهداهم بأنوارهما إلى أقصر الطرائق، وحاطهما بأوليائه الراشدين شموس الحقائق؛ الذين نصبهم في أرضه أعلاماً، وجعلهم بين عباده حكاماً؛ فقال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1].

يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته وخصه بلطائف حكمته، وأقامه دليلاً على مناهج هدايته، وداعياً إلى سبيل رحمته، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذي ابتعثه رحمة للعالمين، فأوضح معالم الدين، وشرع ظواهره للمسلمين؛ وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين، على بن أبي طالب أمير المؤمنين؛ وفوض إليه هداية المستجيبين والتأليف بين قلوب المؤمنين؛ ففجر ينابيع الرشاد، وغور ضلالات الإلحاد، وقاتل على التأويل كما قاتل الرسول على التنزيل، حتى أنار وأوضح السبل، وحسر نقاب البيان، وأطلع شمس البرهان، صلى الله عليهما، وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان، وأعلام الإيمان، وخلفاء الرحمن، وسلم عليهم ما تعاقب الملوان وترادف الجديدان.

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الأنبياء»، الآية ٧٣.

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة، وفوض إليه من التوقيف على حدود الـدين، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ـ يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه؛ وتغذية أفهامهم بلبانها، وإرهاف عقولهم ببيانها؛ وتهذيب أفكارهم بلطائفها، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها، وتوقيفهم من علومها على ما يجلب لهم سبل الرضوان، ويفضي بهم إلى روح الجنان وريح الحنان، والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان ـ ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بنا شيء في حجرها، مغتذ بدرها سار في نورها، عالم بسرائرها المدفونة، وغوامضها المكنونة؛ موفـراً على ذلـك اختياره، وقاصية انتقاده؛ حتى أداه الاجتهاد إليك ووقفه الارتياد عليك، فأسندها منك إلى كفئها وكافيها، ومدرهها المبرز فيها، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية، ودقائقها المطوية؛ ثقة بوثاقة دينك، وصحـة يقينك، وشهود هديك وهداك، وفضل سيرتك في كل ما ولاك، ومحض إخلاصك، وقديم اختصاصك؛ وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والحملان، والتنويه ومضاعفة الإحسان.

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى، عادلاً عن الهوى، سالكاً سبيل الهدى؛ فإن التقوى أحصن الجنن، وأزين الزين، و ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾(١). فإن الله تعالى يقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾(٢). وحض على ذلك فقال سبحانه: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾(٣).

وخذ العهد على كل مستجيب راغب، وشد العقد على كل منقاد ظاهر، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ويصح عندك عفافه ودينه، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾(٤) ويقول جل من قائل: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾(٥). وكف عن كافة أهل الخلاف والعناد، وجادلهم باللطف والسداد، وأقبل منهم من أقبل إليك بالطوع والانقياد، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك وإن حملتك

---

(١) القرآن الكريم، «سورة النحل»، الآية ١٢٥.
(٢) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية ٢٦٩.
(٣) القرآن الكريم، «سورة فصلت»، الآية ٣٣.
(٤) القرآن الكريم، «سورة الإسراء»، الآية ٣٤.
(٥) القرآن الكريم، «سورة الفتح»، الآية ١٠.

على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة؛ فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً إليه بإذنه، محمد (ص) «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين».

ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع، ولا تلق الحب إلا في مزرعة لا تكدى على الزارع، وتوخ لغرسك أجل المغارس، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين؛ وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات، إلى نور البراهين والآيات، واتل عليهم مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات، في قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة؛ وصن أسرار الحكم إلا عن أهـلها، ولا تبذلها إلا لمستحقها، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله، ولا تستقل أفهامهم بتقبله؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ودل على اتصال المثل بالمثول، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس والظواهر أرواحها، وأنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح، ولا قوام للأرواح في هذه الدار إلا بالأشباح، ولو افترقا لفسد النظام، وانتسخ الإيجاد بالإعدام، واقتصر من البيان على ما يحرس في النفوس صور الإيمان ويصون المستضعفين من الافتتـان؛ وانههم عن الإثم ظاهره وباطنه، وكامنه وعالنه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وذروا ظاهر الإثـم وباطنه﴾(١).

واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنـواره، ودليلا تقتفي آثاره، واتله متبصراً، ورده متذكراً، وتأمله متفكراً، وتدبر غوامض معانيه، وانشر ما طوي من الحكم فيه؛ وتصرف مع ما حلله وحرمه، ونقضه وأبرمه، فقد فصله الله وأحكمه، واجعل شرعه القويم الذي خص به ذوي الألباب، وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب، سبباً تتبع جادته، وتبلغ في الاحتجاج محجته، وتمسك بظاهره وتأويله ومثله، ولا تعدل عن منهجه وسبله؛ واضمم نشر المؤمنين، واجمع شمل المستجيبين وأرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين، وسوِّ بينهم في الوعظ والإرشاد، والله تعالى يقول في بيته الحرام: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾(٢) وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول، وما يظهر لك من جودة المحصول؛ ودرجهم بالعلم، ووفِّ المؤمن حقه من الاحترام ولا تعدم الجاهل عندك قولاً سلاماً كما علم رب السلام، وتوخ رعاية المؤمنين، وحماية المعاهدين، وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين، وألن لهم جانبك واحن عليهم والطف، وابسط لهم وجهك وأقبل إليهم واعطف، فقد سمعت قول

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الأنعام»، الآية ١٢٠.
(٢) القرآن الكريم، «سورة الحج»، الآية ٢٥.

الله تعالى لسيد المرسلين ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[١]، ولا تفسح لأحد منهم في التطاول بالدين، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميين، وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين، وإذا ألبس عليك أمر وأشكل، وصعب لديك مرام وأعضل، فأنهه إلى حضرة الإمامة متبعاً قول الله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [٢]، وقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ [٣]. ليخرج إليك من بصائر توقيفها، ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة، ويذهب (بك) في لاحب الطريقة، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والنجوى والأخماس والقربات وما يجري هذا المجرى، وتتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه، واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه، وتبرأ ذممهم عند الله منه، واستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته، وتسكن فيه إلى وفور صناعته؛ واعهد إليهم كما عهد إليك، وخذ عليهم كما أخذ عليك، واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته، واستخدم كاتباً ديناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً، حقيقاً بالإطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها، نقياً حصيفاً لطيفاً، ينزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره متبصراً، وراجعه متدبراً، وبه الوصايا تهدي وتسدد، وتوفق وترشد، واستعن بالله يمدك بمعونته، ويدم حظك من هدايته، إن شاء الله تعالى.

الدعوة الاسماعيلية في أواخر عهد الحاكم بأمر الله

ظلّت الدعوة الإسماعيلية المرتبطة مباشرة بالخليفة والإمام الحاكم بأمر الله على وضعها كما كانت منذ نشوئها دون تغيير أو تبديل في الجوهر.. ويمكن القول إنها كانت على الشكل التالي:

أولاً ـ صقلية: من المؤكد أن الأسرة الكلبية «الفاطمية» المعروفة بأنها تحكم جزيرة صقلية ظلّت على ارتباطها وطاعتها للدولة الفاطمية

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الشعراء»، الآية ٢١٥.
(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النحل»، الآية ٤٣.
(٣) **القرآن الكريم**، «سورة النساء»، الآية ٥٩.

سياسياً، وعقائدياً، وذلك رغم الأحداث المتلاحقة، والظروف القاسية. فلم يفكر أحد من هذه الأسرة التخلي ولو قيد أنملة عن الوفاء والإخلاص للدولة، وللإمام الخليفة.

ثانياً ـ اليمن: في تلك الفترة الصاخبة، والدعوة الإسماعيلية راقدة رقاد أهل الكهف، كانت هناك تحركات سرية تشير إلى حدث كبير سينبثق من قلب اليمن ليعيد الإسماعيليين إلى كرسي الحكم لعموم اليمن.

ثالثاً ـ بلاد الشام: الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام، كانت في أواخر عهد الإمام الحاكم بأمر الله على غاية ما يرام، ونشاطها الدعائي كان يمارس بحرية وأمان، ولكن كل هذا تعثر خلال فترة قصيرة، وذلك عندما ظهرت بعض الدعوات الإلحادية التي حاولت فرض وجودها في قلب الدعوة، ولكن داعي الدعاة «أبو الفتح أحمد البسطامي» قاومها وتمكن من تجميدها لفترة قصيرة.

ومهما يكن من أمر فإن الدعوة ظلت ناشطة، وخاصة في مدن حلب، وحمص، وحماه، وطرابلس الشام، وفي مضارب القبائل البدوية المخيمة في ربوع نهر الفرات.

رابعاً ـ فارس والعراق: لم تتوقف الدعوة الإسماعيلية، ولا الدعاة الإسماعيليون في هذين القطرين عن العمل. فهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بثقافتهم، وتفوقهم العلمي كانوا ينتشرون في كل مكان، وعندما نعلم أن منهم الفيلسوف أحمد حميد الدين الكرماني، ووالد ابن سينا.. وغيرهم.. ... ندرك أي نجاح تحقق في عهدهم.

الحركة الأدبية والفكرية في عهد الحاكم بأمر الله

قرأنا في تاريخ الدولة الفاطمية ما خلاصته: أن عدداً لا يستهان به من العلماء، ورجال الفكر، وفدوا على القاهرة المعزية في عهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، فوجدوا فيها كل تشجيع ورعاية، وخاصة لدى خليفتها الذي فتح أبوابها للعلماء، وجعلها خلال فترة قصيرة تنتزع زعامة العالم العربي والإسلامي، وتبسط علومها، وحضارتها على البلدان الأخرى... ولا غرابة في ذلك ما دمنا نرى بعض العلماء الذين يناهضون الفاطميين عقائدياً يفدون إليها، ويتأثرون بأفكار خلفائها، ثم يعكفون على دراسة فلسفتهم، وينضوون تحت رايتهم، ويشيدون بمآثرهم.

وقد يكون أول دليل على ذلك: أن الفيلسوف الغزالي هاجم الفاطميين في مستهل حياته في كتبه: القسطاس المستقيم والمنقذ من الضلال، والمستظهري، والرد على الباطنية. ولكنه عندما هاجر إلى دمشق وأصبح في مأمن من العباسيين، وضع كتاب «إحياء علوم الدين» فظهر وكأنه أحد دعاة الفاطميين الكبار، يتأثر بآرائهم، ويتفق معهم، وخاصة في مراتب العقول، والمعالم، والمبدأ والمعالم، وعلم ما وراء الطبيعة، والمثل والممثول.

إننا عندما ندرس الحياة العقلية في العالم الإسلامي في القرن الرابع للهجرة... نرى - أن بعض الفلاسفة الذين نبغوا في ذلك العصر، وما بعده، كانوا على صلة قريبة، أو بعيدة من الأفكار الفاطمية.

فابن حوقل كان متشيعاً لهم... وقيل إنه من دعاتهم، والفارابي عندما يستعمل اصطلاحاتهم وتعابيرهم الفلسفية - القلم واللوح، فإنه يكشف عن نفسه، وكأنه تلميذ في مدرستهم، وابن سينا الذي عرف عنه أنه ينتسب إلى أسرة اسماعيلية معروفة وكان والده من علماء الإسماعيلية، وأنه شبَّ وترعرع في مدرسة إخوان الصفاء الإسماعيلية، وإن خططه، وأفكاره، وفلسفته هي من صميم الفلسفة الإسماعيلية. والمعري حكيم معرة النعمان هو من كبار دعاتهم، كما ذكرنا وأن الإمام الحاكم بأمر الله دعاه إلى القاهرة

المعزية، وتعهد أن يبني له داراً علمية لتكون مركزاً للبحوث، مضافاً إلى ذلك أنه سمح له بخراج مدينة معرة النعمان طيلة حياته. ومن الثابت أن الإمام الحاكم بأمر الله كتب إلى «جبرائيل بن بختيشوع» طالباً إليه القيام بزيارة القاهرة، فاعتذر لأسباب خاصة، وقد مرَّ أن أبا الفتح منصور بن مقشر وكان من أعلام الطب، عمل طبيباً خاصاً للإمام الحاكم بأمر الله، وبعد موته خلفه إسحق بن إبراهيم بن انسطاس وهو من أهل الذمة في مهمته.

إن كل هذا يؤكد ازدهار العلم والأدب في ذلك العصر، مما كان له أبلغ الأثر في مجرى الحياة العقلية، والعربية، والإسلامية.

أبو العلاء المعري

هو: أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد. ولد في معرة النعمان سنة ٣٦٣ هـ وتوفي فيها سنة ٤٤٩ هـ. ينتسب إلى قبيلة «تنوخ» وهي من قضاعة التي تذهب بنسبها إلى قحطان.

كان والده رئيساً، وقاضياً، وعالماً، ومن كبار دعاة الإسماعيليين «السريين» الذين ضربوا بسهم وافر في مجال الفلسفة، والعلوم. فعلى يديه تثقف ابنه أحمد، ومن معينه نهل العلوم، بالرغم من أنه أصيب منذ صغره بمرض الجدري الذي أفقده البصر.

بعد أن شبَّ ، وترعرع، وذاع صيته في كل مكان. قصد حلب، وبغداد، واللاذقية، وطرابلس الشام في سبيل الدرس، والاطلاع، ومناقشة العلماء، ولم يذهب إلى القاهرة الفاطمية «المعزية» «تقيةً» كي لا يعرّض نفسه لضغط العباسيين، والحمدانيين.

كان واسع الاطلاع على التاريخ والأخبار، ولم يفته علم من العلوم حتى الفلسفة، والنجوم، واشتهر بتوقد الذهن، وقوة الحافظة، وكان رقيق القلب، دقيق الشعور، سريع الانفعال، خبيراً بمواقع النقص عند الناس، وفوق هذا كان يعطف على الفقراء - ويحسن للمحرومين، ولم يكن فقيراً كما ذكر عنه. أهم كتبه:

سقط الزند، اللزوميات، رسالة الغفران، الأيك والغصون، رسالة الملائكة، الفصول والغايات، معجز أحمد، ذكرى حبيب، عبث الوليد. وله مؤلفات أخرى غير هذه فقدت، لأن فيها ما يكشف عن عقيدته الدينية.

لعل المعري.. كان من أتباع النظام الإسماعيلي، ولهذا رماه بعض المسلمين بالخروج والزندقة، وقد ظهر كل هذا في قصائده التي لم تدرس. وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنه كان من الدعاة الذين عملوا بسرية للدعوة الإسماعيلية، ولكنه كان شديد الحذر، والحرص والخوف من سيوف العباسيين، ولهذا فإن إشاراته الشعرية العميقة ظلّت خافية على العديد من الباحثين. ونحن عندما نتطرق إليها، فلكي نذكر بأن المعري كان إسماعيلياً عريقاً يتجلّى ذلك بقوله:

كذبَ الظّنُّ لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساءِ

وقوله:

أيها الغرُّ إن خصصت بعقلٍ فاسألنه، فكلُّ عقل نبيُّ

المعري هنا يفصح عن عقيدته. وإنه يكذب كل زعم يخالف هذه العقيدة التي ترتكز على العقل الذي هو «قائد الإنسان»، ولديه أنه ممثول «النبي» ومن بعده الإمام.

وقوله:

أثبتُّ لي خالقاً حكيماً ولست من معشرٍ نفاة

في هذا البيت إشارة إلى النظرية الفلسفية القائلة بالنفي والإثبات، وهي تدخل في علم ما وراء الطبيعة أو الإلهيات، وتعبر عن النظرية الإسماعيلية المعروفة بـ «ليس، وأيس».

وقوله:

وليس اعتقادي في خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالم

وفي هذا البيت بيان واضح، وخط عريض عن عقيدته الإسماعيلية لا تترك أي مجال للشك، وفي هذه الأبيات يعيب المعري على الآخرين مخالفتهم للعقل ، أي للنبي أو للإمام كقوله:

تستروا بأمورٍ في ديانتهم وإنما دينهم دين الزناديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرامٍ وتصديق

وقوله:

ساس الأنام شياطين مسلّطة في كل مصر من الوالين شيطان
متى يقوم إمام يستفيد لنا فتعرف العدل أجيال وعنطان

وهناك... قصيدة طويلة للمعري تخرس أفواه القائلين، وفيها أقوال مضطربة عن عقيدته وهذه القصيدة ردٌّ فيها على قصيدة الشريف «أبي إبراهيم بن موسى بن إسحق العلوي» التي يقول في مطلعها:

غير مستحسنٍ وصال الغواني بعد ستين حجة وثمان

ويقول المعري معارضاً:

علـلاني فـإن بيض الأمـاني فنيت والظلام ليس بفاني

ومنها:

وعلى الدهر من دماء الشهيديْـ ـنِ عليٍّ ونجله شاهدان
منهما في أواخر الليل فجرا نِ وفي أوليائه شفقانِ

ومنها:

يا ابن مستعرض الصفوف ببدر ومبيد الجموعِ من غطفان
أحد الخمسة الذين هم الأغرا ض من كل منطق والمعاني
والشخوص التي خلقن ضياءً قبل خلق المريخ والميزانِ
قبل أن تخلق السموات أو تُؤْ مَرُ أفلاكهن بالدوران

المعري يذكر هنا... الإمام علي بن أبي طالب بطل معركة بدر، ومبيد جموع غطفان الذي هو أحد الحدود الخمسة: محمد، وعلي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وهؤلاء الحدود المعترف بهم لدى الإسماعيلية هم ممثولون لحدود علوية هي: العقل والنفس، والجد، والفتح، والخيال.. واعتقد أن المعري في أبياته طبق نظرية المثل والممثول كما تعرفها الإسماعيلية.

بعد هذا العرض الموجز... انتقل إلى علاقة المعري بالفاطميين.. فقد ذكر التاريخ: أن الخليفة الفاطمي الإمام الحاكم بأمر الله، وجَّه دعوة للمعري للحضور إلى القاهرة ولكن سوء صحة المعري، وقفت حائلاً دون تنفيذ هذه الرغبة.. ومن المعلوم أن الإمام الحاكم بأمر الله أمر بخراج مدينة معرة النعمان إلى أبي العلاء المعري طيلة حياته.

أما علاقته بداعي دعاة الفاطميين «المؤيد في الدين، هبة الله الشيرازي» فكانت علاقة دينية ـ وسياسية تصب في حوض الفاطميين ويؤيد حقهم بامتلاك بلاد الشام. أما المناظرات، والرسائل، المتبادلة بينهما فهي تغطية للغاية الأساسية، وكل هذا جرى في «معرة النعمان» بين المؤيد في الدين والمعري.

هذا... ومما تجدر الإشارة إليه... أن الرسائل الخمس ظلَّت حقبة من الزمن طي الخفاء، وغير معروفة إلاَّ من قلة من العلماء، حتى قام المستشرق البريطاني «مارغو ليوث» فكتب عنها مقالاً سنة ١٩٠٢ م في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن، ولكن مقاله ظل ناقصاً لأنه لم يكشف النقاب عن الاسم الصحيح للشخصية العلمية الكبرى التي احتجبت وراء لقب «داعي الدعاة» «المؤيد في الدين»... ولكن هذا لم يحد من نشاط المستشرق الكبير، فعاد سنة ١٩٠٣ م فكتب مقالة ثانية في الموضوع نفسه كشف فيه هذه المرة عن الاسم كاملاً، مما اعتبره الباحثون فتحاً جديداً، ونصراً في عالم الأدب، ومنذ ذلك اليوم أصبحت هذه الرسائل. والمناظرات معروفة، ومطبوعة تتداولها الأيدي ، وتتحدث عنها الأوساط العلمية، كما تشير إلى العلاقة الوثيقة بين المعري ـ وهبة الله الشيرازي الفاطمي ـ داعي الدعاة، وكل هذا يكشف عن الناحية الغامضة في حياة المعري.

ابن الهيثم

هو: محمد بن الحسن بن الهيثم... وقيل: أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم.... اتفق المؤرخون على القول إنه من البصرة ولد ونشأ في ربوعها، ولكن حياته في شبابه لم يكتب عنها، فظلَّت غامضة أشد الغموض.. وكل ما عرف عنه أنه رحل إلى دمشق، وعاش في كنف أحد أمرائها، وإن هـذا الأمير أغدق عليه النعم والعطايا، لدرجة أن ابن الهيثم كان يقول له:

> «يكفيني قوت يومي، وتكفيني جارية، وخادم للعناية بي، فما زاد على قوت يومي إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت قهرمانك، ووكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين، فمن يشتغل بأمري وعلمي».

إن صحّت هذه الرواية فتدل على ما كان عليه هـذا العالم من الانصراف إلى العلم، وعدم الرغبة في المال خوفاً من أن يشغله عن العلم. فكان حريصاً أن يتمسك بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق وترفع عن المادة.

روى البيهقي: «أن أميراً جـاء يطلب العلم عليه... فقال له: اطلب منك مئة دينار في كل شهر... فقبل الأمير منه، وأقام ثلاثة أعوام يأخذ عنه العلم، وعندما عزم على الانصراف... قال له ابن الهيثم:

> خذ أموالك جميعها، فلا حاجة لي إليها... وأنت أحوج مني إليها في مقر

إمارتك، وإني قد جربتك... فلما تحقق عندي أن لا موقع عندك للمال في طلب العلم، بذلت مجهوداً في تعليمك، وإرشادك، واعلم أن لا أجرة، ولا رشوة، ولا هدية في إقامة الخير.. ثم ودعه وانصرف».

ظلَّ ابن الهيثم بدمشق حتى سمع به خليفة مصر الإمام الحاكم بأمر الله، وذكر أنهم نقلوا إليه قوله:

لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يصلح الأحوال، ويحصل منه النفع العام في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان، والمقصود هو إقامة سد على النيل في أسوان. وعندما سمع الحاكم قوله ازداد شوقاً إليه، وإلى الرغبة بالاستفادة من علمه. فأرسل إليه يرغبه في الوفود عليه... فاستجاب له.. وقيل إن الإمام الحاكم بأمر الله خرج بنفسه للقائه، والترحيب به... وقرَّبه وأكرمه، ثم طلب إليه أن ينظر في أصول نهر النيل، عساه ينفذ ما خطَّط له وهو في دمشق، فنظر ابن الهيثم في النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبل أسوان... وهناك رأى في طريقه آثار قدماء المصريين، فعلم أنه لا يستطيع أن يأتي من الأعمال الهندسية، ما لم يبلغ القدماء معرفته... ومن جهة ثانية درس إمكانيات الدولة المادية، فعلم أن مشروعه يعرضها إلى الإفلاس، والانهيار... وهنا أظهر عجزه، واعتذر إلى الإمام الحاكم بأمر الله بعد أن شرح له الأسباب، وهذه لعمري فضيلة أخرى سجلها التاريخ لهذا العلامة الكبير الذي خطر له رأي.. فلما كلف بتنفيذه، أبى عليه تواضعه العلمي إلَّا أن يعترف بعجزه أمام ما وجد من فن القدماء، وعدم وجود الإمكانيات اللازمة، ولو لم يكن على هذه الدرجة من التواضع، والخلق الرفيع لتمادى في مشروعه، وكلَّف الدولة ملايين الدنانير، ولاستفاد منها أيضاً، كما يفعل العلماء المستغلون الفاشلون وقد كان من المتوقع أن يغضب الإمام الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم، ولكنه حفظ له مكانته وقدَّر موقفه، وعرف ما ينطوي عليه من الخلق، والأمانة. فولَّاه بعض الدواوين، وقبل ابن الهيثم العمل ولكن خاف من بطش الحاكم كما يقولون، وحسب حساباً للحساد الذين يلاحقونه، فاصطنع الجنون والخبال، ولكن الإمام الحاكم بأمر الله تركه طليقاً، وجعل له من يخدمه، ويسهر على راحته. وقد ظلَّ معتكفاً حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ. وعندئذٍ عاد اطمئنانه إليه، واستوطن زاوية على باب الجامع الأزهر،

وأقام متنسّكاً ، وعاملاً بالتصنيف، والتعليم، والعبادة إلى أن توفي سنة ٤٣٠ هـ.

اتفق المؤرخون: على أن ابن الهيثم هو الثاني بعد الحكيم بطليموس، وكان يتلوه في العلوم الرياضية، والمعقولات، وتصانيفه أكثر من أن تحصى.

قال ابن أبي أصيبعة: كان ابن الهيثم متفوقاً في العلوم... لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه.

وقال المستشرق دي بور: نجد في القاهرة المعزية في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، أي الرابع للهجرة، رجلاً من أعظم الرياضيين، والطبيعيين في العصور الوسطى... إنه ابن الهيثم.

وسرد القفطي أسماء سبعة وستين كتاباً من تأليفه. أما ابن أصيبعة فذكر له ما يقارب من مائتي كتاب عدا رسائل كثيرة... وجميعها في الهندسة، والطبيعيات، والفلك، والحساب، والجبر، والطب، والمنطق، والأخلاق.

وقيل: إن ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة، وأنشأ علماً جديداً... يدلنا على ذلك إبطاله علم المناظر الذي وضعه اليونان، وإنشاؤه علم الضوء الحديث بالمعنى، والحدود، وبالأصول التي نراها الآن. فلئن كان «نيوتن» قد اعتبر رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر، فابن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد.

ومهما يكن من أمر... فإن المطلع على كتاب ابن الهيثم في حل شكوك أقليدس يلمس فيه دقة المؤلف في التفكير، وتعمقه في البحث، واستقلاله في الحكم، وإحاطته بالموضوع كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الأقليديسية من العلوم الرياضية، على أنها دراسة منظمة للعلاقات، وللمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير ، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات. فابن الهيثم في هذا الكتاب، يظهر، وكأنه رياضي بحث بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى، وأبلغ ما يصل إليه من حدود هذا العلم. وقد لاحظ المستشرق ديبور إهمال العلماء له فقال:

إنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة في الشرق، ولا يعرف من

تلاميذه غير واحد هو: أبو الوفاء مبشّر بن فاتن القائد المعروف بالأمير محمود الدولة، وكان من أمراء مصر، وأفاضل علمائها، وكان دائم الاشتغال بالدرس، محباً للفضائل، والاجتماع باهل العلم، والانتفاع بما يقتبسه من جهتهم، ويعتبر أيضاً أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار، والتواريخ.

وقبل أن نختم كلمتنا عن ابن الهيثم لابد من القول: بأنه يعتبر المخترع الأول لعدسة التصوير.

ابن يونس المصري

هو: أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس عبد الأعلى الصدفي المصري، وذكر أنه من أهل «صدفا» في صعيد مصر، غير أن ابن الأثير يقول في تاريخه: «اللباب في تهذيب الأنساب». إن الصدف قبيلة من حمير نزلت مصر.

ولم تذكر المراجع شيئاً عن تاريخ ميلاده، ولكن التقديرات أشارت إلى أنه ولد سنة ٣٤١ هـ... عرف أنه سليل بيت اشتهر بالعلم، وكان والده من كبار المحدثين. وقد وضع لمصر تاريخاً قيماً هو مرجع لكل باحث، كما أن جده كان من أكابر العلماء، وعندما أسس الإمام الحاكم بأمر الله «دار الحكمة» في القاهرة «المعزية» وجعله مركزاً للبحوث العربية الإسلامية أراد منه منافسة «بيت الحكمة» في بغداد العباسية. التحق ابن يونس بدار الحكمة، وأفاد من مكتبة «دار العلم» التي ألحقها الإمام الحاكم بأمر الله فيها، ومما يجب أن يذكر أن ابن الهيثم قد برز بين علمائها، وأصبح من المرموقين بين علماء الشرق والغرب، وهذه المؤسسة العلمية ظلت على ازدهارها إلى أن أغلقها بدر الجمالي سنة ٥١٦ هـ.

أقام ابن يونس مرصده الفلكي على صخرة كبيرة مسطحة في جبل المقطم في مكان يسمّى «بركة الجيش » وهناك رصد كسوفين للشمس عام ٩٧٧ و سنة ٩٧٨ م، وقد تمّ ذلك بتشجيع من الخليفة العزيز بالله الذي أمر أن يُبنى له مرصد خاص على جبل المقطم بالقرب من الفسطاط، وقد زوّده بالمعدات، والأجهزة، وقيل كان في بقعة جنوبي القاهرة على ضفة النيل الشرقية وتعرف الآن باسم «حلوان».

اشتهر بأنه صاحب «الزيج الحاكمي» وكلمة زيج مأخوذة من كلمة

«زيك» الفارسية ومعناها الجدول الفلكي الرياضي، كما أن له زيجاً يعرف باسم زيج ابن يونس، والأرقام التي أوردها في الزيجين صحيحة حتى الرقم السابع عشر، مما يدل على دقة لا مثيل لها في الحساب، ومن المعروف أن الفلكيين نقلوا عنه، واستند العلماء إليه في تقاويمهم.

ومن أجلّ أعماله أنه حسب بدقة عظيمة ميل دائرة البروج، وذلك بعد أن رصد كسوف الشمس وخسوف القمر، وهو أول من توصل إلى بعض معادلات حساب المثلثات التي تستخدم في علم الفلك، وأن الزيج الحاكمي الكبير المشار إليه كتبه ابن يونس تخليداً لذكرى الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، وقد هدف من إخراجه... أن يتحقق من إرضاء الفلكيين السابقين له، وما قرروه في الخسوف، والكسوف، واقتران الكواكب، ومولد الأهلة، ويتضمن جداول فلكية عديدة يستدل فيها على حركات الكواكب السيارة، ويبدأ بمقدمة طويلة و (٨١) فصلاً، وقد اعتبره العلماء على جانب كبير من الدقة، والاتقان، كما قرروا أنه الأساس لحساب جاذبية القمر، ولم يجمع إلى المكتبات العربية هذا الكتاب كاملاً إذ لا تزال بعض الفصول المتفرقة منه في مكتبات العالم. أما الزيج الصغير فتوجد منه نسخة فريدة في «دار الكتب» في القاهرة المعزية.

لم يكن ابن يونس يؤمن إلا بما يقتنع به عقله، وكانت فلسفته تقوم على المبادىء التالية:

١ ـ الأخذ بالمبدأ العلمي القائم على الرصد، والقياس، واتخاذ الكون، وما فيه معلماً منه تستنبط الحقائق، وإليه ترد.

٢ ـ تدعيم الإيمان عن طريق تلمس آيات الخالق المنبثة في الكون.

٣ ـ ممارسة المتع المشروعة... ويذكر ابن خلكان عن أحد المنجمين أنه صعد مرة إلى جبل المقطم، وقد وقف لكوكب الزهرة... فنزع ثوبه وعمامته، ولبس ثوباً أحمر، ومقنعة حمراء تقنّع بها، وأخرج عوداً فضرب به، والبخور بين يديه، فكان عجباً من العجائب.

ومن الجدير بالذكر: أن ابن يونس أول من اخترع «بندول» الساعة، وليس «غاليلو» ، ومعنى ذلك أنه كانت لديه فكرة سليمة عن أن زمن

ذبذبة أي بندول سهل الحركة، وتتناسب مع طوله، وقد توصل كما يقال إلى معرفة تلك الحقيقة عن طريقة التجربة.

وأخيراً: فهذا انموذج من علماء ، وفلاسفة الإسماعيليين، أو المنتسبين إليهم، أو الآخذين عنهم... فأين نحن منهم الآن؟.. لقد سبقوا عصرهم... وفكروا منذ مئات السنين بما لم نستطع أن نفكر به الآن.

حميد الدين الكرماني

فيلسوف كبير، عاش في عصر زاهر ، وحجة جليل خطَّ في صفحات الفكر أقوم البحوث، وأعمق السطور، وترك للأجيال من المؤلفات ما يمكن اعتبارها كنزاً ثميناً، وتراثاً خالداً.

يعتبره فلاسفة العالم الإسلامي أعظم عالم أنتجته المدرسة الإسماعيلية الفكرية في مختلف عهودها.

ذكره الداعي الكبير، والمؤرخ اليمني «إدريس عماد الدين» في كتابه «عيون الأخبار» فقال:

«لو أن الدعوة الإسماعيلية لم تنتج غير الكرماني، لكفاها فخراً ومجداً، ولكان ذلك كافياً .

ظهر أثره، وعظم شأنه في عهد الخليفة الفاطمي «الإمام الحاكم بأمر الله» وكان يلقب «بحجة العراقين» أي أنه كان مسؤولاً عن شؤون الدعوة في إقليمي فارس والعراق. أما في القاهرة المعزيَّة، فكانت مرتبته «حجة جزيرة» ثم عين بعد ذلك مديراً لدار الحكمة في القاهرة،

وفد على القاهرة سنة ٤٠٨ هـ. بناءً على طلب «الصادق المأمون» «ختكين الضيف» داعي دعاة الدولة الفاطمية في عهد الإمام الحاكم بأمر الله، وذلك عندما حمي وطيس المعارك الدينية، وقامت الدعوات الجديدة، وراج سوق البدع التي استهدفت الغلو بأشخاص الأئمة، والانحراف عن واقع الدعوة الفاطمية ، فألقى الدروس، والمحاضرات في دار الحكمة، ووضع كثيراً من البحوث، والكتب ردّ فيها على المنحرفين، والخارجين على نظام الدعوة الأساسي.

أشهر كتبه «راحة العقل» في الفلسفة الماورائية، والإلهيات، وترتيب العقول، وهذا الكتاب المغلق العميق اعتبر من أقوم الكتب الفلسفية

الإسلامية، وله كتاب «الرياض» وقد جعله الكرماني حكماً بين ثلاثة فلاسفة إسماعيليين، اختلفوا في بعض النظريات، والاجتهادات وهم: النسفي أو النخشبي، والسجستاني أبو يعقوب، والرازي أبو حاتم. وله رسالة «الأقوال الذهبية» في الرد على الطبيب المتفلسف «أبي بكر الرازي» وفيه يأخذ أيضاً على أبي حاتم الرازي تقصيره في الرد عليه بكتابه «أعلام النبوة». أما كتبه الأخرى فقد عرف منها ما يقرب من الثلاثين كتاباً، وكلها تمتاز بقوة التعبير، والعمق، والواقعية.

عبد الله بن علي العلوي القاهري

أحد الدعاة الكبار الذين عاصروا الإمام الحاكم بأمر الله. هو من مدينة «تاهرت» المغربية، وينسب إلى «الحسن المثنّى».

لهذا الداعي العديد من المؤلفات المذكورة في المصادر الإسماعيلية، ولكن يبدو أنها فقدت كما فقد التراث الإسماعيلي.

حياته غامضة، وكل ما عرف عنه أنه هاجر من المغرب، والتحق بالقاهرة حيث عهد إليه القيام بالدعاية، وهذه المرتبة لا يصل إليها إلَّا من كان على جانب كبير من الثقافة. وتذكر المراجع بأن الإمام الحاكم بأمر الله أرسله إلى «محمود الغزنوي» وحمله رسالة يدعوه فيها إلى تخفيف الضغط عن الإسماعيليين الموجودين في مملكته، وعندما سلَّم الرسالة إليه أظهر القسوة والشدة وهدَّد باستعمال العنف، مما حمل التاهرتي على تركه، والذهاب إلى قرية «بست» فأرسل محمود الغزنوي إلى خليفة بغداد العباسي يطلعه فيه ويذكر له: أن الداعي التاهرتي جاء إلى مملكته بقصد إفساد الرعية، ودعوتها إلى الثورة ضد الخلافة العباسية، فأرسل العباسي إليه كتيبة من الجند قبضت عليه، وجاءت به إلى بغداد حيث أعدم، وكان ذلك سنة ٤٠٠ هـ.

عبد الله بن الحسين والد ابن سينا

هو: عبد الله بن الحسين.. ومن المؤسف أن التاريخ أغفل القسم الأكبر من سيرته، فلم يذكر لنا تاريخ ولادته أو مكانها، كما لم يتطرق إلى موطنه، وأسرته، وعهد طفولته وشبابه.. ومن الواضح أنه

لم يحدد، أو يؤكد فيما إذا كان فارسي الأصل، أو عربي الجنسية، وكل هذا نراه جديراً بالبحث والاستقصاء، ومن الأهمية بمكان، بحيث يقرب إلى أذهاننا الحقيقة التي ننشدها عن ابن سينا الابن، وعن جنسيته، وعقيدته، وتأثير ذلك في حياته، وتفكيره، ونحن الذين نعلق على هذا أهمية كبرى،.. نرى من واجبنا أن نؤكد:

بأن عبد الله بن الحسين، لم يكن فارسياً، ونرفض كل قول ينحو هذا المنحى، ففي تاريخ حياة ولده ابن سينا الذي نصَّه على تلميذه « الجوزجاني» إذا صحَّ هذا النصُّ...، وفي غيره من المصادر، لم يذكر لنا، ولا مرة اسم أحد من أقربائه، أو من أسرته، أو من قومه، كما لم يتطرق إلى ذكر مسقط رأسه الأول. وفي اعتقادي لو أنه كان فارسياً لكان على الأقل لجأ إلى أهله، ووطنه، عندما عصفت به العواصف، وتألبت عليه القوى، ولا أخال ابن سينا من الجهل، والغباء لدرجة إغفال ذكر وطنه، وقومه، وأهله. فكل ما ذكره التاريخ عن عبد الله بن الحسين «والد ابن سينا» أنه كان ممن استجاب لدعوة الفاطميين في مصر، وإنه لجأ إلى إحدى قرى «بخارى» قادماً من «بلخ» في خراسان، وأن الأسباب لم تذكر بالتفصيل، ولا بالتلميح.، وقد حصل هذا قبل ولادة ابن سينا، ومن المعروف أن «بلخ» كانت آنئذٍ تحت سلطة «الأمير ناصر الدين الغزنوي»! ومعنى هذا الانتقال، أنه جاء فراراً من الظلم، والملاحقة، أو احتياطاً ، فبلاد السامانيين كانت أكثر أمناً، واستقراراً، فهي البلد الذي فتح ملوكه أبوابهم للعلماء وخاصة للإسماعيليين الذين كانت تربطهم بالأسرة الملكية علاقات وديّة سابقة.

هذا، ومن الجلي الواضح أن أكثر دعاة الإسماعيلية من خراسان في تلك الفترة هاجروا إلى بلاد ما وراء النهر هرباً من سيوف الغزنويين، وأنصارهم التي كانت مسلطة على رقابهم، وليس من شك بأن عبد الله بن الحسين كان من جملتهم.

إذن.. فانتقاله إلى بلاد السامانيين لم يكن سببه إلّا التهديد، والظلم، والإرهاب، أو رغبة في الركون إلى بلدٍ يحكمه حكام يملكون الضمير، والوجدان، عرفوا بالعدل، والانفتاح، ورعاية رجال الفكر، والمظلومين، من أية فئة كانوا.. وهذه المعاملة، والحرية، لم تكن خاصة بالإسماعيليين وحدهم كما ذكرنا، بل كانت عامة.. يدلنا على

ذلك لجوء «الأمير أبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني» الشاعر الكبير، ولجوء ثلاثة من أمراء العباسيين المعارضين للحكم، والذين فروا من بغداد تحت جنح الظلام، وكان أحدهم من ذرية المهدي العباسي، والثاني من ذرية المستكفي، والثالث من نسل الواثق.

إنّ عبد الله بن الحسين، والد ابن سينا، لجأ إلى بخارى في عهد «نوح بن نصر الساماني»، فأقام في إحدى القرى التابعة لها، حيث عهد إليه بأحد الأعمال الإدارية، أو ما يسمَّى «التصرف» وهو عمل إداري تابع عادة للدولة... وهناك تزوّج ، وولد له ولدان. وأخيراً: انتقل إلى «كركانج» حيث كان يقيم فيها رفيقه الداعي الإسماعيلي «أبو عبد الله الناتلي» وحينئذٍ كان لابن سينا من العمر /٢١/ عاماً. ولم تمضِ عليه سوى فترة قصيرة حتى مات، وكانت وفاته سنة ٣٩٢ هـ. ودفن فيها.

من الجدير بالذكر... إن عبد الله بن الحسين، ترك ولداً ثانياً أصغر من ابن سينا ـ وقد ظلَّ طيلة حياته في عهدة شقيقه الوحيد الأكبر. أما والدته فلم يذكر التاريخ شيئاً عنها ، ولا ندري فيما إذا كانت قد ماتت قبل وفاة زوجها، أو أنها ظلت على قيد الحياة في عهدة ولدها ابن سينا.

ابن سينا

اسمه: حسين.. والده: عبد الله بن الحسين بن علي.. وأمه: سارة... من قرية «أفشنه» وهي إحدى قرى بخارى.

ظهرت عليه علائم الذكاء، والنبوغ، في سن مبكرة، مما جعل والده يوليه اهتمامه، ويتوفر على تعليمه، وفي تلك الأثناء كان والده يقيم في مناطق بخارى، وقد ظلَّ فيها حتى بلغ ابن سينا الثامنة عشرة، حين اشتهر أمره، وعلا شأنه، وتحدث الناس بمهارته في علم الطب. مما دعا «نوح بن منصور» الساماني إلى استدعائه لمعالجته من مرض عضال قديم. فلبَّى طلبه، وشفاه من المرض المستعصي.

في تلك الفترة انتقل والده إلى «كركانج» فذهب معه ويبدو أن سبب هذه الهجرة تعود إلى ظهور الضعف، والانهيار على الدولة السامانية، وبروز الغزنويين كقوة أخذت تتأهب للحلول مكانها، فأقام في «كركانج» مدة تقرب من العشرين عاماً بعد وفاة والده.

وأخيراً: غادرها إلى نيسابور وطوس، وهما مدن خراسان، ولكنه لم يستطب الإقامة في إحداهما، فذهب إلى جرجان، وإلى الديار الواقعة تحت نفوذ البويهيين، وكان على إحدى مقاطعاتها الأمير قابوس، ولكن قابوس مات قبل وصول ابن سينا إليه، فمضى إلى دهستان، وهناك مرض فيها مرضاً شديداً، وبعد أن تعافى عاد إلى جرجان ثانية، ثم انتقل منها إلى الري واتصل بمجد الدولة، إلى أن كان من الأسباب ما استوجب خروجه إلى قزوين، ومنها إلى همذان ، وهناك قلّده «شمس الدولة بن فخر الدولة البويهي» الوزارة، بعد أن عالجه من مرض خطير، ولكن الجند ثاروا عليه بدافع من بعض العلماء المتزمتين، وأغاروا على منزله، ونهبوها، فتوارى عن الأنظار، واختبأ في منزل أحد أتباعه، وعندما عاود المرض شمس الدولة طلبه لمعالجته، واعتذر إليه، وقلّده الوزارة من جديد.

بعد موت شمس الدولة سنة ٤١٢ هـ. تسلّم شؤون الحكم ابنه، فطلب إلى ابن سينا ـ الاستمرار في الوزارة، ولكنه رفض البقاء، وتوارى.. فاتهمه بالاتصال بعلاء الدولة أمير أصبهان، وقبض عليه ثم سجنه في قلعة «مزدجان»، وبعد أربعة أشهر أفرج عنه، فعاد إلى همذان، ثم خرج منها متنكراً إلى أصبهان حيث حظي بمقابلة علاء الدولة الذي قرّبه، وجعله مستشاره الخاص، فكان يرافقه في فتوحاته، ويؤلف له التقاويم الفلكية، والإرصاد.

ومن الجدير بالذكر أن ابن سينا كان يكره الإقامة في أرض يحكمها الغزنويون لأن حياته كانت مهددة من محمود الغزنوي، ومن الملاحظ، بل من المؤكد أنه لم يحاول أو يفكّر بالذهاب إلى بغداد، أو إلى أرض يحكمها العباسيون، وقد تحدثنا مطولاً عن محمود الغزنوي وبطشه بعلماء، وبرجال فكر عديدين.. ومن المشهور عنه أنه قبض على «البيروني» ، ثم على أستاذه «عبد الصمد الحكيم» وذلك عندما استولى على «خوارزم» فقتله بتهمة انتمائه للإسماعيلية، ولولا شفاعة بعض المقربين، لما كان نجا البيروني من سيفه، وقد شفع له بالإضافة إلى ذلك حاجة الغزنوي إلى علمه، ورغبته بالانتفاع منه.

ولد ابن سينا سنة ٣٧٠ هـ. ومات سنة ٤٢٨ هـ. فيكون قد عمّر /٥٨/عاماً، أما مكان وفاته فقيل في أصبهان، وقيل في همذان،

وهذا الأرجح، ودفن تحت السور من جانب القبة، ونقل جثمانه فيما بعد إلى موضع يعرف ب «باب كونكبد» في أصبهان.

شهد في حياته الصراع الشديد بين الأقوام الفارسية، والتركية ـ أي بين إيران وتوران فما كان في شرق جيحون وشماله خاص بالأتراك، ويدعى ما وراء النهر، وما كان في جنوبه، وغربيه فهو خرسان وخاص بإيران. ومن الملاحظ أننا لم نشعر بأي حماس أو ميل من قبل ابن سينا لأحد من الفريقين، وكل هذا له أهمية كبرى في حياة هذا الفيلسوف، بل هذا يعطينا الدليل بأن لا وجود لأية صلات عرقية أو جنسية تربطه بأي فريق من الفريقين.

ومهما يكن من أمر... فعندما يضع الباحث، أي باحث، سيرة ابن سينا القصيرة جداً أمامه، ويقرأ فيها ما تعرض له في حياته من هجرة، وتشرد، وسجن، وانزواء، ومشقات يتملكه العجب، ويتساءل كيف تسنّى لهذا العبقري، أن يؤلف كتبه، ويدوِّن أفكاره، وإنتاجه، وهو في هذه الحالة من القلق النفساني، والخوف، والرعب.

وإنه لمن الغريب جداً أن لا يحظى إلاَّ بعطف قلة من الناس، وأن يلاقي العنت والسخط من الملوك، والعلماء في ذلك العصر، وهو الإنسان المسالم الذي يحمل أفكاره المثالية، وينكر كل حقد أو شر على أي إنسان... ويكفي أنه لم يكن يملك إلاَّ قلمه، وهو السلاح الوحيد الذي اعتمده للذود عن أفكاره، ومبادئه، وحياضه.

أفي سبيل إسماعيليته التي كانت تعرض حاملها للموت آنئذٍ؟... ولكن التاريخ وكتَّاب التاريخ يزعمون أن ابن سينا لم يكن من معتنقي هذه العقيدة، بالرغم من انحداره من أبوين إسماعيليين.. إذن.. وما دام على ما ذكرناه، فلا نجد أي مبرر لهذا السخط، ولهذه العداوة تشن على الفيلسوف.

وباعتقادي، إن المصادر والكتب التي دوَّنت عن ابن سينا، والقصص التي دبَّجتها الأقلام عنه لم تعطِ صورة واضحة عن حياته، ولا أي بيان يظهر لنا فلسفته على حقيقتها. فابن سينا لم يكن يمتلك الإذن بالتصريح والإعلان عن حقيقته لأنه كان يقوم بمهمة سرية دعائية وسياسية بآن واحد، وأن الخطوة التي نالها، والمناصب التي تولاها وخاصة لدى ملوك بني بويه، كانت تتم وفق خطة مرسومة، فهؤلاء

الملوك كانوا شيعة زيديين، ولكنهم كانوا يميلون ويعتقدون بأفضلية الفاطميين أصحاب المغرب ومصر، ومن برنامجهم اعتمادهم كخلفاء بدل العباسيين أصحاب بغداد، وقد تناسى المؤرخون هذه الحقائق أو خفيت عليهم.

إن تلك الخطوات، والرحلات، والتنقلات، والتطلعات التي قام بها ابن سينا جديرة بالتأمل والدراسة، وعند استعراضها، وسبر أغوارها، لا نجد ما يشابهها إلّا ـ أساليب بعض الدعاة الإسماعيليين الآخرين الذين عملوا في تلك البلدان، تحت ستار السرية الكثيفة، فتمكنوا من تنفيذ خططهم، وأهدافهم، ورسائلهم في جو من الأمن والحماية، ومن جهة أخرى فإن قوانين الدعوة الإسماعيلية تجيز لدعاتها في الأقاليم البعيدة، والقريبة التنصل منها عند الضرورة، واتخاذ المواقف العدائية، والبراءة منها، عندما تكفهر الأجواء، ويتعرض حامل الرسالة إلى التهديد.. ففي هذه الحالة تكون الحالة المذكورة عملية إنقاذ... ولعلّ هذا ما وقع لابن سينا.

إن ابن سينا الفيلسوف الإنسان، والعبقري الملهم، لا يمكن أن يخرج أو يتنكر لعقيدة أو لنظام فكري رضع لبانه صغيراً على يد والده... والده البار الذي تولّى تربيته وتعليمه، والإشراف عليه... والده الذي أعده، ولقنه مبادىء عقيدته الفلسفية التي كان يبشر بها، ويحمل لواءها. أما إذا كان ابن سينا قد اتخذ مبدأ التحرر، وأما إذا كانت آفاقه قد اتسعت لدراسة القدرة على تطوير هذه الفلسفة، والتعبير عنها بطريقة أعم، وأشمل ـ وإضافة أفكار جديدة عليها.. فليس معنى هذا أنه تنكر لها أو أنكرها، أو عارضها، ولو أنه كان كما ذكروا عنه لرأيناه يتصدى لها في كتبه، ورسائله، وينقدها في بحوثه، وفي ردوده، ومناقشاته.

إن أعداء الإسماعيلية في تلك العصور البعيدة، بعد أن رأوا من ابن سينا ما رأوا، وبعد أن تحققوا بأنه من المستحيل على أي عالم مجاراة هذا العبقري، أو اللحاق به، أو إطفاء شعلته التي أنارت آفاق الشرق، والغرب، عمدوا إلى تشويه اسمه، وإنكار علاقته بالإسماعيلية ـ وكأنهم لا يعلمون بأن النظام الفكري لهذه المجموعة، أنتج فلاسفة، وأعلاماً لا يقلون عن ابن سينا.

.. أما المزاعم التي أوردوها، والروايات التي تخيلوها ودونوها في الكتب، والتواريخ فليست باعتقادي إلّا فقاقيع صابون لم تلبث أن تبددت أمام النسمات. ولا أدري كيف نصدقها أو نأخذ بها، ونحن نقابل بين فلسفته، وعلومه الإلٓهية الممثلة بعالم الإبداع، وترتيب العقول، وتوحيد النفس، وما يتفرع عنها، وكل هذا ذكره الكرماني في كتابيه راحة العقل، والرياض. إذن فعندما نقول إن ابن سينا سار على نهج الفلاسفة الإسماعيليين، وعبَّ من معين إخوان الصفاء، والكرماني، والسجستاني، والرازي، وغيرهم من أعلام هذا النظام الفكري، فنكون قد سلكنا طريق الصواب، «وكل هذا قد ذكرناه وشرحناه في كتابنا «ابن سينا في مرابع إخوان الصفاء».

إن كتب ابن سينا ومؤلفاته تسرَّبت إلى أيدي العامة، ولم تحصر في مكان معين كبقية كتب الإسماعيلية، وقد انتشرت في كل مكان لأسباب عديدة، ولظروف قاسية، كان لابد لابن سينا من المرور فيها. فالدعوة الإسماعيلية في فارس لم يكن لها من القوة السياسية ما يساعدها على حصر هذه الكتب، أو صيانتها كما فعلت بالنسبة للتراث الخاص بالدعاة الآخرين، ولعلَّ ظروفاً أخرى طارئة حدثت في فارس، وقد مكَّن هذا الانتشار العابثين، والحاقدين على التلاعب، والتحريف، والدس، حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه.

لقد كان ابن سينا مجاهداً في سبيل عقيدة آمن بها، ومبدأ فاءَ إلى ظله، وكان قدومه على هذه المدرسة الفكرية بشكل مختلف، وبأسلوب جديد، وبسرية مطلقة.. كان يحمل لواء التحرر، والتطور، وإيصال هذه الفلسفة إلى مرتبة العالمية.

إنني لم أستطع حتى الآن تصفية الحسابات، أو تصنيف ابن سينا، أو إيجاد ندٍ أو شبيه له بين العباقرة السابقين، واللاحقين، وقد يخونني الحظ إذا فعلت. إن ابن سينا لم يستطع أحد اللحاق به في مجال الطب، أو الفلسفة، أو الكيمياء، أو علم الفلك، أو الرسم، أو الأدب، أو الشعر، أو الموسيقى، وأرى أن هذا الإنسان الملهم كان فلتة من فلتات الزمن.. وسيبقى كذلك.

ومن المؤكد أن ابن سينا لم يكن نبياً، ولا رسولاً، ولكني لم أجد من يساويه، أو يجاريه، وتحضرني تساؤلات عديدة، وأنا في هذا الصدد.... وقد يكون في طرحها بعض الفوائد.

لماذا لم يذهب ابن سينا إلى مصر الفاطمية.. وكانت في ذلك العهد كعبة ـ العلماء، وموئل العباقرة، وموطن رجال الفكر.. فهناك دار الحكمة، وهي أكبر جامعة للتدريس يتعهدها أساطين العلماء الذين وفدوا من كل مكان للافادة، وللاستفادة. فالإمام الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي عرف والد ابن سينا، وخبر أخلاصه، وخدماته، لا أخاله يتورع عن تهيئة الأسباب، وتوفير العيش الكريم لابن داعيه الأكبر، لا سيما، ونحن نراه يشجع القائمين على دار حكمته، ويفتح أبوابها للعلماء، ويمنحهم المساعدات، والهدايا. فهذا الحسن بن الهيثم، وهذا ابن يونس، وهذا الكرماني، وهذه النخبة من علماء العالم العربي، وجميعهم قد أخذوا يتوافدون إلى القاهرة للدراسة وللاطلاع. فبعد هذا لابد من التساؤل والقول:

لماذا لم يذهب ابن سينا إلى مصر، ويعيش في ظل تلك الدولة، ويكون على الأقل بمنجاة من التهديد، والقتل، والملاحقة؟

ومن الممكن أنّ ابن سينا لم يعلن عن هذه الرغبة لأسباب عديدة أهمها:

اضطلاعه بمهمة سرية في بلاد فارس، علماً بأنه كان محظوراً عليه الإعلان عنها أو حتى الانتماء للدولة الفاطمية، وأنه كان ملتزماً بأوامر، وقوانين لا تجيز له حتى الانتقال من مكان إلى آخر، إلّا بإذن من رئيس دعوته، ولهذا آثر البقاء في فارس، وتحمَّل الأذى، والمصاعب دون أن يترك سبيلاً للانتقاد أو اللوم. ولعل اضطراب الأوضاع العامة في مصر، وحدوث الفساد في بنية الدعوة الداخلية، هو الذي يمنعه من الذهاب، أو التورط، أو الاشتراك في هذا النزاع.

إن النظام الفكري الإسماعيلي أعطى الدعاة المنتسبين إليه وخاصة الحجج الكبار حق الحرية الفكرية، وتجاوز الحدود والقيود التي تكبل الفكر، وتعيقه عن الانطلاق، ـ وأفسح لهم مجال الاجتهاد، والعمل في حرية مطلقة للتعبير عن فلسفتهم بأية طريقة على شرط الإبقاء على الجوهر، والأصل، وصيانته من كل عبث، وكل هذا نراه ماثلاً في المؤلفات التي تركها هؤلاء الدعاة.. والتي سنأتي على ذكرها:

لقد كان ابن سينا من هذه الفئة المتحررة التي تضم مجموعة من المفكرين الأكاديميين. الذين اتخذوا لأنفسهم مبدأ عاماً يمكنهم من

الانطلاق في مجال الحرية الفكرية، وتحطيم القيود والحواجز، وتجاوز الالتزام للوصول إلى أرجاء العالمية الفسيح، ولكن بالرغم من كل هذا فإننا حين نقرأ أفكار ابن سينا المدونة على صفحات الكتب، فإننانشمُّ فيها رائحة رسائل إخوان الصفاء وراحة العقل الكرماني، والتراث الإسماعيلي الفلسفي الآخر.

لقد وضح أن مؤلفات ابن سينا ضاع الكثير منها، كما حُرِّف بعضها، وأدخل عليها آراء مخالفة، ومغايرة لعقيدته قصداً وعمداً... وإني حيال هذا الوضع أتساءل هل استطعنا ـ تنقيتها، أو تجرأنا على الاعتراف بمدى تأثيرها، أو موافقتها، أو تنقية الجواهر من الحصى، أو على الأقل مقابلة هذه الآراء بآراء الفلاسفة الذين عاصروه؟

لا شك أن الجواب سيكون سلبياً. فالتراث الإسماعيلي الفلسفي لم يكن معروفاً أو متداولاً قبل ثلاثين عاماً، وقبل هذا الوقت كان قابعاً في كهوف «التقيَّة» المطلقة، أو محظوراً نشره أو إظهاره، ولعل هذا كان من الأسباب التي وقفت حائلاً بين العلماء، والباحثين من جهة، وبين فكرة المقارنة مع الفلسفات التي سبقتها أو عاصرتها.

إن النظام الفكري الإسماعيلي أخرج عدداً كبيراً من الفلاسفة، وهؤلاء لم يكونوا معروفين إلّا لدى قلة من الباحثين. فحياتهم، ونشاطاتهم، ومؤلفاتهم كانت وقفاً على قلة من الناس، لذلك فإن أية مقابلة، أو محاولة لمعرفة العلاقات الفكرية، ومؤثراتها بالنسبة لابن سينا ظلَّت مقتصرة على ذوي الاختصاص، ومع كل أسف، فإن بعضهم لم يتجرأ على قول الحقيقة.

في تاريخ الإسماعيلية، عدد من كبار الدعاة الإسماعيليين الذين عملوا بالسياسة إلى جانب عملهم الفكري... وهكذا.. فقد اضطلعوا بالمهتمين، وحملوا اللوائين معاً، فكانوا متفوقين في المجالين.. ولكن... مع كل أسف فإن بعض المتزمتين لا يزالون يسيرون على خطى الأولين، بإنكار انتساب هؤلاء الفلاسفة إلى الإسماعيلية... ويدخل في عدادهم... ابن سينا، والمؤيد في الدين، ونصير الدين الطوسي وغيرهم.

وإنه لمن المؤسف حقاً أن نبقى حيث نحن دون أن نحاول كسر الجمود والتزمت والوصول إلى حد استيعاب فلسفة هؤلاء الأعلام.

إن تفهم الرموز، والأسرار، والتأويل الخاص بالفلسفة الإسماعيلية ستبقى الشغل الشاغل لنا، ولغيرنا من المهتمين، وقد لا نصل إلى الحقيقة إذا لم نخلع عن أنفسنا ما ورثناه من أقوال الأولين، والخروج من دائرتهم الضيقة.

ومهما يكن من أمر.. فإنني لا أدري لماذا يقف الباحثون هذا الموقف المضطرب من ابن سينا، وماذا يضرهم إذا ما قلنا إنه من الشجرة الإسماعيلية، أفلم يكن والده إسماعيلياً وداعياً كبيراً؟ ثم أليس هذا أفضل من القول إنه فارسي أو روسي، أو تركي، أو أفغاني؟

لقد أغفل التاريخ حقيقة هذا العبقري الملهم، ولم يذكر لنا إلَّا القليل القليل من قصصه، وأخباره، وسيرة حياة والده، وشقيقه الأصغر الذي تربَّى في كنفه، وظلَّ مرافقاً له طيلة حياته.

فنحن لم نصدق أن والد ابن سينا لم يترك أية مؤلفات، وهكذا بالنسبة لولده الثاني، ونرفض كل قول يرمي إلى إبعاده عن العروبة جنساً، وعرقاً، وعن الإسماعيلية فكرة وعقيدة، كما لم نصدق بأن ابن سينا لم يتزوج، ولم ينجب أولاداً.

أما القول عنه: بأنه كان خبيثاً في باطنه، وزنديقاً كافراً... فلا نرد عليه، ولكننا لا نؤمن بأن الخبث، والزندقة، والكفر تعيش في ضمير عبقري.. كابن سينا الذي عرف مراتب الوجود، وعبد المُبْدِع الواحد الأحد، ولم ينقطع يوماً عن الصلاة له، والاستعانة به.

إن ابن سينا نصَّ سيرته على تلميذه الجوزجاني.. فجاء البيهقي ونقلها في «تتمة صوان الحكمة» والقفطي في «أخبار الحكماء»، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء، وعنهم نقل المؤرخون، وأصحاب كتب التراجم، ومؤلفو كتب التاريخ، ولا نزال نحن أيضاً ننقل ما كتبه هؤلاء حتى يومنا هذا. مضافاً إلى ذلك أن قائمة عامة بمؤلفات ابن سينا، وضعت في القرن الحادي عشر، وفيها أضيفت أسماء كتب جديدة. ومن الغريب أنه عثر على كتب أخرى لابن سينا لم تذكر في هذه القائمة.. وهذا ما حدا بالأب جورج شحادة القنواتي إلى تصنيف قائمة جديدة ضمنها المؤلفات المكتشفة حديثاً، وهكذا فعل «عثمان أرخن» و «المهدوي» الإيراني، وبالرغم من كل هذا، فإننا لا

نزال نعثر في كل يوم على كتب جديدة لابن سينا... إذن... فإن ما أورده الجوزجاني كان ناقصاً، ومشكوكاً بصحته، ويعطي الدليل على أنه من نسج الخيال.

ومهما قلنا، ومدحنا، ودافعنا فإننا لا نفي ابن سينا حقه، وأنّى لمثلنا أن يصل إلى أبعاده، ومراميه؟ فهذا العبقري الكبير، والفيلسوف الملهم لا تعبّر عنه الكلمات ولا الصفحات، حتى ولا المجلدات.

والحقيقة فإن كل ما قلناه عنه أمس واليوم، ويقوله غيرنا ليس إلاّ قليلاً من كثير، أو نقطة من بحر واسع زاخر بالعلوم والمعارف، والحقائق التي ما زالت ، وبعد ألف عام، تفوح بالأريج، والشذا، والطيب.

كان ابن سينا غزيراً في صنعته العقلية، وفياضاً في توضيحاته، وتعليلاته، وكان يملك من حدة الذهن، وقوة الحفظ، والصبر ما يكاد يكون خارقاً وخارجاً على المألوف ومن الواضح... أن مفكرين، وفلاسفة عديدين، وشارحين للكتب الفلسفية اليونانية والفارسية، والهندية، والسريانية جاؤوا قبله في عصور الحضارة العربية، والإسلامية... ولكنهم لم يتركوا أثراً مثل الأثر الذي تركه ابن سينا في الحضارة الإسلامية، وفي الشرق والغرب.

لم يكن ابن سينا إقليمياً، ولا طائفياً، ولا متزمتاً، ولا متعصباً... بل كان إنساناً متفتحاً عالمياً، ومسلماً صالحاً، وإسماعيلياً عاقلاً يرى في الدين طريقاً لخدمة المجتمع، والتقرب، والمحبة والدعوة للحب، وللخير، وللجمال... وقد تأثر بآرائه: فخر الدين الرازي، والأشعري، والغزالي، وهكذا صدر الدين الشيرازي، وابن ميمون اليهودي، وابن العبري، والمعدني السرياني، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، فضلاً عن رهبان مسيحيين، وعبريين. ومن الجلي الواضح: أن فلسفته كانت تدرس في المعاهد الإسلامية في فترات عديدة، وخاصة في تونس، والمغرب، ومصر، ودمشق، وبغداد، وأصبهان، وشيراز. وعند هذا الحد نتوقف لنقول:

بأنه يجب أن لا ينحصر موقفنا من ابن سينا عند حد التقدير والإعجاب، بل يجب علينا أن نسير على خطواته بالتجديد،

والابتكار، والخلق بتجرد، وإنصاف، وانقطاع لخدمة الإنسانية بعيدين عن الأفكار الرجعية ، والتعصب الذميم.

لقد قدَّر الغرب ابن سينا حق قدره، ووضعه في المكان الذي استحقه، فعندما استيقظت أوروبا من سباتها في مطلع القرن الثاني عشر للميلاد رأى العلماء فيها أن مؤلفات ابن سينا جديرة بالترجمة، والتعميم في أوروبا... فترجموا له كتاب «الشفاء» على مرحلتين:

الأولى، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد. والثانية، بعد مئة عام.

ثم ترجموا له «إيساغوجي» واعتبروه خطأً من تأليف أرسطو، كما ترجموا له الطبيعيّات على مراحل. فالقسم الأول، والثاني، والسادس في علم النفس. ثم الإلهيات في جزئين وترجموا له جزءاً من النجاة والإشارات، وبعض الرسائل الصغيرة، كما ترجم له «روجيه باكون» كتاب في الكيمياء، وذلك في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد.

إن فلسفة ابن سينا لم تتقيد بزمان أو مكان، ومن الواضح أنه لم يكن معروفاً في صفوف العلماء، وحدهم فحسب بل وفي صفوف الجماهير الشعبية التي تذكر مآثره، وتنوه بمزاياه، وقدراته، وإسهامه في العلوم، والثقافة العربية التي لا تكمن فيما قدمه من أفكار، وابتكره من علوم ونظريات، وثقافة عامة فحسب، بل في أفكاره الإنسانية التي دعت إلى التقارب، والتمازج، ونبذ التعصب الديني، وإلى الحرية للجماعات، والأفراد.

لقد ثبت أن ابن سينا كان مسلماً ورعاً عاكفاً على الصلاة والعبادة الصوفية الانقطاعية أمّا، صلاته فهي تلك التي يتغنّى بها النساك في صوامعهم فتتبعها روحه طائرة إلى الملأ الأعلى، لترى عالماً غير هذا العالم... يطفح بالنور، ويخيم عليه السكون، وينبثق من جوانبه السرور. فيروي الغليل، ويشفي الألم، والظمأ، والحرمان.

لقد كان ابن سينا عارفاً بالله، يتوق إلى الوقوف على عتبة واجب الوجود، وهناك يحلِق في سماء القداسة، ثم يتحد بالأزل الأكمل لينال صفة الروحية السامية، وليشاهد ثغراً باسماً، وقلباً طافحاً بالفضيلة، والقداسة، ونفساً نفضت عنها جلابيب المادة لترتدي حلة النور الوضاءة. وللتحلّي القوة، والشجاعة، والحب، والترفع.

بديع الزمان الهمذاني

يعتبر «بديع الزمان الهمذاني»، مبتدع فن المقامة، ورائده، وهو أمر سلَّم به «الحريري» عندما قال في مقدمة مقاماته:

«وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلاَّمة همذان».

وصرَّح القلقشندي في صبح الأعشى: بأن أول من فتح باب عمل المقامات، علاَّمة الدهر، وإمام الأدب البديع الهمذاني. فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية البلاغة، وعلو الرتبة في الصنعة.

وقال الناقد اللبناني مارون عبود في كتابه عنه:

«ليس لبديع الزمان من آثار غير الرسائل، والمقامات، والديوان، وهذه كلها لو جمعت في كتاب واحد، لما بلغ حجمه حجم ديوان البحتري، ولكن الأدب ليس كالحطب ليباع بالقناطير، وهو لا يقاس بالكيلومترات كالصحارى. فهذه الآثار على صغرها، بوَّأت الرجل منزلته العليا في الأدب العربي، فكان بعيد الأثر فيه».

أما أنا، فقد يحمل قولي، الآن، على محمل التعصّب، والادّعاء بغير حجة ولا دليل، ولكن رويداً وتسفر الحقيقة عن وجهها، فهذا الأديب الكبير كان إسماعيلياً، ولد لأبوين إسماعيليين، ومصادرنا الإسماعيلية تقول: إنه يدخل في عداد الدعاة الكبار، ويعتبر من المؤلفين والفلاسفة الذين كتبوا الرسائل، والكتب في فلسفة الدعوة، ولكن هذه المؤلفات قد أصابها التلف كما أصاب غيرها.

إذن فبديع الزمان الهمذاني كان من أتباع المدرسة الإسماعيلية الفكرية، ومن العاملين في سبيل ازدهارها، ورفع منارتها.

هو: أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني.. لقبه: بديع الزمان، وكنيته: أبو الفضل ولد سنة ٣٥٨ هـ. في همذان، وقضى فيها طفولته، وفتوته حيث تلقى علومه على والده الذى كان يرأس مدرسة الدعوة الإسماعيلية في هذا الإقليم.

في سنة ٣٨٠ هـ. انتقل بديع الزمان إلى «هراة» فاتصل «بالصاحب

ابن عبَّاد» وزير مؤيد الدولة ابن ركن الدولة. ثم بأخيه فخر الدولة، وذلك في عهد الدولة البويهية.

وكان أكثر دعاة الإسماعيلية في فارس يلجأون إلى الملوك، والأمراء البويهيين، فيلاقون كل رعاية.

وفي أول لقاء مع الصاحب أعجب هذا بذكائه، وجعل له مكانة في مجلسه، وبعد إقامة غير قصيرة، غادر هَراة، ونزل جرجان حيث انضمَّ إلى الدعاة الإسماعيليين الذين كانوا يجتمعون هناك لتلقي التعليمات، والدروس من داعي الدعاة.

وفي سنة ٣٩٢ هـ. انتقل إلى نيسابور فدخلها، ووصف حالته بقوله:

«ولا حلية إلَّا الجلدة، ولا بردة إلَّا القشرة» وذلك بعد أن داهمه اللُّصوص في الطريق، وسلبوه.

وفي نيسابور اتصل بديع الزمان «ببني الميكالي» وهم من أصحاب النفوذ، كما اتصل بابن المرزبان «وبأبي الطيب الصعلوكي» وكانوا ممن استجاب للدعوة الإسماعيلية.

لم يتوقف الهمذاني عن انتهال الأدب من مناهله، كما أنه توجه إلى العلوم والفلسفة فتفوق في هذا المضمار يدلنا على ذلك ما ذكره «الثعالبي في يتيمة الدهر» عن المناظرة الفلسفية الرياضية التي جرت بين بديع الزمان الهمذاني وبين «أبي بكر الخوارزمي»، ومما تجدر الإشارة إليه أن بديع الزمان بدأ بكتابة مقاماته في نيسابور، ثم لم يلبث أن غادرها بعد ذلك إلى خراسان، وسجستان، وغزنه، وكرمان، حتى استقرَّ أخيراً في هراة، وفيها تزوج ابنة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي.

توّفي البديع سنة ٣٩٨ وقد جاوز الأربعين، ومصادر الإسماعيلية تقول بأنه مات غيلة، ولكن ابن خلّكان في وفياته والثعالبي في يتيمته ومرغليوث في دائرة المعارف الإسلامية والزركلي في أعلامه، يقولون بموته بداء السكتة وإنه أفاق في القبر وصرخ، فلما نبش القبر وجد البديع وقد قبض على لحيته بيده من هول القبر.

لم نعثر على رسالة أو مقالة للبديع تبحث في الفلسفة وفي غيرها من علوم عصره، التي كانت سائدة في معاهد ومجامع ذلك العصر، الأمر

الذي يحملنا على القول بأن الرجل قد كتب العديد من الكتب ولكنها ضيّعت كما ضيّعت الآثار الفكرية الإسماعيلية، الأخرى.

مثل بديع الزمان الهمذاني كمثل: ابن سينا، والطوسي، والكرماني، بل والمتنبىء والمعري... .. وهذا ليس غريباً على المدرسة الإسماعيلية الفكرية التي أخرجت إلى عالم الفكر صفوة الأدباء والفلاسفة والعباقرة في عصور مختلفة.

أوضاع المغرب في عهد الحاكم بأمر الله

كانت أوضاع المغرب، في أواخر عهد الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، تسير في طريق مسدود وغامض «فباديس بن بلكين بن زيري الصنهاجي» بالرغم من بقائه على الولاء للفاطميين بالظاهر فإنه استأثر بكافة الصلاحيات في الحقيقة والواقع، ولم يبق للفاطميين إلَّا الاسم على العملات، والخطب التي تذكرهم في المساجد، وبعض التأييد لدى اتباعهم الذين اعتنقوا المذهب الفاطمي وكانوا «قلّة».

وقد عرف الإمام الحاكم كل هذا، ولكنه وهو في خضم الأحداث أراد الإبقاء على العلاقة مع «الزيريين» ولو شكلياً رغم علمه أن هيبة الدولة الفاطمية، ونفوذها لم يعد لهما وجود في ديار المغرب فالدولة لم تكن تتحمل الدخول في المعارك، بشأن المغرب، خاصة في ذلك الوقت. وعندما تسلَّم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله الخليفة الثامن شؤون الخلافة، أقبلت وفود عديدة من المغرب تمثل القبائل، والهيئات ذات الفعاليات والنفوذ، وكانت تحمل للخليفة الظاهر التهاني والمبايعة، ولكن ومع كل هذا فإن الاعتقاد بأن المغرب لم يعد البلد الذي يمتلكه الفاطميون، أو يحكمونه مباشرة.

أجل، كان الإمام الحاكم بأمر الله، يعرف ذلك كلّه، ولكن ما العمل والظروف غير مواتية، فلقد كان في شغل عن المغرب بما نجم في الداخل وفي المشرق، وهو، على ما روت كتب التاريخ الفاطمي، كان ينوي العودة إلى المغرب ليقيم فيها نصف سنة على أن يقضي النصف الآخر في مصر، كل سنة، ولكن الأجل داهمه ولمّا يخرج بعد فكرته إلى حيِّز التنفيذ.

كان بلكين بن زيري أول نائب عن الخليفة الفاطمي في المغرب، وليس في حياته ما يدل على أنه قد فكّر بالاستقلال بالمغرب وفصله عن الدولة الفاطمية، ونحن قد روينا عن مرور باديس ابنه في القاهرة في طريقه إلى الحجّ في مظاهر من الأبهة والاستعلاء غضّ الإمام الحاكم بأمر الله الطرف عنها، رغبة منه في الإبقاء ولو على صلة صورية تربط المغرب بالدولة الفاطمية.

ولكن، والحديث الآن عن المغرب، لابد من القول بأن التصدع الداخلي هناك قد بدأ بالخلاف الذي قام بين أفراد أسرة الزيريين الحاكمة. فباديس شنَّ حرباً على أبناء عمه الحمّاديين بسبب دعوتهم إلى الاستقلال التام، والارتباط بالعباسيين، وكان باديس قد تناسى نصيحة الخليفة الإمام المعز لدين الله لجده بلكين يوم أقامه نائباً عنه على المغرب، وقال له وهو يودعه، وكان في طريقه إلى مصر.

أحذّرك بأن لا تولي أحداً من أسرة الزيريين أية وظيفة في الدولة... ولكن باديس خالف الوصية، وعهد لعمه «حمّاد بن بلكين» بالدفاع عن المغرب الأوسط ضد «البترزناتة»وذلك سنة ٣٨٦ هـ. فقام ببناء القلاع، والحصون، والاستحكامات. وبعد فترة أعلن الخروج على ابن أخيه سنة ٤٠٥ هـ. ونصّب نفسه أميراً على دولة مستقلة، ثم أخذ يشجع «زناتة» في طرابلس الغرب للخروج على باديس.

كان حمّاد جباراً، سفاحاً يقتل الأطفال، والنساء والأسرى، ويعيث فساداً في كل مكان يدخله، مما حمل باديس على التوجه إليه لمعاقبته، ولكنه توفي سنة ٤٠٦ هـ قبل أن ينفذ مهمته، فخلفه ابنه «المعز» الذي بدأ عهده بعقد صلح من حمّاد، والإبقاء على ما في يديه.

أما بالنسبة للفاطميين، فإن عوامل الفتور بينهم وبين الزيريين قد نجمت بعد موت بلكين، بل قبل ذلك، أي في مستهل عهد الإمام المعز لدين الله، عندما أخذ بعض الزيريين، وتابعوهم ينقضون عهودهم، ويعودون إلى اعتناق المذهب السني بعد أن كانوا قد اعتنقوا المذهب الفاطمي.

ولكي نستقصي أسباب هذا التحول عن مذهب الفاطميين، يجدر بنا أن نعود إلى الحديث عن عقيدة أهالي شمالي أفريقيا قبل مجيء الفاطميين. فمن الواضح أن هذا الاعتقاد القديم كان يقوم على مذهب «أبي حنيفة» ولكن «سحنون بن سعيد» الذي قدم إلى «القيروان» سنة ١٩١ هـ ألّف كتاباً في المذهب المالكي دعا الناس فيه إلى اعتناق هذا المذهب، لأنه يتفق، وطبائع أهالي شمالي أفريقيا. وبالفعل لاقى الكتاب اعتباراً كبيراً، وأثّر في الأفكار بحيث اعتبر فيما بعد أساساً للعقائد الدينية السائدة في تلك البلاد.

ومهما يكن من أمر... فإن أهل أفريقيا الشمالية، أيّدوا الفاطميين

لرغبتهم في التخلص من حكم الولاة العباسيين من جهة، ولإبعاد الفوضى الضاربة أطنابها في بلادهم من جهة أخرى .. أما بعد رحيل الفاطميين من المغرب إلى الديار المصرية، فإن الزيريـين «نواب الفاطميين» أصبحوا وحدهم يمثلون المذهب الشيعي في عاصمتهم «المنصورية». أما في القيروان، وغيرها من مدن المغرب، فقد كان المذهب المالكي هو السائد ، ولا شك فقد وصل النظام الفاطمي إلى الحد الأقصى من الانهيار بعد الثورتين المشهورتين: ثورة أبي يزيد الخارجي، وثورة أبي ركوة. وقد ذكرنا عـنهما في الصفحات السابقة ما فيه الكفاية، كما يجب أن لا يغرب عن البال انقسام الزيريين على بعضهم البعض، وانحياز الفريق الثاني الحمّاديين للسنة، وتصدّيهم للشيعة حتى في عاصمة الفريق الأول المنصورية.

أما «المعز بن باديس» الذي تسلَّم الإمارة في المغرب، وهو ابن ثماني سنوات، فقد كان تحت سيطرة فقيه سني اسمه «الحسن بن علي بن أبي الزجّال» الذي تمكن من تحويله عن الفاطمية.

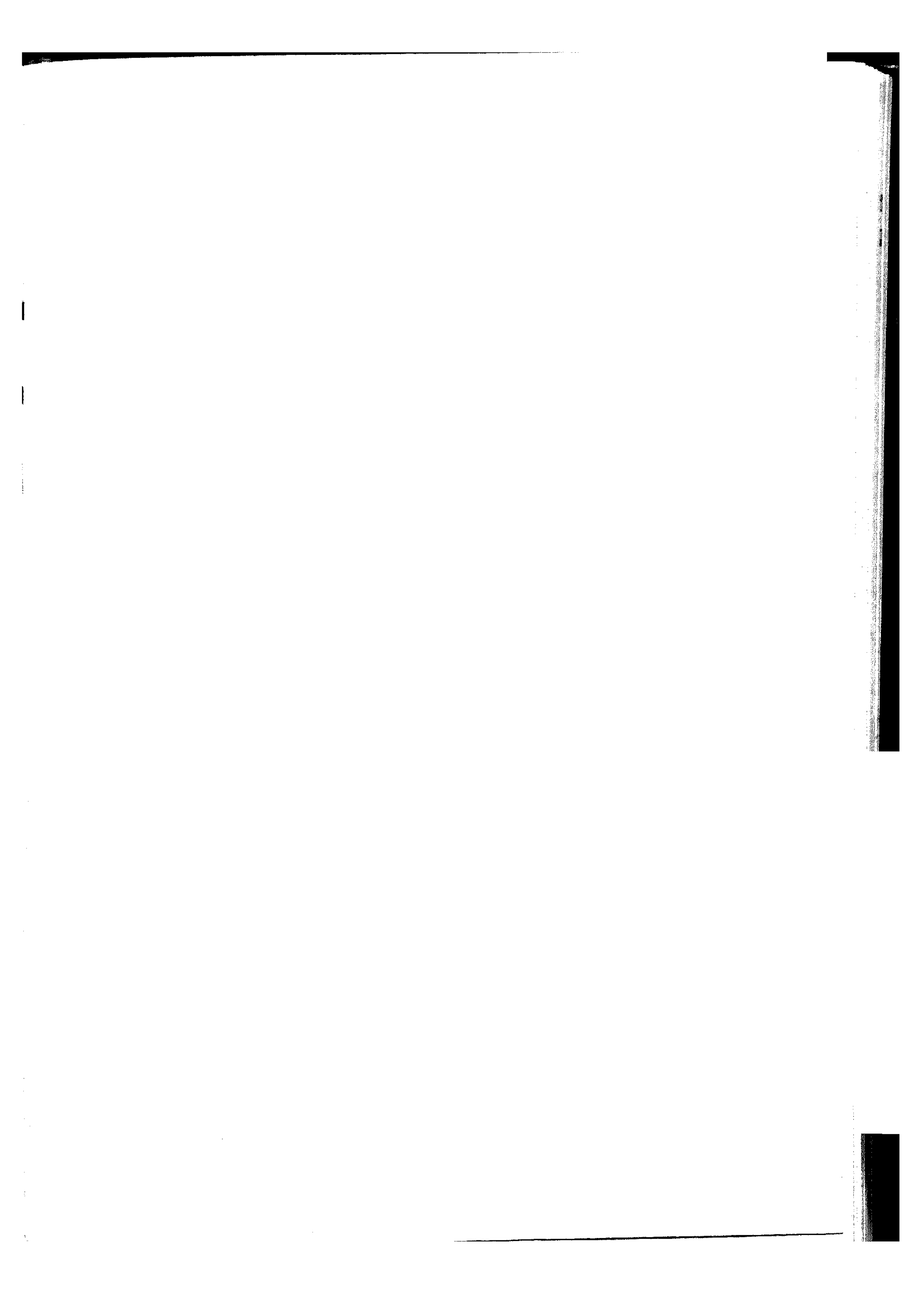
وتذكر المصادر التاريخية أن سبب الفتور، هو حدوث مصادمات بين الشيعة، وأهل السنة في المغرب، فقد ذكر أن الدم جرى غزيراً في شوارع القيروان. فكان السنيّون يهاجمون الشيعة في الأسواق، وفي كل مكان، فيقتلون الأطفال، والنساء، والشيوخ دونما تمييز، أو رأفة، وقد سارت أغلب مدن المغرب على هذه الخطة، فثار الأهلون على الشيعة، وقتلوا منهم أعداداً كثيرة، كما أحرقوا منازلهم بالنار ونهبوها، وأعملوا فيهم القتل عندما حـاولوا الفـرار إلى صقلية، وكانوا يسمونهم المشارقة نسبة إلى أبي عبد الله الشيعي الذي جاء من المشرق.

وهناك رأي لا يبرىء «المعز بن باديس»من هذه الجريمة، فقد ذكر أنه دعا الناس بالسر ، وشجعهم على القضاء على الفلول الشيعية بعد أن تجرأ على تغيير العملات، ونزع اسم الفاطميين عنها.

وبالرغم من كل هذا فإن الفتور لم يصل إلى حد القطيعة، لأن الزيريين أي الفرع الأول كانوا يعتمدون في أمورهم السياسية على تأييد العباسيين. أما الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، فقد أزعجه أن تصل الأمور في المغرب إلى هذا الحد، فأرسل إلى المعز بن باديس

يسأله عن الأسباب التي أدت إلى سفك دماء الأبرياء من الشيعة بهذا الشكل الوحشي؟ فأجابه، معتذراً، وألقى المسؤولية على العامة الذين لم يكن بالإمكان كبح جماحهم. ومن جانب آخر فإن المعز بن باديس أرسل إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بشرى نهاية الدولة الأموية في الأندلس كدليل على الرغبة بإبقاء العلاقات الـوثيقة. فأرسل إليه الإمام الحاكم بأمر الله سيفاً مرصعاً بالجواهر، وخلعة من ثيابه، وتبادلا على إثر ذلك رسائل الود.

الظاهر لإعزاز دين الله



الامام السابع عشر والخليفة السابع

لقبه: الظاهر لإعزاز دين الله. اسمه علي، وكنيته أبو هاشم وهو الإمام السابع عشر لجده علي بن أبي طالب، والخليفة الفاطمي السابع.

ولد بالقصر الفاطمي بالقاهرة المعزية، في ١٠ رمضان سنة ٣٩٥ هـ وتولى الخلافة بعد ستة أسابيع مضت على مصرع والده الحاكم بأمر الله، أي في اليوم الأول من عيد الأضحى العاشر من ذي الحجة سنة ٤١١ هـ وكان له من العمر سبعة عشر عاماً.

توفي سنة ٤٢٧ هـ بعين شمس، بعد حكم استمرَّ ستة عشر عاماً، وله من العمر إثنان وثلاثون عاماً. كان له شقيق أصغر وحيد اسمه «الحارث» ولقبه «أبو الأشبال»، وقد توفي في عهد والده الإمام الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ. وكانت له أيضاً شقيقة صغرى اسمها «ست مصر».

وقد أجمعت المصادر التاريخية على أن عمته الأميرة «ست الملك» هي التي تولَّت تربيته، والإشراف على تعليمه، وتثقيفه.. ومن الواضح أنها بذلت عناية كبرى في سبيل إعداده للخلافة، وللملك حتى استطاع نيل ثروة كبيرة من الأدب، والمثالية، والخلق الرفيع، والتهذيب، فكان الناس يذكرون أدبه، وعلمه، وكثيراً ما شبهوه بجده الإمام «المعز لدين الله».

كان الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله حليماً متواضعاً، يحب الأدب والشعر منذ الصغر، ويكره مبدأ العنف، والقتل وكان مهتماً بالثقافة والفنون وفي الوقت نفسه كان قوي العزيمة، لا يبالي

بالصعاب، وعند حدوث المفاجآت، وهبوب العواصف يقف أمامها بعزم ثابت وصبر، ويتصدَّى لها بعنف، وهو واثق من النصر، وكان رحب الصدر كثير الحلم، كريماً يعفو عند المقدرة، ويستمع إلى الرعية، وشكاوى الفقراء، والمظلومين، كل هذا بالإضافة إلى تديّنه، وحرصه على تطبيق قواعد الدين الإسلامي، والتمسك بأهداب التعاليم الشرعية الصحيحة، والرغبة في الإبقاء عليها بمنجاة من الشرك، والإلحاد، وكان دقيقاً وعنيفاً بإزالة كل ما علق بالأذهان من العقائد المخالفة، والمنحرفة التي ابتدعها الغلاة، في عهد والده، وإبعاد كل ما اتهم به البيت الفاطمي من تهم باطلة كقولهم. إن الفاطميين يعطفون، ويمدون هذه الفئة بالسر، ويشجعونها ويتبنون عقائدها، فكانت أوامره صارمة بإبطالها والقضاء على هذه الفئة الضالة إذا ما استمرت في غوايتها.

أشاد التاريخ إشادة واضحة بالخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله... فقد ذكر أن باكورة أعماله كانت منحه الحرية التامة المطلقة للفرق والأديان كافة بممارسة طقوسهم الدينية كما يشاؤون، دونما أي ضغط، أو مراقبة، أو تعكير الأجواء... كما ألغى قرارات عديدة كانت قد صدرت في عهد والده الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، وخاصة ما كان منها يعالج الحالة الاقتصادية للدولة، وألغى أيضاً الكثير من المنح، والرواتب، والمخصصات ، والإقطاعات، والأرزاق التي قررها والده، والتي أصبحت تشكل عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة، وأشاع العدل والقانون في جميع الأرجاء، مما أعاد إلى الأذهان سيرة الخليفة الرابع الإمام المعز لدين الله. ولهذا فإن غالبية الشعب المصري، وخاصة الطبقة الراقية، والمثقفة محضته الثقة، وأولته الطاعة، ودانت له... ولكن كل هذا لم يثمر أمام تفاقم الأحداث، وازدياد الاضطرابات ، وتعرض البلاد إلى سوء الأحوال الطبيعية، والآفات السماوية.

ومن الجدير بالذكر أن «عمار بن محمد» رئيس الرؤساء، وخطير الملك قد أسهم إسهاماً قوياً بإيجاد المناخ الصالح لخلافة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وكان وقت اختفاء الإمام الحاكم بأمر الله يشغل وظيفة رئيس ديوان الإنشاء، والمشارقة، والأتراك.

تزوّج الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، أمةً سوداء كانت لتاجر يهودي اسمه «سهل بن هرون التُستري» وقد ابتاعها الإمام الظاهر منه، وتزوجها. فولدت له «المستنصر بالله» الذي تسلَّم الإمامة الفاطمية. بعد والده فكان ترتيبه الخليفة الثامن.

وزراء الظاهر لإعزاز دين الله

من المعلوم... أن المدة التي قضاها الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله في الخلافة كانت قصيرة بالنسبة لأسلافه. لهذا فإن عدد الوزراء الذين استخدمهم لم يتجاوز أصابع اليد، وها هو ترتيبهم، ولمحة وجيزة عنهم.

١ ـ **عمّار بن محمد**: رئيس الرؤساء، أو خطير الملك.. كنيته أبو الحسن، مسلم فلسطيني.. أسهم كما ذكرنا بإيجاد المناخ الصالح لخلافة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وعندما اختفى الإمام الحاكم بأمر الله، كان يشغل وظيفة رئاسة ديوان الإنشاء، والمشارقة، والأتراك. فوضع نفسه تحت تصرف «ست الملك»، وقاد الحملة التي هيأت الأجواء الصالحة للخليفة الجديد... ولكن مع كل أسف اتهم في آخر المطاف بتهمة الرشوة، وسرقة أموال الدولة، فحوكم... وقيل إنه أعدم، ولكن لم يتحقق ذلك.

٢ ـ **موسى بن الحسين**: هو بدر الدولة، وأبو الفتوح. كان يتولّى الشرطة ثم ولي ديوان الإنشاء بعد «ابن حيران». كان شيعياً فارسياً، ولكن المدة التي بقي فيها في الوزارة كانت قصيرة. مات اغتيالاً.. وترك ثروة طائلة.

٣ ـ **مسعد بن طاهر الوزان**: هو الأمير شمس الملوك المكين... مسلم فارسي، لم يعمّر في الوزارة طويلاً، ولا أحد يدري الأسباب.

٤ ـ **الحسين بن صالح الروزباري**: هو عميد الدولة، وناصحها كان يحمل كنية «أبو محمد»... مسلم عراقي. من الواضح أنه ابن الوزير «صالح بن علي الروزباري» الذي كان وزيراً في عهد الإمام الحاكم بأمر الله.

٥ ـ **علي بن أحمد الجرجرائي «أبو القاسم»**: نجيب الدولة أو الوزير الأجّل الأوحد. صفي أمير المؤمنين. إسماعيلي المذهب. كان

عالماً قديراً. وعبقرياً.. خدم الأسرة الإمامية الفاطمية بإخلاص، فهو الذي أخذ البيعة للخليفة الإمام «المستنصر بالله» في حياة والده الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وكان ابن ثمانية أشهر.

٦ ـ **قاسم بن علي بن أحمد الجرجرائي**: .. من الرجال القلائل المخلصين للدولة الفاطمية وللخليفة.. عمراني خطّط، وعمل على توسيع مدينة القاهرة «المعزية» وشقّ شوارعها ، وإقامة الحدائق والأسواق والمساحات، والمباني، كما نهض بالزراعة، وقدَّم الكثير الكثير من الخدمات للفاطميين، ولكن الأقدار عاكسته.

ومن الأشخاص المرموقين الذين لعبوا دوراً مهماً في عهد الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله الخادم الأسود المسمّى «معضاد» ، كان مقرباً من الإمام فلذلك عينه لقيادة الجيوش ولقبه بعز الدولة وسنائها و «أبو الفوارس» و «معضاد الظاهر» وذكر أنه كان من أقرباء زوجة الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله. وأنه كان الشخص الثالث في الدولة الذي يملك صلاحية الدخول على الخليفة متى شاء، ومثله مثل الشريف الكبير «العجمي»، والوزير «علي الجرجرائي» و «الشيخ العميد ـ محسن بن بدوس». ويأتي بعدهم «شمس الملوك مظفّر» صاحب المظلة، «وابن حيران» صاحب ديوان الإنشاء، وداعي الدعاة، ونقيب الطالبيين، وقاضي القضاة.

المغرب في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله

ذكرنا في الصفحات الأولى من هذا الجزء، وفي معرض الحديث عن الإمام الحاكم بأمر الله ما فيه الكفاية عن أوضاع المغرب في ذلك العهد، وتطرقنا إلى العلاقات بين الفاطميين، وبين نوابهم «الزيريين الصنهاجيين» التي وصلت إلى طريق مسدود، «فباديس بن بُلكين» بالرغم من بقائه على الولاء للفاطميين بالظاهر، فإنه، في السر، استأثر بكافة الصلاحيات، ولم يترك للفاطميين من النفوذ والسيطرة إلاّ الاسم على العملة، والخطبة في المساجد في أيام الجمع. وذكرنا أن الإمام الحاكم بأمر الله، عرف كل هذا، ولكنه ظلّ حريصاً على إبقاء العلاقات الودّية خاصة، وهو يعلم أن إمكانيات الدولة المالية،

والعسكرية لا تتحمل الدخول في معارك بشأن المغرب في ذلك الوقت. وعندما تسلَّم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله شؤون الخلافة. هبطت وفود عديدة من المغرب، تمثل القبائل، والهيئات ذات الأهمية والفعالية، وهي تحمل لخليفة مصر الفاطمي التهاني، والمبايعة، ولكن ومع كل هذا فإن الاعتقاد ظلَّ سائداً لدى الناس كافة، بأن المغرب لم يعد البلد الذي يمتلكه الفاطميون، أو يحكمونه مباشرة.

ومن الواضح... أن أهل أفريقيا الشمالية أيَّدوا الفاطميين لرغبتهم في الابتعاد عن حكم الولاة العباسيين من جهة، ولإنقاذهم من الفوضى الضاربة أطنابها في بلادهم من جهة أخرى. أما بعد انتقال الدولة من المغرب إلى مصر. فإن الزيريين أوصياء الفاطميين ونوابهم أصبحوا وحدهم يمثلون المذهب الفاطمي في عاصمتهم «المنصورية». أما في القيروان وغيرها من مدن المغرب فقد كان المذهب المالكي هو السائد، والأرجح فالمذهب الفاطمي تأثر كثيراً، وأصيب بما يشبه الانهيار بعد الثورتين المشهورتين وأعني بهما: ثورة أبي يزيد، وثورة أبي ركوة.

وخلاصة القول، هي أن المغرب، في عهد الإمام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، بات في حكم المنفصل عن الدولة الفاطمية.

المشرق في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله

كان الاعتقاد السائد في بلاط الخلافة الفاطمية، وفي ردهات قصر الخليفة الفاطمي الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وفي كل مكان في القاهرة «المعزية»، وفي أرجاء الدولة الفاطمية، حتّى في أوساط عائلة الخليفة بأن مقتل الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله واختفاء كل أثر له تمَّ على أيدي جماعة «الغلاة» الذين نادوا بألوهيته ، وأكثر هؤلاء من «الشعوبيين» الذين تسربوا من بلاد الفرس، وفيهم بعض عناصر «اليهود» من فارس الذين اعتنقوا الإسلام، وتسربوا إلى حرمه، ودخلوا في الإسماعيلية بقصد تخريب هذه المجموعة الكبيرة وتقسيمها.

في تلك الفترة التاريخية أي سنة ٤١٤ هـ. أذاع الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله مرسوماً من القصر الفاطمي... وهذا بعض ما جاء فيه، كما ورد في كتاب «النجوم الزاهرة» لأبي المحاسن ابن تغري بردي.

> وذهبت طائفة إلى الغلو في أبينا أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» فغلت، وادّعت فيه ما لا يصدقه العقل، ونجمت من هذه المجموعة الكفرة فرقة سخيفة العقل وضالة بجهلها عن سواء السبيل.
>
> لقد غالوا فينا غلواً كبيراً، وقالوا في آبائنا، وأجدادنا منكراً من القول وزوراً.. ..نسبونا بغلوهم الأشنع، وجهلهم المستقطع إلى ما لا يليق بنا ذكره.. وإنّا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة، ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه، وتوطيد قواعده، وتمكينه ، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى، وأبونا علي المرتضى، وأسلافنا البررة أعلام الهدى».

وفي السجل يتبرأ الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله من هذه المزاعم التي قيلت في أبيه، وأسلافه، ويؤكد اعترافه إلى الله بأنه وأسلافه الماضين، وأخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى، وإن الخارج منهم عليه لعنة الله.

وقدَّم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله في مرسومه إنذاراً يدعو هؤلاء إلى التوبة إلى الله من الكفر، وينذرهم بوضع السيف على رقاب من يصرّ على البقاء على الكفر، كما يعد التائبين والراجعين إلى الصواب بالعفو.

هذا بالنسبة للغلاة. أما بالنسبة للأوضاع العامة في بلاد الشام ، التي لم تعرف الاستقرار، ولا ذاقت جفون أبنائها طعم الهدوء. وقد مرَّ معنا في الأجزاء السابقة تفاصيل ما وقع على أرضها من حروب، وما أهرق في ساحاتها، وميادينها من دماء، وما مثل على مسارحها من مشاهد تقشعر لذكرها الأبدان.

ففي عهد الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله فكر «فاتك الوحيدي» عزيز الدولة، أو أمير الأمراء بالعصيان، والاستقلال بحلب، وما يتبعها مستغلاً بذلك غياب الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، وصغر سن الخليفة الإمام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، ولكن «ست

الملك» دبرت الأمر ، بأن أغرت خادمه بدر، فتولّى قتله عندما كان في حالة سكر، وعندئذٍ تولّى «بدر» ولاية حلب مكانه، مكافأة له، ولكنه مع كل أسف لم يستمر سوى بضعة أيام، لأن «ناصر بن صالح بن مرداس» الذي كان سجيناً تمكن من الفرار من سجنه، وظهر على مسرح الأحداث من جديد، وكان في بداية أمره على علاقة طيبة بالفاطميين، ولكنه عاد فنكل ثم استولى فيما بعد على حلب، وما يتبعها من القرى والبلدان. ومن المعلوم أن المرداسيين هم جماعة من الشيعة أقاموا إمارتهم على أنقاض الإمارة الحمدانية، عندما انطلقوا من مواطنهم، وقاموا بحملتهم التي استهدفت الحمدانيين عندما انطفأ آخر شعاع لهم من وادي الفرات. فاستولوا على حلب، ثم امتدوا بعد ذلك إلى «فبج»، و «الرقة» و «الرحبة» ثم حماة، وحمص، وصيدا، وبعلبك، وطرابلس، وامتدّ نفوذهم حتى «عانة».

ومن مآثرهم انتصارهم في إحدى المعارك على «ارمانس» ملك الروم في معركة فاصلة وقعت في شمالي سورية، وقد عرف أن مؤسس إمارتهم هو «صالح بن مرداس» أما «ناصر» فهو ولده، وكان معاصراً للخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله. ومما يجب أن نشير إليه أن المرداسيين كانوا من الشيعة، لذلك فإنهم كانوا يحملون عطفاً خاصاً للفاطميين... .. وبالرغم من ذلك فإن العقيليين قضوا عليهم.. وكان آخر من حكم منهم هو «سابق بن محمود».

ونعود إلى بلاد الشام لنقول: إن «حسان بن جراح» تغلّب في تلك الفترة على أكثر مدنها، ولم يستطع أحد من عمال الفاطميين، أو قوادهم المرابطين هناك صده، أو الوقوف بوجهه.

كل هذه الظواهر تعطينا الدليل الدامغ بأن الدولة الفاطمية التي كانت تمر في أقصى مراحل ازدهارها قد أخذت بالتدهور، والانحلال أو ما يمكن تسميته ببداية النهاية.

أوضاع صقلية

هذه القاعدة العسكرية الكبرى التي تحدثنا عنها في الأجزاء السابقة، وذكرنا وقائع ما جرى فيها، والمعارك التي دارت على أرضها... هذه الجزيرة ظلّت على ولائها ، وارتباطها بمصر الفاطمية، فلم يفكر الحكام الذين تعاقبوا على حكمها من أسرة «الكلبيين» -

بالتخلي عن إخلاصهم، وولائهم للدولة التي ينتمون إليها، أو التنكر لسادتهم الفاطميين أو محاولة نزع سلطتهم. وفي هذا دليل على الإخلاص، والتربية، والمبادىء الأخلاقية التي اشتهرت بها هذه الأسرة العريقة.

الاضطرابات الداخلية

لم يستطع الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أن يضبط أمور دولته الفاطمية العامة، أو يهدىء النفوس الشريرة التي استيقظت بعد وفاة الإمام الحاكم بأمر الله، فهذه النفوس تجندت للعبث بالأمن، والاستقرار، وتعكير الأجواء، والإساءة إلى المجتمع، والدولة... وكان هذا النشاط الإرهابي التخريبي الذي ظهر فجأة بتخطيط، وتبني عصابات اتخذت لنفسها مهمة تنفيذ الإجرام والفساد، وإشاعة الخوف، والفوضى. وازداد نشاط هذه العصابات إثر وفاة الأميرة «ست الملك» التي كانت تمسك بيد من حديد زمام الأمور في الدولة داخلياً، وخارجياً، وجاءت الأيام حاملة معها المآسي، وهبَّت الرياح العاصفة، فصبَّت جام غضبها على مصر. فانخفضت مياه النيل، وتعطلت الزراعة، وأصيبت التجارة بنكسة إثر ذلك، وتعرَّض الشعب إلى نقص في الغذاء والرزق، وكأن هذه الكوارث ما جاءت إلَّا لتضع العراقيل في وجه الخليفة الشاب الجديد، وتشل مساعيه وتنال من هيبته، مما جعله يقف أمام الأحزان واجماً حزيناً عاجزاً عن أن يفعل شيئاً.

افتتح الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله عهده سنة ٤١١ هـ بإقامة مأتم لأبيه الإمام الحاكم بأمر الله، فجلَّل القصور الفاطمية بالسواد، وجاء بالقرّاء والمرتلين، وأمر بالندب والبكاء طوال الليل، هذا ومما يجب أن يذكر أنه بعد التولية التي حدثت في أول يومٍ من عيد الأضحى، خرج لصلاة العيد، وعلى رأسه المظلة، فصلَّى في الناس، وعاد فكتب للعمال، والولاة في الأقاليم الخاضعة للدولة يذكرهم بتوليته الخلافة، وعكف من جهة أخرى على دراسة المراسيم، والقرارات التي طبقها والده، فألغى العديد منها كما ذكرنا، وأخذ بتطبيق سياسة التسامح الفاطمية التي سار عليها الخليفة الإمام المعز لدين الله، والإمام العزيز بالله من بعده.

ونعود إلى الحالة الداخلية في مصر في تلك الفترة، لنشير بأنه سنة ٤١٥ هـ، ارتفعت أسعار الحاجيات الضرورية، وأصبحت المواد الغذائية مفقودة، وأسعارها لا تطاق.. كما تعذر وجود الخبز.

ومما تجدر الإشارة إليه.. أن الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله عيَّن خادمه الأسود «معضاد» قائداً أعلى لجيوش الدولة، ولقّبه بـ «عز الدولة» و «أبو الفوارس» و «معضاد الظاهر».

ومن تدابيره.. أنه منع الناس من ذبح الأبقار السليمة لندرتها، وقد ذكر أن الرأس منها بيع بخمسين ديناراً، وكثر الخوف في ظاهر المدينة، وانتشرت الفوضى والاضطرابات، وجرت مداولات بين الوزراء، والمسؤولين لمصادرة أموال التجار وممتلكاتهم، ودبَّ الاختلاف بينهم، وتعالى ضجيج الجند من الفقر، والحاجة، فلم يرد عليهم أحد، وراج سوق الحسد بين زعماء الدولة، وقوي تهافتهم على المناصب، وحياكتهم المكائد لبعضهم البعض. وما يجب أن يشار إليه أن العميد «محسن» قد قبض عليه، وضرب عنقه، بعد ثبوت مؤامرته.

واشتدَّ الغلاء، وفشت الأمراض، وبرز الموت إلى الأرجاء، يهدد كل الناس، وفقد الحيوان الداجن ، فلم يعثر على دجاجة، أو فرخ حمام، وعزَّ الماء لقلة وجود الحيوانات التي تنقله. ومن مظاهر الفوضى، واضطراب حبل الأمن أن ركب الحجاج خرج من القاهرة فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم في بركة «الجبر» الواقعة في الجهة البحرية من القاهرة، وقد أخذت أموالهم، وقتل الكثير منهم، وعاد من بقي ولم يحج أحد من أهل مصر، وتفاقم الأمر من شدة الغلاء، فقام الناس بمظاهرة صاخبة، وصلوا فيها إلى قصر الخليفة، وكانوا ينادون:

«الجوع... الجوع... يا أمير المؤمنين. لم يصنع بنا هذا أبوك، ولا جدك... فالله... الله... في أمرنا»، وانتشرت الأمراض، والأوبئة، وانتشر الموت بين الأطفال لعدم وجود الأقوات، وكثر الخوف من العصابات التي انتشرت في كل مكان تسرق، وتنهب، وتقتل في سبيل الكسب، والدفاع ضد الجوع.

ومما يجب أن يذكر أن الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، عمل سماطاً بمناسبة عيد الأضحى فهجم العبيد على السماط، وهم يصيحون: الجوع... الجوع... ثم نهبوا، والتهموا كل ما كان عليه... أما الأرياف فقد أصابها موجة من الاضطرابات، والنّهب، وتجند

العبيد لنهبها، وسلب كل ما فيها، كما قاموا بـأعمال قبيحـة، واحتاجت الدولة إلى الأموال لسد العجز بعد أن فرغت الخزائن من الأموال التي صرفت على شؤون التموين.

وأذاع الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، أمراً على الناس يقضي بقتل كل عبد يرونه في الطريق، كما أنه جنَّد فريقاً من الجيش لحفظ الأمن، والسهـر على راحـة الأهلين، ولكن العبيـد لم يهدأوا أو يستكينوا. فاستعدوا للقتال، وحفروا الخنادق، ورابطوا في الدروب، والأزقة، والشوارع . فخرج إليهم قائد الجيش «معضاد» في عسكر فطردهم، وقبض على الكثير منهم، كما ضرب أعناق بعضهم، وقد عزا العبيد كل هذه التدابير إلى الوزير «الجرجرائي»، وغيره من الوزراء، والمسؤولين الكبار في الدولة، فهددوهم بالقتل مما حمل المسؤولين على طلب المزيد من الحراسة، كما امتنع بعضهم في منازلهم. وفي هذا العام هاجمت عساكر «ابن الجراح» منطقة «الفرما». ففرَّ أهلها إلى القاهرة.

وفي سنة ٤١٧ هـ. انتشر بمصر مرض يسمَّى «الرعاف» أي سيلان الدم من الأنف، فلم يستطع أحد أن يجد له علاجاً. كما لم تعرف أسبابه؟، وسقط الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله عن فرسه، ولكنه لم يصب بأذى. فتصدق على الفقراء بمئة ألف دينار، وفي ذلك الوقت أيضاً أمر الإمام الظـاهر لإعـزاز دين الله بطرد فقهـاء «المالكية» من مصر، بعد أن ازداد نشاطهم، وأخذوا يتصدون في المساجد للمذهب الإسماعيلي، وفي الوقت نفسه أمر الخليفة الناس أن يحفظوا كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان بن حيون التميمي، وهو كتاب يمثل الفقه الفاطمي، وكتاب «مختصر الوزير» للـوزير «يعقوب بن كلِّس»، كما جعل مكافآت لمن يحفظها جيداً عن ظهر قلب.

ومن الأحداث العظيمة التي وقعت في عهده التوقيع على معاهدة صداقة وهدنة مع امبراطور الروم «قسطنطين» الثامن وذلك سنة ٤١٨ هـ. ويدخل في نطاق هذه المعاهدة، إعادة الخطبة في جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية إلى ما كانت عليه حيث أرسل الخليفة إليه. بعد ذلك من مصر إماماً،

ومؤذناً، وبالمقابل سمح الإمام الظاهر لإعزاز دين الله للروم بفتح أبواب كنيسة القيامة بالقدس، وممارسة الصلوات فيها.

وفي سنة ٤١٨ هـ. وقعت فتنة كبرى بين المغاربة والأتراك، قتل فيها خلق كثير من الفريقين، فاضطربت أحوال القاهرة، ومصر من جراء ذلك، ولم يستطع الجيش أن يطفىء النار أو يقضي على الفتنة، أو يعيد الأمن إلى نصابه، إلا بعد فترة طويلة.

وفي سنة ٤٢٠ هـ. ولد للإمام الظاهر لإعزاز دين الله من زوجته السوداء ولده البكر فسمَّاه «معدّ». وأقيمت الاحتفالات والمواكب في جميع أنحاء البلاد، ووزعت الهدايا على الناس، والأموال على الفقراء، والمحتاجين. ومما تجدر الإشارة إليه، أنه لم يمضِ على ولادته سوى ثمانية أشهر حتى بويع بولاية العهد، وقد أنفق الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله على تلك المباهج ما يجلّ عن الوصف.

ويعود الغلاء والنقص في المواد من جديد، أي بعد مضي عامين، كما أخذت مياه النيل بالنقصان، مما أعاد إلى الأذهان ذكريات السنين العجاف التي أشاعت الرعب، والموت، والمرض في مصر.

وفي سنة ٤٢٣ هـ. قتل الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أحد زعماء فرقة الغلاة الفرس، وكان يقيم في القاهرة. فثار أتباعه لمقتله، وقاموا بما يشبه الثورة، وكادت تقع فتنة كبرى عندما انتصر له بعض الأتباع الذين كانوا يعيشون، ويمارسون عقائدهم، وطقوسهم بصورة سرية، ولكن الخليفة سيطر على الموقف. وتمكن بعد عدة معارك ومداهمات من القبض على عدد كبير منهم، وإبعادهم إلى خارج البلاد.

وفي سنة ٤٢٣ هـ. أيضاً.. أركب الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله ولده وولي عهده «المستنصر بالله» على فرس من القاهرة إلى مصر. فزينت الطرقات، والبنايات، واصطفّ الناس على الجانبين يقبلون الأرض.. وكان والده الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله قريباً منه ينثر الأموال على الناس، وهكذا الطفل المستنصر بالله.. ويذكر التاريخ أن مصر لم تشهد مثل هذا اليوم.

وفي سنة ٤٢٥ هـ. أرسل الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله دعاته إلى بغداد، وفارس، والأندلس. فاستجاب لهم خلق كثير. ومن الجدير بالذكر أن الأوبئة ، والأمراض والآفات السماوية عادت في هذا العام لتفتك بالناس.

وفي سنة ٤٢٧ هـ. مات الخليفة السابع الإمام الظاهر لإعزاز دين الله فجأةً وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر.

التطلعات الفاطمية نحو المشرق

لا نستطيع أن نغض الطرف، أو نتناسى، ونحن نكتب تاريخ الإسماعيليين، عن نشاط الدعاة في عهد الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وخاصة في العراق وفارس، وكل هذا يتصل اتصالاً مباشراً بموضوعنا، ويشكل ناحية مهمة في هذا التاريخ.

وكما ذكرنا فإن الدعوة الإسماعيلية ازدهرت ازدهاراً منقطع النظير في المشرق، وخاصة في فارس، والعراق، وبلاد الشام في عهد «الإمام الحاكم بأمر الله» وابنه الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وعندما نسجل على صفحات هذه الموسوعة اسم الفيلسوف الإسماعيلي «أحمد حميد الدين الكرماني» صاحب العقلية الفلسفية المتفوقة في القرن الرابع للهجرة ـ وكنا ذكرنا مختصراً عن تاريخ حياته، ومؤلفاته، ووفوده على مصر بأمر من الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، عندما راج سوق الإلحاد، والشرك، والمغالاة ـ عندما نذكر الكرماني نرى من واجبنا أن نذكر بعده داعي الدعاة «المؤيد في الدين» هبة الله الشيرازي المعروف بمناظرته، وصداقته لأبي العلاء المعري، وهذا الداهية الكبير، والأديب العلامة سوف نفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

وبالرغم من ذلك لابد من القول: إن والده «موسى بن داؤد» كان داعي الفاطميين في إقليم فارس، وإنه كان على جانب كبير من عزة النفس، والمكانة بين مواطنيه، حتى أن الوزير «الواسطي» كان يزوره في منزله دون أن يزور الوزير في داره، أو في مقر وزارته. ومن الواضح... أن المؤيد في الدين أخذ عن والده علوم الدعوة، وهكذا شقيقه الثاني، وأن الوالد كان يهيء ولده البكر لهذا المنصب من بعده، وقد ذكر التاريخ أن الداعي «موسى» أرسل إلى الحاكم بأمر الله كتاباً يطلب فيه تعيين أحد أولاده في منصبه، فجاء جواب الخليفة كما يلي:

«وأما فتياك، وما ذكرت أنك تورثها لهما، فذلك على ما يروم الإمام في وقته، وحينه... الأيام تعد يا موسى... والأنفاس تحصى، والرد إلى الله تعالى، وإلى

وليه أحق وأحرى، ولا تقولنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلَّا أن يشاء الله... واذكر ربك إذ نسيت، وقُلْ عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً».

وذكرت بعض المصادر الإسماعيلية: أن المؤيد في الدين أصبح داعياً في فارس، وأنه تدرَّج في مراتب الدعوة حتى صار حجة فارس، وبعد وفوده إلى مصر صار داعياً للدعاة.

ولابدّ من القول إن الدعوة الفاطمية ازدهرت في المشرق ازدهاراً كلياً بفضل جهود هؤلاء الدعاة، لدرجة أن الناس كانوا يتسابقون إلى الانتساب للدعوة الفاطمية والانضواء تحت لواء هؤلاء الدعاة المثقفين المتفوقين في كل علم وفن. فهذه العقيدة التي تقوم على أسس تنزيلية وتأويلية اجتذبت العديد من المستجيبين والعلماء في العالم الإسلامي، فعملوا على اعتناق مبادئها بالرغم من أن دراستها شاقة. والاضطلاع بها مسؤولية كبرى تتطلب التضحية فمن الواضح أنها تقوم على أسس قديمة من المعرفة، وعلى دعائم ثابتة من البيان المحجوب عن العامة. وعلى العموم فهي ارتفاع من حضيض الجهل إلى ذرى الاستبصار، ونفاذ إلى قلب الحقيقة البعيدة المنال، واستخلاص الحقائق من براثن الباطل، والوقوف على الينبوع العذب، والتفيؤ في ظل المعرفة، واليقين العقلي القاطع المعد لجلاء النفوس.

الاسماعيلية
في اليمن

طلائع الدعوة

في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة ذكرنا ما فيه الكفاية عن الحركة الإسماعيلية في اليمن، وكان موضوع البحث يتركز على الداعيين «منصور اليمن» و «علي بن الفضل» وفصّلنا كيف انتهت فتوحاتهما أخيراً، بعد أن اختلفا، وبعد أن تحاربا حتى أصبحا في عداد الأموات، وبعد ذلك تحولت الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى دعوة سرية ضعيفة، وكان قد تعاقب على رئاستها تسعة من الدعاة بعد منصور اليمن، وعلي بن الفضل، وهؤلاء الدعاة كما ذكرنا عاشوا في سرية مطلقة، ومن الواضح أن تاريخ هذه الفترة غامض جداً كما يتضح من مجريات الأحوال، والوقائع اليمنية.. ولا بد من القول إن الفترة الآنفة الذكر امتدّت من عهد عبد الله المهدي الخليفة الفاطمي الأول حتى عهد الإمام السابع الظاهر لإعزاز دين الله..... ..وهذه هي أسماؤهم مع موجز عن حياتهم.

١ ـ **عبد الله بن عباس الشاوري**: تمرَّن على يد «منصور اليمن». قدم على الخليفة الفاطمي الأول ـ عبد الله المهدي في القيروان. قتله «الحسين بن منصور اليمن» سنة ٣٣٦ هـ. وذلك في عهد الخليفة الفاطمي الثالث الإمام المنصور بالله.

٢ ـ **يوسف بن موسى بن أبي طفيل**: تولّى رئاسة الدعوة في عهد الخليفة الفاطمي الرابع الإمام المعز لدين الله.... قتله إبراهيم بن عبد الحميد السباعي.

٣ ـ **جعفر بن أحمد بن عباس**: ذكر ... إنه ابن أخي عبد الله بن عباس الشاوري.. الذي ورد ذكره.

٤ ـ **عبد الله بن محمد بن بشر**: كان داعياً في عهـد الخليفة الفاطمي الخامس الإمام العزيز بالله، وهو من وادي «قطابة من قدم».

٥ ـ **هرون بن محمد بن رحيم**: كان داعياً في اليمن للإسماعيلية في عهد الخليفة الفاطمي السادس الإمام الحاكم بأمـر الله، وقد أرسل إليه سجلاً سنة ٣٩١ هـ. وربما يكون قد عاصر الخلفاء الثلاثة المعز لدين الله ، والعزيز بالله، والحاكم بأمر الله.

٦ ـ **يوسف بن أحمد بن الأشج**: هو من أهل «شبام حمير» عاصر الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله ، وكان مسؤولاً عن اليمن بعد هرون.

٧ ـ **سليمان بن عبد الله بن عامر الزواحي**: هو من ضلع «شبام حمير» كان نشيطاً، ومسؤولاً عن الدعوة الإسماعيلية في اليمن في عهد الخليفتين الإمامين: الحاكم بأمر الله، والظاهر لإعزاز دين الله، ، وقيل إنه أدرك الخليفة الفاطمي الثامن الإمام المستنصر بالله.. وكان مقره حصن «كوكبان».

ومهما يكن من أمر... فإن هؤلاء الدعاة الثمانية، قاموا بأعمال، ونشاط في القصر اليمني في عهد أطلق عليه المؤرخون اسم عهد الشدائد والمحن، وفقدان المصادر، والأخبار... ولا بد من القول: بأنهم كانوا يعملون بصمت وهدوء، وقد ساعد على نجاحهم طبيعة بلاد اليمن الجبلية الوعرة، واتخاذهم الحصون المنيفة، والجبال الشاهقة وسيلة للتستر، والابتعاد عن الأعداء، ومكامن الأخطار، وقد ظلوا على هذا الحال حتى ظهور الداعي الثامن «علي بن محمد الصليحي» رأس الأسرة الصليحية الحاكمة. ومن الواضح أن عهده بدأ في زمن الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، ثم عاصر الخليفة الإمام المستنصر بالله.

كما سنذكر في الصفحات التالية، والتي ستكون تكراراً لما جاء في كتابنا عن الملكة أروى، لسببين: أولهما هو أننا ما زلنا نقف عند النتائج التي توصلنا إليها في بحثنا ذاك وثانيهما هو معرفتنا بأن الكتاب المذكور وقد طبع في مصر منذ عقدين من الزمان، صار في حكم المفقود وليس من السهل الحصول عليه:

كانت اليمن في القرنين الرابع، والخامس الهجريين في حالة من التدهور والتفكك، ففي خلال تلك المدة استولى «الموالي» على الأقاليم اليمنية، واستبدوا بالحكم، وعاثوا فساداً، وظلماً، وبالرغم من أن «الحسين بن سلامة» تمكن في مدة ولايته من الحفاظ على دولة «بني زياد» فإن استبداد «الموالي الحبشيين» بالحكم مكّنهم من تأسيس الدولة «النجاحية» في زبيد سنة ٤١٢ هـ على أنقاض دولة «بني زياد» فكانت لهم «تهامة» و «زبيد» وكان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التي حفزت العرب إلى الانتفاض، وعدم الخضوع لدولة الأحباش، فكان من جراء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت «الحسين بن سلامة» وأصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير من الأمراء، وعمّت الفوضى المناطق، وأعلن العصيان في القلاع والحصون، والاستقلال في المناطق، والأقاليم. فكان «مخلاف جعفر» يضم: جبلة وأب، والعدين، والمذيخرة، وذي سفال.

و «مخلاف المعافر» ويضم: تعز، وجبا، وغيرهما.

و «مخلاف الجَند، وحصن السمدان» لآل الكرندي، وكانت لهما، مكارم، ومغافر، وسلطنة ظاهرة.

أما «عدن» وأبين» و «لحج» و «حضرموت» و «الشحر» فقد استولى عليها بنو معن سنة ٤١٢ هـ. وتغلّب أسعد بن وائل على «مخلاف وحاظه»، ومن مدنه : شاطح. . وامتلك بنو عبد الواحد «مخلاف يربوع» وأهم مدنه: الغَمد، وبرع، وحصن مسّار. واستولى بنو أصبح على حصون حب، والشحر، والسحول. ثم استولى على حصن وصاب، ومخاليفها قوم من قبيلة بكيل ثم من همذان.

من هذا.. نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع شملها تحت لواء واحد، بل كانت إمارات صغيرة متفرقة القوي فيها يأكل الضعيف. أو بلغة أصح قل: إن السلطة كانت موزعة بين الأمراء، والزعماء، والمتباغضين المتنافرين، وجميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلّا رباط إقامة الخطبة للخليفة العباسي، وضرب السكة باسمه، وإعلان الولاء له، ولو بالظاهر.

هذا... ومن الجدير بالذكر... أنه من سنة ٤٠٥ هـ إلى سنة ٤٤٨ هـ. عمَّ الخراب صنعاء وغيرها من مدن وبلدان اليمن بسبب الخلافات، والنزاع، والظلم، وفساد الأحوال، وتوالى على العاصمة صنعاء الدمار، وقلَّ الخير، وضعفت المدينة حتى قيل إن دُورها أصبحت ألفاً بعد أن كانت مائة ألف.

علي بن محمد الصليحي

في هذا الجو المكفهر الحالك المضطرب، وفي تلك الأحوال السياسية المتقلبة ظهر على مسرح اليمن «علي بن محمد الصليحي» رأس الأسرة الصليحية التي تنتسب إلى قبيلة «الإصلاح» من بلاد «حراز» ، وكان علي كما وصفه ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان: «شاباً أشقر اللحية، أزرق العينين، وليس في اليمن في ذلك الوقت من يماثله في ذلك».

وكان والده «القاضي» محمد الصليحي مسلماً سنياً شافعي المذهب، حسن السيرة، مطاعاً في أهله وجماعته.. لا يخرجون عن أمره، ولا يعصون قوله

أما المؤرخ «عُمارة اليمني» فقال:

كان أهل حراز أربعين ألفاً يدينون له بالطاعة. نشأ علي نشأة طيبة في بيئة عربية عريقة لها تقاليدها في الأخلاق الفاضلة، والعادات الطيبة السمحة، وقد أورد عماره اليمني في تاريخه: أنه قد ظهرت عليه علامات النجابة، ودلائل الفضل، والعزَّة، وطموح النفس، ويروى أنه قام يحج بالناس على طريق «السراة»، والطائف خمسة عشر عاماً، وكان الناس في أول ظهوره يقولون له: «قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره، ويكون لك شأن ودولة».

إن أُولى فتوحات علي الصليحي كانت استيلاءه على بلدة «زُبيد» ، وفي تلك الفترة أحب الأمير الشاب ابنة عمه السيدة الحرة «أسماء بنت شهاب» الصليحية. وقد أورد المؤرخ عمارة اليمني في تاريخه قصة زواجها. فقال:

«كان على باب زبيد من داخل السور دار لرجل حبشي يقال له: فرج السحرتي» وكان من أهل الفضل، والأخلاق الرفيعة، والصدقات، والمعروف. فخرج ذات ليلة، ومرَّ برجل يقرأ القرآن فسأله عن العشاء... فأنشد قول الشاعر المتنبيء:

من علّم الأسوَد المخصيَّ مكرمة أقومه البيض أمْ آباؤه الصّيدُ

فأخذه الحبشي، وطلع به إلى أعلى مكان في داره، وأكرم مثواه، واستخبره عن سبب قدومه إلى تهامة فقال له: علي الصليحي:

إنَّ لي عماً يقال له «شهاب» وله ابنة يقال لها «أسماء» قليلة النظير في الجمال، معدومة المثل في العقل والأدب، وقد خطبتها إليه، فاشتطَّ علي في مهرها... وأمها كانت تقول:

لا نزوجها إلَّا بعض ملوك همذان بصنعاء، أو أمراء بني الكرندي «بمخلاف جعفر» وقد استاموا عليَّ من المال مبلغاً لا قدرة لي عليه، وأنا متوجه إما إلى «بني معن» في عدن وإما إلى «بني الكرندي».

ويزيد المؤرخ عمارة على قوله:

إن السحرتي دفع له مالاً جزيلاً أضعاف ما أدَّى، وجهّز العروسين بجهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم، وعاد إلى عمه حيث زوَّجه «أسماء».

وذكر «الأزدي» في كتابه «الدول المتقطعة» قوله:

«وكانت أسماء من أعيان النساء، وكان الصليحي يثق بها ثقة عمياء، لكمالها، وقد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة، ولم يخالفها في أغلب أمورها، ويجلها إجلالاً عظيماً وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين، وفوق كل هذا كانت من حرائر النساء.. وزاد على قوله:

وكانت من الكرم، والسؤدد.. تمنح الجوائز السنية الجزيلة للشعراء، والصلات الواسعة في سبيل الله تعالى، وفي سبيل الخير والمروءة بحيث يمدح أولادها وأخوتها وبني عمها بمفاخرها».

ونعود إلى ما قبل هذا. فنقول:

لما انتقلت رئاسة الدعوة الفاطمية في اليمن إلى «سليمان بن عبد الله الزواحي» شرع يلاطف، ويجالس القاضي «محمد الصليحي» والد

«علي» فكان يكثر من التردد عليه بالنظر لرئاسته، وسؤدده، وصلاحه. وعلمه، وكان كلما ذهب إليه يرى ولده «علياً» فيشاهد على محياه دلائل النجابة، والذكاء، والشجاعة. ففرس فيه، وهو دون البلوغ التعاليم الإسماعيلية، وما زال حتى استماله ، وجعل في فكره العلوم، والآداب، والتفاني في سبيل المبادىء الفاطمية.

ولما اطمأن «الزواحي» إلى رسوخ تعاليمه في فكر تلميذه علي أوصى له بخلافته، واستحصل على موافقة الخليفة الإمام «الظاهر لإعزاز دين الله» وبهذا تمكن من إحراز أكبر انتصار عندما استطاع أن يضم إلى صفوف دعوته الإسماعيلية شاباً من خيرة شباب اليمن رجولة، وغيرة، وعلماً، وحسباً.

أجل تمكن الداعي الإسماعيلي «سليمان الزواحي» بما أوتيَ من قدرة، ولباقة، وسعة علم، وطلاوة في الحديث من استقطاب «علي الصليحي»، وإقناعه بضرورة الانتساب إلى الدعوة الفاطمية، ولم يلاقِ صعوبة في ذلك، لأن علياً، ومنذ المرة الأولى أبدى رغبة صادقة - وأظهر نية حسنة، واستهوته المبادىء التي اعتنقها أستاذه، وبذل كل شيء في سبيل دراسة هذه المبادىء، والتفوق في فهمها. أما سليمان فقد أوصى له بمبلغ كبير من المال إضافة إلى الوكالة العامة التي تعطيه صلاحية الاستمرار، والبقاء في رئاسة الدعوة.

ويقول المؤرخ عمارة اليمني:

> «فأصبح علي الصليحي عالماً فقيهاً في الفلسفة، مستبصراً في علم التأويل، وقد أدّت معارفه إلى أن ينهج نهجاً جديداً، وأن يسلك طريقاً يختلف عن طرق من سبقه من الدعاة الذين تولوا شؤون الدعوة في اليمن.. وهكذا اتخذ بادىء ذي بدء ميدان الحج حقلاً لغرس مبادئه، وتنميتها، وصار يحج بالناس عن طريق «السراة والطائف» نحواً من خمس عشرة سنة فسار ذكره في البلاد على لسان الخاصة، والعامة».

ومما يجب أن يذكر: أن هذه المدة الطويلة التي مرَّت بين موت «الزواحي» إلى حين قيام «الصليحي» بثورته في «مسار» تقرب من الخمسة عشر عاماً، وعلى الأرجح أنها كانت كافية لصقل «علي» وإنماء معارفه، وتجاربه، وتكوين جماعة تدين له بالطاعة، والاحترام، والإخلاص.

ولما كان الدين هو جامعتهم الكبرى، ومن أكبر أسباب سعادتهم، تمسك الصليحي بالعقيدة الإسماعيلية الإسلامية، وبالمثل العليا. فلم يكن يصارح أحداً إلاَّ من يثق بإخلاصه ، وبعد مروره في فترة اختبار، ولم يجعل مبادىء دعوته وقفاً على الأمراء، وعليّة القوم وأصحاب المصالح . لأنه كان يعلم تمام العلم أن هؤلاء سيعلنون الحرب عليه.

بل وجَّه اهتمامه إلى العامة، والمتحمسين للدين وللسواد الأعظم من الرعية الذين منهم تجبى الأموال. ومنهم يتألف الجيش، فنفذ إلى صفوفهم، وكسب ثقتهم. وجذب قلوبهم، وغرس في صدورهم الدين.. الدين وحده.. فليس يسيطر على العقول في تلك العصور سوى الدين... وإذا اجتمعت السياسة، والدين تحت وسائط السلطة، وخاصة في مجتمع عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب الدين، ومحافظتهم على التراث القديم.

أجل.. عرف «علي الصليحي» هذا كله، وعرف أيضاً أنه لابد له من التطلع إلى آماله، من زاوية خاصة، فدأب على تحقيق طموحه بصبر، وتؤدة، وهو يعلم أن هذه الخطة كفيلة بنجاحه، وتحقيق أغراضه، وجاء موسم الحج في سنة ٤٣٨ هـ. فكان بمثابة عهد جديد في إنجاح حركة الصليحي حيث بايعه ستون رجلاً من قبيلة همذان، وعاهدوه على الطاعة والموت، وعلم كل واحد منهم أنه جندي يبيع نفسه بيع السماح عندما تأزف الساعة الرهيبة، وتتضافر القوى على نصرة الدعوة بالأنفس والأموال. ويعتبر كل هذا نصراً أكيداً للدعوة الإسماعيلية، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا في عزة، ومنعة من قبائلهم، وكل هذا لا يتعارض مع ما ذكرنا، من اعتماد الصليحي على فئة العامة، خاصة وأن أكثريتهم من قبيلة همذان، هذه القبيلة القوية العزيزة الجانب التي بلغت شأواً بعيداً في اليمن، وهابتها جميع القبائل، وحسبت لها، وقد كان هذا الانضمام عاملاً كبيراً كبيراً، ومشجعاً لمن كان متردداً من المستجيبين، وباعثاً للكثير من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الفاطمية.

وبعد أن وصل علي الصليحي إلى هذه النتيجة.

تمكن من تكوين جماعة مخلصة، وإن تكن قليلة العدد، فـإنها

أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة. فكان أول عمل قام به هو استيلاؤه على حصن «مسّار» وتعميره، وجعله مركزاً لدعوته، وقاعدة لحروبه، ولكن هذا المشروع كان يقتضي الحيطة والاستعداد، ولهذا أخذ يعد عدة الثورة، ويهيء لها السلاح، والرجال، وساعدته الظروف إلى حد كبير، فتمكن من تكوين جيشه من بطون «همذان» الذين اقتنعوا بصدق الوعد الذي بشروا به، واستقرَّ في قلوبهم أن مواجهة الصعاب تقتضي الشجاعة، والإقدام، والإيمان بالله، وبطاعة الخليفة «المستنصر بالله» الذي ما فتىء يعدهم بالنصر الأكيد.

وبذل الصليحي، وأصحابه جهداً كبيراً في سبيل جمع الكلمة، وتوحيد الهدف، فتمكن بفضل ما أُوتيه من القوة، والذكاء، من التغلب على كل ما اعترضه : وجعل أتباعه يعتقدون أنهم إنما يحاربون إعلاءً لكلمة الله، وليس لأمر من أمور الدنيا. فكتب له التوفيق، وكان في الوقت نفسه على اتصال بخليفة مصر الفاطمي الثامن الإمام المستنصر بالله يطلعه على كل شاردة، وواردة، ويأخذ برأي المخلصين من أعوانه، ويعاهدهم على الوفاء بتطبيق سنن العدالة، وفي هذه الفترة الأولى من عمر دولته تمكن من عقد اتفاق مع الهمذانيين يقضي بأن يصلوا إليه في يوم معلوم.

وعندما شاع الخبر في أرجاء اليمن بأن علي الصليحي يستعد للثورة والقتال، وبأنه ينتظر وصول مساعدات، وتوجيهات من الخليفة الفاطمي في مصر الإمام «المستنصر بالله» ازدادت نقمة الأعداء عليه، وعلى اتباعه، فهبَّ «ابن جهور» صاحب «لهاب في حوان» على أتباع علي المقيمين في ناحيته، فأصلاهم ناراً، وأسر القاضي الفاطمي «ملك ابن مالك»، وعدداً كبيراً من قومه.. فضاق الأمر على الصليحي، وكتب إلى الإمام المستنصر بالله يطلب إليه الموافقة على القتال، ونشر الدعوة، وكان يعتقد أنه لا يمكن أن يعارض الفكرة بحال من الأحوال ولا سيما، وأن الدعوة لابد لها من تضحية وبذل دماء، وعندما وافته الموافقة أرسل إلى أتباعه أينما كانوا في اليمن يحثهم على القدوم إليه، وأخذ من جهة ثانية يبتاع العدة، والعدد. فخفَّ لمقابلته كبار رجال الدولة، من نواحي «حراز» خاصة، جاؤوا ليشاركوا في المعركة، كما وافاه آخرون من أراضي «يام» من همذان، ونواحي صنعاء، وبقاع حمير. وبعد أن تمَّ حضورهم أطلعهم على

خطته، وأخبرهم بعزمه على احتلال حصن مسار، وما يجـاوره، وتدفقت في هذه الأثناء الأموال والمساعدات.

فلما تمَّت الاستعدادات والتجهيزات أرسل أربعين رجلاً من «هوازن» وأمرهم أن يسيروا إلى «مسار» وأن يلزموا ذروة الجبل، ثم يولوا وجوههم بعد ذلك شطر «صعفان» بعد أن علم أن أهل مسار قد تأهبوا لقتاله وحصّنوه من كل جهة،وقد علم الصليحي ذلك عن طريق بعض أعوانه الذين تسللوا إلى قمة «مسار»، ووقفوا على استعدادات الأعداء.. وهنا رسم خطته فداهم الجبل المنيع، واستولى على قمته، وهي من أهم المواقع الحربية في اليمن.

وفي سنة ٤٣٩ هـ.تقدم في مسيره، فوصل إلى «عبرى سهام» وهناك طمع أهل مسار في محاربته، ولكنهم لم يتمكنوا. فاتجهوا إلى قمة الجبل للاعتصام فيها. فوجدوا أهل هوازن قد ملكوها. فاضطروا إلى الهـرب، فصعد الصليحي، واتمَّ احتـلال الجبل، ونشر الأعـلام الفاطمية في كل مكان، دون أن يواجه أية مقاومة، ولكن لم ينتصف ذلك اليوم حتى أحاط به عشرون ألف محارب من مختلف الجبال، وأنحاء البلاد لقتاله، وقالوا له: «إن نزلت وإلاّ قتلناك أنت ومن معك بالجوع » فأجابهم بما يدل على حكمته وحنكته، قائلاً «لم أفعل هذا إلاّ خوفاً علينا وعليكم أن يملكه غيرنا، فإن تركتموني أحرسه وإلاّ نزلت إليكم». فانصرفوا عنه.

وفي تلك الأثناء، عادت رسله من مصر بكتاب فيه أوامر الخليفة الإمام «المستنصر بالله» بإعلان الدولة الفاطمية في اليمن.. فقرأ الكتاب على أتباعه، وأخذ نفوذه يزداد، وبدأت الأموال والمساعدات ترد إليه من جميع الجهات، وهذا ما جعله يقوم بعمارة مسّار، ويجعل له الدروب إلى البيوت.

ونورد هنا «المنشور» الذي أذاعه على أهالي حراز وذلك بعد استيلائه على جبل مسّار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أورى زناد الحق، ورفع عماد الصدق بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق، وأنارهم ما بين الغرب، والشرق، الهداة إلى الخير، والأدلة.. الدعاة إلى أشرف المنهاج والملّـة.. خلفاء أنبيائه، وأمنائه ،

وأصفيائه، وسلالة رسله من لدن آدم، ووصل نظامهم، وأعلى مقامهم، وفتق بالنور أيامهم، ونشر بالعدل أعلامهم. منهم أعلام الدين، والدعاة إلى الحق المبين الشيعة الميامين. والسلالة الطيبين، آل طه ويس وصلاته على من ختم به الرسالة، وفتح بالأئمة من عقبة أبواب الدلالة سيدنا محمد النبي ، وعلى أخيه، ووصيه «علي».. وعلى الأئمة من نسل الحسين الزكي، ورثة التنزيل، وخزنة التأويل.

وأفضل صلاته، وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم، والقائم من بعدهم بقية السلف، وخيرة الخلف مولانا «معد» أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى خلفه وسلفه.

أما بعد يا أهل حراز ألهمكم الله رشدكم، وجعل الجنة قصدكم. فلم أطلع إلى حصن «مسّار» متجبراً باغياً، ولا متكبراً على العباد عاتياً، ولا أطلب الدنيا وحكامها، ولا طالباً ملك غوغائها، وطغامها. لأن لي بحمد الله ورعاً يحجزني عما تطمح النفوس إليه، وديناً أعتمد عليه، وإنما قيامي بالحق الذي أمر الله عز وجل به والعدل الذي أنزله في محكم كتابه. أحكم فيه بحكم أوليائه، وسنن أنبيائه، وأدعو إلى حجته الذي في أرضه والقائم بفرضه.

لست من أهل البدع، ولا من ذوي الزور والشنع الذين يعملون في الدين بآرائهم، ويحكمون بأهوائهم. . بل أنا متمسك بحبل الله المتين.. عامل بما شرع الله في الدين، وداعٍ إلى أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين.

لا اقول إلّا سدداً، ولا أكره في الدين أحداً. فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها.. وما الله يريد ظلماً للعباد.

واعلموا يا أهل «حراز» أني بكم رؤوف، وعلى جماعتكم عطوف، للذي يجب عليَّ من رعايتكم، وحياطتكم، ويلزمني من عشرتكم، وقرابتكم.

أعرف لذي الحق حقه، ولا أظلم سابقاً سبقه، وأنصف المظلوم، وأقمع الظالم الغشوم، وأبث فيكم العدل، وأشملكم بالفضل. فاستديموا ذلك بالشكر، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر، الذين من بقايا أهل الكفر فيحملوكم من ذلك على البغي، والعدوان، والخلاف، والعصيان، وكفر الأنعام والإحسان تستوجبوا بذلك تغيير الإنعام وتعجيل الانتقام.

وكتابي هذا حجة عليكم، ومعذرة إليكم. والسلام على من اتبع الهدى، وتجنب أمور الردى.

والحمد لله على ما أعاد وأبدى... وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى، سيدنا محمد النبي وآله الأئمة الشهداء، وسلَّم تسليماً. حسْبنا الله ونعم الوكيل

«علي محمد الصليحي»

مما لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ الصليحي، وانتشار أمره بهذه السرعة، استفزّ جماعة من زعماء اليمن. فأعلنوا خوفهم من تلك الانتصارات التي يحرزها يوماً بعد يوم، وكان أن قام جعفر بن القاسم بن علي العياني صاحب صعدة في جمع كبير من أصحابه وهاجم حصن الآخروج وقاتل أهله وكان عليه «الحسين بن المهلهل» من أصحاب الصليحي، وجماعة من «حمدان» و «بني شهاب»، وانتهز هذه الفرصة أيضاً «جعفر بن العباس الشاوري» صاحب مغارب اليمن الأعلى. فقام على رأس جيش كبير من «حراز وكرار» وغيرهما، وقصد «عبْرى» أسفل جبل «مسّار» وأراد الصعود إليه،.فنزل أنصار الصليحي للدفاع عن بقائهم، وانتصاراً لمبادئهم، لأن الانتصار معناه البقاء لدولتهم الفتية، وأما الهزيمة فمعناها الفناء التام، والقضاء المبرم، ولما تكاثر القوم على جيش الصليحي خشيَ الهزيمة، وما يترتب عليها من سوء العاقبة. فنزل بنفسه، ومن بقي معه من القوى الاحتياطية، واستمدَّ من الحرج قوة.. فشدَّ بذلك. عزم أتباعه، وحميَ وطيس القتال، فربح الجولة.

أما جيش ابن عباس فقد لاذ بالفرار مغلوباً على أمره، ولكنه ما لبث أن عاد ثانية بقوة أكثر عدداً، وكان يطمع في النصر هذه المرة أيضـاً... ولكن تدابـير الصليحي القتاليـة، وأساليبـه مكنته من السيطرة على الموقف، وقتل ابن عباس، وكثر أتباعه المقاتلون، وقد غنم الصليحي، وأصحابه الكثير من العدة، والسلاح، والأمتعة، فقوي بذلك مركزه، وازداد نفوذه، وارتفعت روحه المعنوية، وخافه من كان يترقب من القبائل نتيجة هذه المعركة، وفي هذه الفترة اضطرَّ الشريف «جعفر بن القاسم» عند سماعه بالأنباء، فتـرك حصن الأخروج، ونجا بنفسه.

وكانت هذه التجربة اختباراً لقوة الصليحيين، وتعاونهم، وتمسكهم بمبادئهم، كما أن شخص الصليحي، وجلال قدره، وحسن بلائه في تأييد أمره، أسكن النفوس الغضبى. فسار بالأمر قدماً، واستدل على «حضور» وأخذ حصن «بتاح».. وهنا خاف أهل حراز النزال، فقرروا الدخول في طاعته إلا «ابن جهور» فقد صمَّم على الاستمرار في المكابرة، واعتصم في حصن «لهاب»، ولكن الصليحي كلَّف القائد الفاطمي «عامر بن سليمان الزواحي» فصعد إلى جبـل «شبام»

و «بيت عناد» ومعه جماعة من بني «قليد وهوازن» و «بني الهجري» ثم وصل «أحمد بن المظفَّر الصليحي»، وجماعة من الحجازيين وفيهم «عباس بن المكرم» فعمروا داراً في قمة جبل «شبام» كما عمروا جبل «بيت عناد» استعداداً لمقاومة «ابن جهور»، وبعد أن تحصنوا في هذه الناحية، اتجه جيش الصليحي إلى محاربة «ابن جهور» وكان في «لهاب»، بعد أن أقاموا الحصون في هذه الناحية.... فضيقوا عليه الحصار، وفكوُّا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم ومنهم القاضي «ملك ابن مالك» ولكن ابن جهوَر استمرَّ في عناده، وتمكن من أن يؤثر على أتباعه، ويقنعهم في الاستمرار في المقاومة.

ولما ضعف جيشه، ورأى أن مصيره إلى الهلاك استعان «بنجاح» في «زُبيد» وكانت علاقته مع الصليحي حسنة، فتوسط بالصلح، ولكن وساطته لم تثمر، وتمادى «ابن جهوَر» في بغيه، فاضطر الصليحي عندئذٍ إلى محاصرة حصن «زبّار» حتى سقط، وهنا رضخ ابن جهور وسلَّم نفسه إليه مكرهاً في مسَّار، فأنزله الصليحي في ضيافته، وأحسن إليه.

ويدل تسامح الصليحي مع عدوه على نبله، وعراقته، وطيب محتدة، فقد كان من المفروض، والمنتظر أن يأمر بقتل ابن جهور الذي تسبَّب في إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن، حتى أنه استمات في سبيل الوصول إلى النصر، وتحريض الحانقين، والناقمين عليهم.

بالرغم من هذا كله، وجد الصليحي أن المعاملة الحسنة أجدى، وأنفع في مثل هذه المواقف ، وآثر أن يكسب ثقة الناس بالمزيد من أعمال الخير، وقد تحققت سياسته تلك، فانقسمت منطقة «لهاب» إلى فريقين: فريق انضمَّ للصليحيين، وقدَّم المساعدات المالية، وفريق استمرَّ في عداوته، مما جعل الصليحي يرد كيدهم إلى نحورهم، ويجتذب إليه الفريقين أخيراً، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل نزل إلى «عبرى دعاس» وعقد مؤتمراً ضمّ أهل حراز جميعهم حذَّرهم فيه من الخلاف عليه، والشقاق، وأعلن قيام الدولة الفاطمية، كما وعدهم بحسن السياسة، والمحافظة على الشرع.

وافتتح الصليحي حكمه على الأسس التي أعلنها، وتقدَّم في تنفيذ

سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة، وكان من ضمنها اتباع سياسة المهادنة إزاء أمراء اليمن، وأصحاب الدويلات المجاورة.. هـذا إذا نفعت السياسـة، وإلاّ فليس أمـامهم إلاّ الحـرب، وإخضاعهم بالقوة. ولما ملك الصليحي جبال حرّاز، وما يجاورها. خشيَ ملوك تهامة أيضاً من بـأسه الشـديد، وتملكـه الحصون، والبلدان، وخاصـة حصن «حضور» ومـا يجاوره... وهنـا بدأت التقولات، والإشاعات، وكان لابد له من مهادنة «أبي حاشد» صاحب صنعاء، كما هادن «يحيى بن إبراهيم الصحارى» أباه من قبل. فلما مات يحيى سنة ٤٤٠ هـ. أرسل الصليحي بعض أصحابه، وبني عمه إلى صنعاء لتعزيته في أبيه، والإحسان إليه، ولكن أبا حاشد اعتبر تطلعات الصليحي تدخلاً في أموره، فساءت العلاقة بينهما مما أدى إلى قيام حرب بين الفريقين، وقد انتهت تلك الحرب بمقتل صاحب صنعاء، واستيلاء الصليحي عليها، وبـوصولـه إلى هذه المرحلة، أقبل الناس على خطب وده، والانضواء تحت رايته، والدخول في طاعته.

كان الإمام الزيدي «الناصر الديلمي بن الحسين بن محمد بن زيد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب» قد وصل من الديلم إلى اليمن سنة ٤٣٧ هـ، وبوصوله أعلن المذهب الزيدي الشيعي. فانضمَّت إليه قبائل كثيرة في صعدة، ومنها سار إلى صنعاء وملكها، فطرده «يحيى ابن أبي حاشد» و «الشريف جعفر بن الإمام منصور العياني». فعاد إلى «ذي أبين». أما ناصر هذا، فكان من العلماء الأجلاء، وله تفسير للقرآن في أربعة مجلدات، وقد اعتبر الناصر استيلاء الصليحي على صنعاء يشكل تهديداً له ولغيره من زعماء اليمن، فكان أن اتصل «بنجاح» صاحب تهامة، وطلب منه إخراج الصليحي من صنعاء، وهذه البادرة التي ظهرت من الناصر كانت مدعاة لغضب الصليحي.

وفي هذا العام ثـار الهمدانيـون، وهم أكبر القبـائل التي دانت للصليحيين، وفكروا في خلع طاعتهم، والخروج على حكمهم، على الرغم من أن الصليحي كان يسير فيهم سيرة الحق والعدل... فاتصلوا بالشريف «القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العياني» واستنهضوه ، وأتباعه فاستجاب لطلبهم، وخرجـوا جميعاً سنـة ٤٤٨ هـ. لغـزو الصليحي. فتقابـل الجمعان بـالقرب من قـرية

«الهداية» ببلاد «حاشد». فردهم الصليحي، وحاصر الشريف، ومن معه في أحد الحصون، ونصب عليهم المنجنيق، ولكن أتباع الشريف دافعوا دفاع الأبطال، ومات أكثرهم بسبب نفاد المؤونة.... وعند ذلك اضطر الشريف إلى تسليم نفسه للصليحي، فأكرمه ، وخلع عليه، ولم تكن سياسة الصفح التي اتبعها الصليحي في هذه المرة سياسة هوادة أو تردد، بل قصد منها تسكين الثارات، لأن في تسكينها إعادة الأمن، والخير، والسعادة، والاستقرار لليمن ولليمنيين.

وتمشياً مع هذه السياسة القائمة على المهادنة، والملاطفة.. كان الصليحي يلاطف القائد نجاحاً صاحب الدولة الحبشية في «زُبيد» و «تهامة» التي حملت لواء دعوة أهل السنة في اليمن بعد دولة «بني زياد» ولكنه كان يدرك أن دولته الفاطمية الفتية لا يمكن أن تكون لها شخصية معنوية قوية، وكيان متين إلا إذا قضى على أكبر منافسيه وهو «نجاح». وكان الصليحي يلاطفه حتى قوي مركزه، ودانت له معظم الجزيرة اليمنية. ثم بدأت العلاقات تتوتر بين الطرفين بسبب سعايات الإمام الزيدي «أبي الفتح» صاحب «صعدة» الذي أفسد بين الصليحي، وصاحب «زُبيد» ، فحلَّت الوحشة محل الأنس، وانقلبت الصداقة إلى عداوة، فأرسل نجاح جيشاً قوياً لمحاربة الصليحي، والتقى الفريقان في خلف «صفعان» في «الجنة» المتصلة بتهامة، ودارت بينهما معارك طاحنة، ومصادمات عنيفة، وكان الانتصار الأخير للصليحي، ولجيشه المؤلف من العرب على جموع الأحباش.

ومهما يكن من أمر.. فإن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة ٤٥٠ هـ. في «ابن طرف»، وكان جيشهم يتألف من عشرين ألفاً، فسار إليهم الصليحي في الفين وسبعمائة فارس، وهنالك التقى الجمعان «بالزرائب» فدارت الدائرة على الأحباش، ولم يسلم منهم إلا ألف لجأوا إلى جبل يعرف «بالعكوتين» فوق بلدة «الزرائب».

وفي سنة ٤٥٢ هـ. مات نجاح «بالكوراء» ويروى: أن الصليحي هو الذي دبَّر قتله، على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض، على أن أكثر المؤرخين يؤكدون: بأن موت

«نجاح» كان طبيعياً ، ولكن هذا الموت لم يكن حداً فاصلاً بين الطرفين. بل على العكس كان بداية لعهد طويل من النزاع بين الصليحيين، والنجاحيين الأحباش ومن الواضح أن «سعيد بن نجاح» تولّى الزعامة على الأحباش بعد والده. أما الصليحي فقد أظهر مرونة، وبعد نظر، وبراعة في السياسة، وذلك عندما أجّل أمر النجاحيين، وقرّر أن يقضي أولاً على الفوضى الضاربة أطنابها في دويلات اليمن الأسفل، وبعد ذلك يتجه إلى عدوه الرئيسي، وكل هذا حتى لا تشغله جبهة أخرى في داخل البلاد، وفي هذا تتجلّى حكمته، ورأيه السديد. فزار «مسّار» و «صنعاء» زيارة قصيرة، ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل، واستولى عنوةً على جبل «صبر»، وعلى بلاد «بني الكرندي» ، وملوك «المعافر» وحصن ـ «الدماة» كما استولى على بلاد «الحسين التبعي» صاحب حصن «حب» و «بعدان» و «السحول» و «الشواني» ، ودخل «الجَند» وهي يومئذٍ مدينة اليمن الأولى، ولم يكن في اليمن أشهر منها، ومن مدينة صنعاء، وذلك منذ عهد الجاهلية حتى عهد الصليحي.

ثم سار إلى «عون» واستولى على بلاد «بني معن» الذين كانوا يملكون «عون» ثم هادنهم أخيراً، وسلّم إليهم بلادهم، بعد أن بذلوا له السلم، وأعلنوا الخضوع، والائتمار بأمره، ثم قصد بعد ذلك «تهامة»، وسار إلى «زُبيد» وافتتحها، واحتلّ «التهائم» كلها، وطرد منها أولاد «نجاح» الذين فرّوا إلى جزيرة «دهلك» في البحر الأحمر، واستقروا فيها.

وهكذا طوى الصليحي بلاد اليمن طياً، فرضخت لنفوذه، وسلطانه، وافتتح كل ما كان مغلقاً في وجهه، فلم يأتِ عام سنة ٤٥٤ هـ إلاّ وقد ملك الأقطار اليمنية، وقلاعها، وحصونها، ومدنها، وسهولها، وجبالها، كافة وامتدّ نفوذه من «مكة» حتى «حضرموت»، وتمنّعت عليه «صعدة» بعض الوقت، ولكنه ما لبث أن احتلّ «القائم» وملكها، وبذلك تمّت أمور الدولة، واستقرّت كلمة اليمن وتوحّدت.

وجعل الصليحي «صنعاء» عاصمة لدولته، وبنى فيها القصور، وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد، ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حكم عادل قوي يقوم على

الحرية، والحق، والعدالة، وكل هذا كان من برنامج «الملك علي الصليحي» الذي أخذ يوّطد دعائم ملكه على هذا الأساس، ويرسي قواعده، وينظم سياسة البلاد، وإدارتها، ويولي في المناطق والحصون من يرتضيه، ويثق به من الولاة، والحكام، والقواد. فولّى على «تهامة» «الأمير أسعد بن شهاب الصليحي» صنوَ السيدة الحرة «أسماء بنت شهاب» زوجته.. وهكذا دخل «زُبيد» سنة ٤٥٦ هـ. وسكن «دار شحار» فأحسن السيرة في الرعية، وأذن لأهل السنة في إظهار مذهبهم، كما أمرهم بذلك الصليحي، وعامل أيضاً أرباب الدولة النجاحية بالحسنى.

وكان الصليحي قد أقسم ألا يولي «التهائم» إلَّا من يزن له مائة ألف دينار، ثم ندم على ذلك، حينما أراد أن يوليها «أسعد بن شهاب» وهنا وزنت له زوجته الملكة أسماء عن أخيها المال المطلوب... فقال لها:

من أين لكِ هذا؟

فقالت:

«من عند الله... إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، فتبسَّم وعرف أنه من خزائنه... فقال:

هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا وغير أهلنا، ونحفظ أخانا.

وعين الصليحي أيضاً ابنه «الأمير المكرَّم» على «الجنَد» وما يليها... كما عيَّن أخاه «عبد الله» على بلدة «ذي جبلة» ، فأخذ يصلحها، ويعمرها.

لم يكن اهتمام الصليحي مقصوراً على اليمن فحسب، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده، وبالأخص الحجاز، وهي أقرب البلدان إلى اليمن، وأهمها في نظر المسلمين، وأحوجها إلى الأمن والاستقرار، وكان يتفانى في سبيل الدعوة الفاطمية والخليفة الإمام المستنصر بالله، فكان ينفذ أوامره طائعاً متبركاً برضاه، معتزاً بثقته. فلمَّا خرجت «مكة» عن طاعة المستنصر بالله، وقطعت الخطبة التي كانت باسمه سنة ٤٥٣ هـ. أرسل الصليحي إلى واليها «شكر الحسيني» يحذره مغبة خروجه عليه، وتبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوي

على الكثير من التهديد، والوعيد. ولما عيل صبر الصليحي، وضاق صدره طلب من الخليفة المستنصر بالله أن يأذن له بإزالة الشريف «شكر» من مكة، فأجابه الإمام المستنصر بالله بكتاب ينهاه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلاً:

«إياك أن تلقى الله بدماء بني فاطمة»، فأطاع الصليحي أمر الخليفة الإمام المستنصر بالله مكرهاً على ما كان يجري في البلاد المقدسة. ثم توجه إلى «مكة» أخيراً سنة ٤٥٤ هـ ، وقضى فريضة الحج ومعه أمراء اليمن، وزعماؤها، فانتزعها من «بني أبي الطيب»، ولما توفي «شكر» خلفه «ابن جعفر» رئيس الهواشم، وتزوج ابنة «شكر»، فشن حرباً على السليمانيين، وأخرجهم من بلاد الحجاز، واستقل بإمارة «مكة»، وأقام الخطبة للخليفة الإمام «المستنصر بالله»، ولكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة، لأنه لم يلبث أن انحرف عنهم، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي «القائم».

ولما انتهى الصليحي من فريضة الحج، أخرج من الأموال، والصدقات للبيت، وللحرم، وللمناسك ما يفوق حد التصور، وعامل الناس بالحسنى، وأظهر العدل، والإحسان، وعمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال، فطابت قلوبهم، ورخصت الأسعار، وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف مثله من قبل، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة ، ولم تقف أعماله هناك عند هذا الحد، بل إنه شنَّ حملة تأديب على القبائل الثائرة التي كانت تعتدي على الحجاج، وردَّ «بني شيبة» عن قبيح أعمالهم، وأفعالهم بالحجاج، وردّ إلى البيت من الحلي، والأثاث ما كان «بنو الطيب» الحسينيون قد أخذوه عندما تملكوا بعد «شكر» وكانوا قد عروا البيت، والميزاب، ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف في هذه البلاد، وتحمَّل ديات القتلى من ماله الخاص، فكسب بحسن سياسته، وإدارته رضا الخليفة الإمام المستنصر بالله، فضلاً عن ثقة الكثيرين من البلدان الإسلامية المجاورة، لما قدمه من خدمات للحجاج عامة، وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض، وما جلبه من الأقوات إلى أهالي تلك البلاد... فلهجت الألسن بالدعاء له في كل مكان، والثناء على كرمه، وأفعاله.

أقام الصليحي في الأراضي المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة ٤٥٥ هـ. فخطب للخليفة الإمام المستنصر بالله، وعاب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين. وفي أثناء إقامته في مكة، راسله الأشراف الحسينيون، المغلوبون على أمرهم، وطلبوا منه أن يختار من بينهم والياً عليهم لكي يبذلوا له الطاعة، فأقام على البلدة واليها السابق «محمد بن جعفر» وأعطاه مالاً وسلاحاً، وأصلح بين العساكر. فدلَّ بكل هذا على حسن سياسته لأنه لم يتعنَّت مع الحسينيين، ولم يظلمهم، وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم، وخاف أن يترك البلدة قبل أن تستقر الأمور فيها، فتقع في أيديهم، ويستمرون في عنادهم، وخلافاتهم، فاستعمل معهم اللين، وبذلك نجح في تحقيق سياسته مؤقتاً، وقفل بعد ذلك عائداً إلى صنعاء.

ومن الجدير بالذكر.. أن الشريف «محمد بن جعفر» أمير مكة لم يعمل طوال عهده الذي بدأ من سنة ٤٥٣ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ. على تنظيم الأمور في الأراضي المقدسة، وإقرار الأمن بها، بالرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة العباسي أحياناً، ومن الخليفة الفاطمي أحياناً أخرى، بل أساء التصرف ، والسيرة فيها، وأصبح الحجاج في أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم، كذلك لم يبد من هذا الشريف ما يشعر برغبته في الاستقلال عن الخلافة العباسية، أو الفاطمية، بل دان لكل منهما بالطاعة في فترة متقاربة حتى وصفه «أبو المحاسن» في كتابه «النجوم الزاهرة».

«بأنه كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين، وتارة مع الفاطميين المصريين، ويظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد المقدسة، ومصالح المسلمين جرياً وراء المال... وهنالك من يقول: «إن هذا التلون يعود إلى دوافع سياسية، وأخرى اقتصادية».

وبعد عودة الصليحي إلى «صنعاء» شكر له الخليفة الإمام المستنصر بالله حسن صنيعه، وامتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء في الأراضي المقدسة، ولكن الشريف «محمد بن جعفر» رجع إلى ما كان يفكر به، وخرج على من أحسن إليه. فهاجم مدينة «الحلي» واستولى على ما فيها من متاع للصليحي، ولم يكتفِ بذلك، بل عمل على إثارة الفتن، وتهييج العامة، وفي أثناء غيابه عن اليمن أيضاً، قامت الفتن،

والثورات في بعض أنحاء المملكة. فثار عليه قوم من «عَنْسْ وزُبَيْدْ» وأظهروا الخلاف، والعصيان، والتفوا حول رجل منهم، ثم التجأوا إلى جبل «مثوة» وما جاوره من الجبال، وعندما عظم فسادهم.. قصدهم الصليحي، واقتحم معاقلهم عنوةً حتى دانوا له بالطاعة.

عاد الملك «علي الصليحي» للتفكير في شؤونه الخاصة، وأمور الملك، ومنها ولاية العهد، وكان ولده الأكبر «الأمير محمد» قد بلغ مبلغ الرجال. فرغب في أن يوليه ولاية العهد لينوب عنه في الملك في حياته، وبعد مماته. فكتب إلى الخليفة الإمام المستنصر بالله سنة ٤٥٦ هـ. يخبره بما استقرَّ عليه رأيه. فورد إليه سجل الخليفة الإمام المستنصر بالله بالموافقة، وأعطاه لقب «الأمير الأعز شمس المعالي»، وأذن له أن يعلن هذا اللقب على منابر اليمن، وفي ذلك الوقت توفي «الأمير أسعد بن شهاب» حاكم «زُبيد» وما يتبعها. فرأى الصليحي أن يولي ابنه «الأمير محمد» ما كان عليه خاله أسعد ، وأعطاه صلاحية التصرف في الشؤون العامة لكي يختبره، ويدربه على الحكم.

وصل «الأمير محمد» إلى «زُبيد» سنة ٤٥٧ هـ. وبعد خمسة أشهر من حكمه سار والده، ووالدته، وولدهما الثاني «المكرَّم» سنة ٤٥٨ هـ. إلى «زُبيد» وأقاموا في ضيافته مدة قصيرة، وبعدها عزموا على العودة إلى صنعاء. فصحبهم مودعاً، وكان يريد أن يبلغ معهم «الغمدَ»، ولكن عندما وصل إلى «الصقع» أصابته الحمَّى، فأمره والده بالرجوع إلى «زُبيد»، واشتدَّ المرض عليه، ولم يمهله القدر فمات سنة ٤٥٨ هـ. وكان له من العمر سبع وعشرون سنة. وصل الخبر إلى والده، وهو على وشك الطلوع إلى حصن «مسّار» مع الملكة أسماء وقفل الملك عائداً إلى «زُبيد» بجمع من أهله، وأركان دولته حيث قاموا بمراسم دفنه.. وبعد عودته إلى «صنعاء» كان عليه أن يتلقى خبر وفاة ابنته «ميمونة» التي ماتت غماً على أخيها... وقبل أن تصل رسل الصليحي إلى مصر لإعلام الخليفة بالنبأ أرسل إليه سجلاً يعزيه بوفاة ولي عهده. ويعين «الأمير المكرم» ولياً للعهد...

في تلك الفترة أوفد الصليحي إلى القاهرة وفداً مؤلفاً من: القاضي عمران بن الفضل، ونجيب بن عفير، ويوسف بن محمد، وعنتر بن

غشم.. يحملون للخليفة رغبة الصليحي بزيارة القاهرة، والتشرف بالمثول بين أيدي الخليفة، ولكن الإمام المستنصر بالله رفض طلبه. شفقة عليه من بعد المسافة، ومشقات السفر.

ولعل سبب هـذا الرفض يعود إلى أوضاع مصر العامة، ووجودها تحت حالة «الشدة العظمى» التي استمرَّت من سنة ٤٥٩ هـ إلى سنة ٤٦٦ هـ. وهي المدة التي تعرّضت خلالها للفوضى وللخراب، وللفساد وللنهب.. ومن الجدير بالذكر أنه خلال تلك الفترة كلّف الخليفة الإمام المستنصر بالله «بدراً الجمالي» الأرمني بالوزارة، فتغلب على المصاعب، وأعاد الأمن، والثقة والاستقرار.

وفي سنة ٤٥٩ هـ غادر الملك «علي الصليحي» صنعاء قاصداً الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وترك لولي عهده «الأمير المكرَّم» إدارة شؤون المملكة بالنيابة عنه، وكان قد أرسل قبل سفره خمسين أميراً من أمراء اليمن المغلوبين على أمرهم، ومائة وسبعين من آل الصليحي، وغيرهم ممن أرادوا أداء فريضة الحج من قبائل «يام» و «جنب» و «سخان» و «أهل حراز»، وقد قصد من إرسالهم قبله تفادي ازدحام الطريق بهذا العدد الكبير من الرجال، ثم تبعهم بعد أن أرسل قبله ألفي فارس وخمسمائة فرس مطهمة بالسروج، ومحلّاة بالذهب، والفضة، وخمسين هجيناً، وغير ذلك من الهدايا، والعطاء مما لا يمكن إدخاله تحت حصر.

ولكن نار الحقد، وحب الانتقام ظلّت مستعرة في قلوب «بني نجاح» وزعيمهم «سعيد الأحول ». فكانوا يتربصون، ويتحينون الفرص للإيقاع بالصليحي الذي اعتبروه سبب زوال ملكهم، وعلم «الصليحي» بتحركات مريبة من قبلهم، فاستقدم إليه أحد متقدميهم «فرج البيشتي» وهو من الأحباش العبيد المسموعي الكلمة بين بني قومه، فذكره بإحسانه إليه، وتقديمه له، ورفعة مكانته. فأنكر «فرج» أن يكون له: ضلعاً فيما يجري، وأقسم الإيمان المغلظة عن استعداده للذهاب، وإحضار رأس سعيد الأحول إذا أراد الملك، ولكن الأمر جاء على العكس، فإن «فرجاً» لما وصل إلى زُبيد أخذ يحرّض العبيد، والأحباش على الثورة، ويوغر صدورهم، فأمر الصليحي بإلقاء القبض عليه، وقتله. وهنا ثارت نفوس العبيد، وشقوا

عصا الطاعـة، وهاجمـوا ولاة الصليحيين وقتلـوهم ومنهم: «أبو السعود» و «أحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي» كما قتلوا كل من كان معهما من أهل «حران» ثم نهبوا كل ما كانوا يملكونه من أموال، ومتاع. وفي الوقت نفسه استدعوا كل من كان على رأيهم من العبيد، والأحباش، «بتهامة» والحجاز، وجندوا جنودهم، وكانوا قد علموا أخيراً أن الصليحي في طريقه إلى الديار المقدسة، وحيداً، لا يرافقه أحد من المحاربين، وأهل البأس، فرجاله قد سبقوه إلى الـديار المقدسة، وأن جميع أموالـه، وأثقالـه مبثوثـة فيما بـين «هجر» و «المهجم»، وهذه البلاد قد تمهَّد مهادها، واستقام عمادها، وأمنت السبل، وخضع فيها كل عزيز، ولم يكن مع الصليحي في «المهجم» إلَّا ابنه «الموفق» وزوجته «أسماء بنت شهاب» وأخواه «عبد الله» و «إبراهيم» وجماعة من بني الصليحي، فلما علم أن الأحباش في طريقهم لقتاله أنفذ عبيده الذين كانوا معه لمقاتلة العدو المهاجم، وكان ظنه أنهم يقدرون فضله، وإحسانه، ويفدونه بالمهج والأرواح. فذهبوا مسرعين، متظاهرين بالحماسة، وفي قلوبهم تكمن الخيانة، والغدر ، فلما التقوا بأبناء جلدتهم انضموا إليهم، وفي نيتهم الشر، وقالوا للمهاجمين: «إن فاتكم غداً لحق بأصحابه وعسكره، وامتنع عليكم».

فساروا مجدين، حتى باغتوه في قرية يقال لها «أم الدهيم» فانقضوا عليه، ولم ينفع دفاعه، ودفاع أخوته، وأبناء عمومته.. فوقعوا تحت حراب الكثرة من العبيد، وهكذا قتل الصليحي، وكل من كان معه باستثناء «الأمير الموفق» و «مهنًا بن علي المظفر الصليحي» وكانا قد اتجها إلى مكان السيدات لحمايتهن، ولكن العبيد ما لبثـوا أن حاصروا المكان... واستمرَّ حصارهم أربعة أيام، وعندما استأمن مهنا، خرج إليه «الأحول» ، وأعطاه ميثاقاً بالمحافظة على الحرائر الصليحيات، وأقسم أنه سيطلق سراحهن ليسرنَ إلى صنعاء، فوثق بقوله، ولكن الأحول نقل النساء إلى دار أخرى، ثم غدر بكافة الرجال، وقتلهم عن آخرهم ، ونهب كل ما كان معهم من أموال، وحلي، وهدايا كان الصليحي قد أعدها لينفقها على الحجاج المسلمين، ومرافقيه من الخدم، والعبيد.

وهنا... سألت الملكة أسماء «سعيداً الأحول» أن يسمح لها ومن معها

من النساء بالعودة إلى صنعاء فامتنع، وسار بهن إلى «زُبيد» ومعه رأسا الملك «علي الصليحي» وأخيه «عبدالله» محمولان على رمحين أمام هودج الملكة «أسماء» وقد نصب الرمحان فيما بعد أمام الشباك الذي تنظر منه الملكة أسماء في الدار التي حلّت بها، إلّا أن سعيداً بذل ما استطاع من الجهد في سبيل المحافظة على صيانة السيدات الصليحيات وكرامتهنّ... ونحن عندما نتوقف لنسدل الستار على تاريخ هذا الرجل العظيم «علي الصليحي» نقول:

إن عهده يعتبر بالنسبة لتاريخ اليمن من أنضر، وأسعد العهود، ويكفي أن يكون معدوداً بين الرجال الذين أسسُّوا دولة كبرى، ومن الذين قلَّ أن يجود بهم الدهر.. خاصةً وأن اليمن لم تجتمع لملك واحد، بل كان الرئيس منهم من يتسنّى له امتلاك إقليم صغير، أو حصنٍ حتى يأتي من هو أقوى منه فينتزعه. فاليمن كانت تعاني فوضىً الإمارات الصغيرة المتنابذة. أما الصليحي فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد.

يقول المؤرخ عُمارة اليمني:

«إن هذا أمر لم يعهد في جاهلية، ولا في إسلام».

وذكر «العرشي» في كتابه «بلوغ المرام»:

> «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع «لعلي بن محمد الصليحي»، فإنه استولى على اليمن سهله، وجبله، شماله، وجنوبه، شرقه، وغربه في مدة يسيرة بعد أن قهر أعداءه فهو لذلك لا يقل في نظرنا عن بعض القواد الفاتحين الذين لمع إسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزوه من انتصارات، وما قاموا به من فتوحات وأعمال مجيدة، وإن يكُ ذلك لمدة وجيزة».

من هنا نرى.. أن الصليحي حكم البلاد اليمنية حكماً مطلقاً، ولكنه كان حكماً مستنيراً عادلاً قائماً على أسس حكيمة، يتجلّى فيها السمو، والرفعة. وبالرغم من أنه ينتسب إلى الإسماعيلية فإنه لم يكره أحداً على الدخول في عقيدته، ولكنه لم يكن يغفر لأحد تهاونه في أمور الدين.

وذكر المؤرخ «الفاسي» في كتابه «تحفة الكرام». عن عهده فقال إن فيه:

«طابت قلوب الناس، ورخصت الأسعار، وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف له مثيل من قبل، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة».

وقال «ابن الجوزي» في «مرآة الزمان» إنه:

ردّ بني شيبة عن قبيح أعمالهم، وأفعالهم مع الحجاج، وردَّ إلى البيت من الحلي ما كان «بنو الطيب» الأشراف قد سلبوه، وهؤلاء ملكوا الديار المقدسة بعد «شكر الحسيني» وعرّوا البيت، والميزاب».

ومهما يكن من أمر... فإن ما قام به الملك «علي الصليحي» من إصلاحات في الأراضي المقدسة أكسبه ثقة الكثيرين من البلدان الإسلامية.. من جهة أخرى فإن تسامحه مع علماء أهل السنَّة والسماح لهم بممارسة طقوسهم، وشعائرهم بحرية، أعاد ثقة الناس به.

وكذلك فعل «أسعد بن شهاب» عندما كان والياً على زُبيد سنة ٤٥٦ هـ فإنه أحسن السيرة في الرعية، وأذن للناس، وخاصة لأهل السنة بإعلان عقائدهم بحرية.

وكان الصليحي أديباً، وشاعراً يعطف على الأدباء، ويصل الشعراء، وذلك ليقينه بأن الشعر يجب أن يكون السلاح الماضي في خدمة الدولة، وأنه من أهم وسائل الدعاية لها.. فلم يشأ أن يترك هذا السلاح دون أن يشهره في وجه خصومه للدفاع عن دولته، والمباهاة بها والإشادة بذكرها. ومن أشهر الشعراء الذين عاشوا في عصره: عمرو بن يحيى الهيثمي، والحسين بن علي القمّي، والحسن بن أبي عُقامة.

هذا وتذكر كتب الأدب اليمنية بعض المقطوعات «لعلي الصليحي» قالها في مناسبات عديدة، ومنها قصيدة يذكر فيها احتلال حصن «وراخ».

يقول:

ما اعتذاري وقد ملكتُ وراخاً ... عن قراع العدا وقود الرعالِ

ويقول:

وألذُّ من قرع المثاني عنده ... في الحرب «ألجم يا غلام وأسرج

خيلٌ بأقصى حضرموت شدّها ... وصهيلها بين العراق ومنبج

وكان «علي الصليحي» بالإضافة إلى كل ما ذكرناه عالماً، وفقيهاً مستبصراً في الفلسفة، وعلم التأويل، كما كان خطيباً مفوَّهاً.

وفي الختام لابدّ من القول: بأنه، وإن يكن مجهولاً بالنسبة للتاريخ العربي.. فإن تاريخ اليمن يعتبره مؤسس دولة، ومقيم دعوة، وباني حضارة إسلامية ساهمت كثيراً في توطيد الأمن، والعدالة، والحرية.

الملك المكرّم الصليحي

ظهر الملك «المكرم بن علي الصليحي» على صفحات تاريخ اليمن بعد مقتل والده الملك «علي الصليحي» الذي مرَّ ذكره. وقد اتصف المكرَّم بالشجاعة، وكرم الأخلاق، وعلو الهمة والتسامح، وكأنه نسخة عن والده.

وصفه صاحب «قلادة النحر» بقوله: كان المكرَّم ضخماً، شجاعاً، وفارساً مقداماً. ومهما يكن من الأمر، فقد وقع المكرّم في حيرة من أمره، حينما وصلته الأنباء بمقتل والده ومن معه، وأسر والدته ونساء أسرته وفي تلك الفترة تأهب أعداء الدولة الصليحية للانتفاض مستغلين هذا الحدث الكبير. فحاصر الأحباش «مالك بن شهاب الصليحي» في حصن «مسَّار»، وتآمرت معه قبائل من «كحلان» و «وهران» و «عنس» و «زُبيد» و «يحصب»، وامتدت نار الثورة حتى «صنعاء» العاصمة نفسها فاتخذ قراره بالتصدي للمتآمرين ، واستمدَّ من اليأس قوة، وأخذ يشجع من ظلَّ مقيماً على العهد من أتباعه.

قال المؤرخ «إدريس عماد الدين» في تاريخه «عيون الأخبار»:

كان المكرَّم يثبت أصحابه على الدين، ويذكرهم بما وعد الله عباده الصابرين، وهكذا استطاع أن يرفع عن «صنعاء» الحصار، ويتتبع الأعداء حتى ناحية «حضور» حيث خاض المعركة الأولى التي انتهت بانتصاره.

وهذا الانتصار، قوَّى من عزيمة أعوانه، فخاض «إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي» معركة ثانية بجهات «كحلان» و «وهران»، وفيها حقق انتصاراً ثانياً باهراً. كان من شأنه رجوع هيبة الدولة الصليحية إلى الوجود.

وتشاء الظروف أن يعود إليه قواد دولته الذين ذهبوا مع والده لأداء فريضة الحج، وهم الذين أمرهم بالمسير إلى الديار المقدسة قبله، وعلى رأسهم:

«عامر بن سليمان الزواحي» و «مدافع بن حسن الجنبي» و «عمران ابن الفضل اليامي» و «الحسين بن عمر السخاني». ومن الجدير بالذكر... أنهم لاقوا في طريق العودة صعوبات كثيرة من الأحباش الذين كانوا يتتبعون أثرهم، ويسدون عليهم منافذ الطرق، والإيقاع بالأعداء وعندما وصلـوا إلى صنعاء استقبلهم «المكرَّم» استقبالاً منقطع النظير، فرفضوا كل مظاهر التكريم، حتى يظفروا بالأحباش، ويأخذوا الثأر، وهكذا تعاهدوا، وعاهدوا الله على ذلك.

لقد كان «المكرَّم» يعتقد أنه لابد له من عملية حربية كبرى يقوم بها لتخليص، والدته «أسماء» من سجن «سعيد الأحول». فهذه الصورة القاتمة مرسومة في ذهنه، ترافقه، وتقض مضجعه، وقد انعكست أيضاً في نفوس أصحابه المخلصين، فأصبحت نار الغيظ، تلذع أكبادهم، وتؤجج نفوسهم، ولكن ظهور عوامل الاضطراب، والثورات في مختلف أرجاء البلاد كانت تجبرهم على تأجيل كل عمل حربي ضد الأحباش إلى أن يتم إعادة الهدوء والأمن. فأرسل المكرَّم قائده «عامر ابن سليمان الزواحي» إلى بلاد حميَر، وإلى مغرب اليمن، فأعاد الهدوء، وقضى على الفتنة، وعندما أبت فئة من الفئات أن تستجيب إلى الدعوة، قاتلهم قتالاً شديداً، وتتبعهم في السهل، والوعر، حتى قضى على فلولهم، ولم يتـركهم حتى جاؤوا إلى المكـرَّم طائعـين مستجيرين. أما القائد «إسماعيل بن أبي يعفر» فإنه توجه إلى «يحصب» و «رُعين» بجهات «كهلان» و«وهران» فباشر المعارك مع الثائرين، وما زال حتى قضى على فلولهم التي شردت في الجبال والقفار، وفي سنة ٤٥٩ هـ. قام الأمير الزيدي «حمزة بن أبي هاشم الحسيني» بدعوته الجديدة فالتفَّ حوله فريق من الناس، وبايعوه على أن يكون إماماً وسمَّى نفسه «أمير المؤمنين»، وبعد أن استجاب له خلق كثير هاجم «صنعاء» بخمسمائة فارس، وخمسة عشر ألف راجل من همذان وغيرها من القبائل. فأرسل المكرم يستدعي «عامر ابن سليمان الزواحي» من مغرب اليمن، فوصل مع جيشه، وانضمَّ إليه المكرم، والقائد «أحمد بن المظفَّر الصليحي» فالتقوا بالأمير

الزيدي في «الملوى» ودارت الدائرة منذ الدقائق الأولى عليه.. وهكذا ولى أصحابه الأدبار هاربين، وبقي هو وولده يقاتلان حتى قتلاً مع بعض اعوانهما.

ويذكر تاريخ «عيون الأخبار» بأن هذه المعركة انجلت عن ثمانمائة قتيل من أصحاب الأمير الزيدي، وعندما كانت هذه المعركة دائرة حول «صنعاء» اعتقد أعداء «الصليحيين» بأنها ستكون خاتمة المطاف وإن عليها تتوقف الأمور. فلما انقشعت السحابة، وتمَّ النصر للمكرم، رجعوا عن غيهم.. وسكتوا على مضض. أما المكرَّم فبدأ يقوم بأعمال التصفية في ضواحي صنعاء.. ومن جهة ثانية أرسل قواده الثلاثة: أحمد بن المظفَّر الصليحي وإسماعيل بن أبي يعفر، الصليحي وعامر بن سليمان الزواحي إلى «حراز» وكان كبار أهلها لا يزالون يدينون بالطاعة للصليحيين، بينما الدهماء يحاصرون حصن «مسّار» الذي كان يحكمه «مالك بن شهاب الصليحي» ، وفي طريقهم إلى الحصن المذكور وافاهم العديد من قبائل «مجيح» و «كرار» حيث قدموا فروض الطاعة، وبعد ذلك تقدموا إلى حصن «مسّار» فاستولوا عليه، وبعد أن عاهدتهم قبائل «حراز » على الطاعة تابعوا سيرهم نحو ديار قبيلة «بكيل» وكانت شركتها على المنابذة قوية، وصولتها عل المحاربة شديدة، فبلغوا الديار سنة ٤٦٠ هـ. وأرسلوا إلى زعماء بكيل يدعونهم إلى الاستجابة فأبوا إلاَّ القتال، وعند اليوم الثاني جاءت «بكيل» للقتال، ونشبت المعركة الحاسمة، فكانت الدائرة على «بكيل» حيث قتل العديد من زعمائها وقوادها. أما الباقون فقد هرعوا لإعلان الطاعة والولاء، وكل هذا شجع القواد الثلاثة على العودة إلى «صنعاء» ظافرين.

وفي تلك الفترة انتهز «بنو نجاح» الأحباش فرصة انشغال جيش المكرم في إخضاع بكيل وغيرها من القبائل. فأغار «بلال» و «أبو الفتوح» إبنا نجاح بعساكر كثيرة من العبيد، والأحباش، وأهل تهامة على أسعد بن عبد الله الصليحي، في حصن «التعكر» ووقع بين الطرفين قتال شديد دارت الدائرة فيه على الأحباش «بذي أشرق» من قرى «المخلاف» ، ولكن «بلال» و «أبا الفتوح» تمكنا من النجاة.

ولما توطَّدت أركان الدولة الصليحية، واستقرت الأمور في «صنعاء» ، عوَّل المكرَّم على السير إلى «زُبيد» لتصفية الحساب مع الأحول، واتفق أن وصلته من أمه «أسماء» رسالة وضعتها في رغيف خبز، وسلمتها إلى أحد الشحاذين، فأوصلها إلى المكرَّم لقاء مبلغ من المال، وكانت الرسالة تحمل كل ما يثير الخواطر. فجمع الأعوان وقرأها عليهم ثم خطب في الناس قائلاً:

«من يكن يرغب في الحياة فلا يكن معنا».

وأخيراً جمع قواده، وسار على رأسهم بعد أن ترك في صنعاء «إسماعيل ابن أبي يعفر»الصليحي نائباً عنه، وقد أخذ قبل خروجه العهود، والمواثيق على «الشريف القاسم بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم العياني» وعلى أخيه «محمد بن جعفر» بأن لا ينقضا العهد، ثم أحسن إليهما، ومنحهما الهدايا والأموال.

وخرج المكرم في عشرة آلاف رجل وفارس.. فخطبهم قائلاً:

إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نصيبه، ولا لمال نخزنه، ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا سوى إدراكنا ثأرنا، من هؤلاء العبيد، والأحباش، واستنقاذ حريمنا، وإن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس، ولا تغيير شيء مما يملكون، وعلينا أن لا نتعدى على زروعهم، ومواشيهم وحريمهم. وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة، ولكم حسن الأحدوثة، فتنالون حميد العاقبة والثناء.

ثم وطىء «المكرم» وجنوده تهامة «من شرقي «زُبيد». فحطَّ الرحال على مقربة من قرية «التربية» ودخل مسجدها عند طلوع الفجر، وكان إمام المسجد قد فرغ من الصلاة، ووقف يتلو بعض الآيات، فنظر، وإذا بفارس يركز رمحه ويشرع بالصلاة.. فقال الإمام: «ما رأيت شخصاً من ولد آدم أتم منه خلقة، ولا أحسن منظراً، وروائحه روائح الملوك».

.. ولم يلبث الصباح أن طلع، فأقبلت الخيل، ووقف كل رعيل يسلِّم، ويقف وكانت تحيتهم له: «انعم الله صباحك مولانا وأدام عزك» فيرد عليهم بقوله: مرحباً «يا وجوه العرب».

وعندما تكامل عددهم، قصدوا «باب الشبارق» وهو الباب الشرقي لبلدة «زبيد» وحين دنا المكرم من زبيد عبأ جيشه، فكان هو، وأحمد بن المظفَّر الصليحي وعامر بن سليمان الزواحي وأبو الحسن بن المهلهل، والحسين ابن عمرو السخاني.. في القلب، ومعهم قبائل: نهد وسخان وحمير وكان عمران بن الفضل اليامي، ومدافع بن الحسن الجنبي، ومحمد بن علي اليامي من قبائل همدان ويام وجنب وسواهم في الميمنة، ومالك بن شهاب الصليحي ومعه الحرازيون في الميسرة، ثم إنهم أقبلوا على الأحباش، وكانوا ستة كراديس، وعددهم ثمانية عشر ألفاً. فتقابل الجيشان في شهر صفر سنة ٤٦٠ هـ. وقاتل «سعيد الأحول» في هذا اليوم وجيشه قتالاً عنيداً، ولكن الجناحين انطويا على جماعة الأحباش، فتراجعوا، وتمزقوا، وهزموا شر هزيمة، ولكن خيول الصليحيين لاحقتهم وطحنتهم طحن الرحى، ولم يسلم منهم إلاَّ من كتبت له حياة جديدة، وكان الأحول قد أعدَّ خيلاً مضمّرة على الباب الغربي المسمَّى «باب النخل» ، فهرب مع

بعض رجاله إلى البحر حيث نقلتهم السفن إلى جهة مجهولة وقيل إلى جزيرة «دهلك». أما الملك المكرم فانشغل بأمر والدته أسماء.. وهكذا فإنه لم يتبع المهزومين ودخل رجاله زبيد عنوة، وظلَّ القتال بينهم وبين الأحباش حتى صلاة الظهر. وعندما هدأت المعركة الضارية جاء المكرَّم إلى الدار التي تقيم فيها والدته أسماء، وكان قد تنكر، وأخفى وجهه.. فقال:

«أدام الله عز مولاتنا».. فقالت:

«مرحباً يا اخا العرب... من تكون؟».

فقال: «أنا أحمد بن علي بن محمد...» فقالت:

«إن أحمد بن علي في العرب كثير، فأحسر عن وجهك حتى أعرفك»، فرفع المكرم عن وجهه.. وهنا قالت: مرحباً بمولانا المكرم.. من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ»، وبعد اللقاء المؤثر بين الوالدة وابنها جاء قواد الجيش ورؤساء القبائل فدخلوا، وسلموا عليها، وعندئذٍ كشفت عن وجهها أما المكرم فقد نزل عن ظهر جواده، وسجد لله شكراً، وعفَّر خده بالتراب، وبعد ذلك أمر بإحراق الدار التي اعتصم فيها بعض الأحباش، ولكنه لم يجعل لأحدٍ سبيلاً إلى حريم «بني نجاح» كما أنه أطلق أخيراً من وقع أسيراً من أولادهم، وقبل أن يغادر «زُبيد» نقل رأس والده وعمه إلى صنعاء، وبنى عليهما مشهداً...

بعد هذا الانتصار الحاسم الذي تمَّ في ربيع الأول سنة ٤٦٠، خرج من زبيد يريد الإجهاز على الأحباش الهاربين، ولكن الأخبار وصلت من نائبه في صنعاء «إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي» تقول:

بأن الشريف «قاسم بن جعفر العيّاني» قد نقض العهد، واتخذ من غياب المكرم وقواده وجيشه فرصة للانقضاض على «صنعاء»، وعلم أيضاً بأن نائبه إسماعيل قد اشتدَّ عليه المرض، وأن الحجازيين، وأهل حراز قد ساءت بينهما العلاقات، فخاف المكرم بأن ينال المخالفون من صنعاء ما يبتغون، فخفَّ مسرعاً بالعودة، ومعه والدته الملكة أسماء والحرائر الصليحات، وفي ذلك يقول الشاعر اليمني عمرو بن يحيى الهيثمي:

أوبة أسماء إلى قصرها	بعد فراق الملك الأوحد
كرجعة الشمس وقد جنَّها	دجن وسربال دجى أسود
فيالها من نعمة احتلها	بأس ابنها باني العلى أحمد

وصل المكرم إلى صنعاء، وكان أول ما فعله، القضاء على فتنة الشريف إذ لحق به إلى أرض «ذبيان» وباشرهم القتال، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود، فتقدموا إليه، وأعلنوا خضوعهم، ومن هناك سار

لإصلاح المغرب اليمني، ومنها إلى «ذي أشرق» ثم إلى جبل «مسّور» وجبل «حملان»... وهناك علم أن سعيداً الأحول قد صار بالمخلاف، وأن التبعي، والسخطي، والكلالي، ويعفر بن الكرندي، ويحصُب، ورعين، قد ساروا صفاً واحداً، وأخذوا يهددون الدولة الصليحية، فعاد إلى صنعاء، ومنها اتجه إلى المخلاف، ثم انتهى أخيراً إلى «وادي بينـون» فأخضـع بني صعب من عنس، وبني الحارث، ومذحج، وما زال في طريقه حتى وصل إلى جبل «الشعر» الذي تحصَّن فيه التبعي، والسخطي فهاجمهما ولكنهما فرا، واعتصما في جفن القرانح، ولم يتوقف المكرم عن ملاحقتهما، والحصار عليهما في هذا الحصن، ولما كانا يعلمان بتسامح المكرم وحلمه.. سلما نفسيهما إليه.

وفي عام سنة ٤٦١ هـ. غادر المكرم صنعاء إلى زُبيد بعد أن وصلته الأخبار بأن سعيداً الأحول قد عاد للظهور ثانية على المسرح اليمني، وهناك طوَّق جبل الشعر الذي اعتصم فيه سعيد الأحول، ورجاله، ثم حمل عليهم حملة من يختار الموت على الحياة.. فهزمهم هزيمة منكرة وقتل أحد قواد المكرم سعيداً الأحول عندما كان يحاول الفرار، وكان ذلك على مقربة من قرية «مآبة» كما قتل القائد عامر بن سليمان الزواحي ولدي نجاح وهما «بلال» و «مالك» ثم ولَّى أمر زُبيد «سبأ ابن أحمد الصليحي» وعاد إلى صنعاء حيث استقرَّ فيها يصرف أمور دولته بحكمة، وإدارة، ومرونة، وعدل.

وفي سنة ٤٦٧ هـ. توفيت والدته «أسماء بنت شهاب» وكانت قبل وفاتها قد زوجته «بأروى الصليحي» ، كما أشارت عليه أن يجعل «ذا جبلة» دار هجرة وقرار، «وذو جبلة» مدينة بمخلاف جعفر اختطها «عبد الله الصليحي» بأمر أخيه «علي الصليحي» ويقال:

إن «جبلة» اسم رجل يهودي كان يسكن فيها، ويعمل الفخار في الموضع الذي بنى فيه «عبد الله الصليحي» «دار العز» الأولى.. وتسمَّى مدينة «النهرين» لأنها تقع بين نهرين كبيرين في الصيف والشتاء... ويقال في المثل المشهور: ««إن جبلة لا يدخلها إلَّا طاهر... وصباحها صباح عروس»، ولما انتقل المكرم إليها اختطَّ فيها «دار العز» الثانية في «ذي بور» وكان حائطاً فيه حدائق، وأشجار كثيرة، وهو يطل على النهرين، وعلى الدار الأولى.

ومما تجدر الإشارة إليه.. إن الملكة «أروى» قالت له عندما انتقل إلى ذي جبلة:

«العيش هنا أفضل، وأسلم للمملكة، وأثبت لقواعدها.. فهي متوسطة بين اليمن الأعلى، والأسفل، وفيها يخصب العيش، ويطيب المحل». ولكن وبينما هو في غمرة الفرح في عاصمته الجديدة داهمه مرض الفالج فأشار عليه الأطباء أن يحتجب عن الناس.. فترك ذي جبلة وصعد إلى حصن «التعكر» بعد أن فوَّض لزوجته «أروى» شؤون إدارة الدولة.

ولابد من القول... ونحن في طريقنا إلى قول الكلمة الأخيرة من سيرة الملك المكرَّم:

بأن الدولة اليمنية الإسماعيلية بلغت في عهده أقصى درجات الأمن، والاستقرار، وقد اتفق المؤرخون على القول: بأنه كان ملكاً شجاعاً، وشهماً جواداً، ومقداماً سموحاً.. وقد لقبه الخليفة الفاطمي «المستنصر بالله» «بذي السيفين» و «داعي السيف»، وكان إلى جانب كل هذا خطيباً فصيحاً، ولم يكن في زمانه من يستطيع حمل رمحه، وسيفه، وقوسه، ولكن الأقدار لم تعطِه الفرصة لإكمال البناء، فأصيب بصحته.

وأخيراً مات الملك المكرم في حصن «التعكر» سنة ٤٧٨ هـ. وختمت حياة الرجل العظيم وفتحت صفحة جديدة في تاريخ اليمن، وهذه الصفحة المشرقة لا تقل عن سابقاتها، وأعني بها صفحة «الملكة أروى الصليحي».

الملكة أروى الصليحي

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب «السيدة الحرَّة» وهذا اللقب منحه إياها الإمام «المستنصر بالله» تقديراً وإجلالاً. وهي «أروى بنت أحمد ابن محمد الصليحي».

ولدت سنة ٤٤٠ هـ. ويروى أن والدها، هو أحمد بن محمد الصليحي، وكان قد بعثه الملك علي الصليحي على رأس وفد يمني إلى القاهرة «المعزية» لمقابلة الخليفة الإمام المستنصر بالله، وذلك بعد

استيلائه على حصن «مسَّار»، ولكنه مات في «عدن» عندما سقط عليه البيت الذي كان يأوي إليه. أما أروى فكانت في ذلك الوقت طفلة صغيرة.

أمها: «الرواح بنت الفارع بن موسى الصليحي، وقد تزوجت من «عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي» بعد موت زوجها أحمد، فرزقت منه «سليمان» القائد الذي لعب دوراً هاماً في الفتوحات الصليحية فهو إذن أخوها لأمّها.

قامت بتربية أروى، وتهذيبها، وتأديبها السيدة «أسماء بنت شهاب» زوجة الملك علي الصليحي بعد زواج أمها فربَّتها تربية صالحة، وكانت في الوقت نفسه موضع اهتمام الملك علي الذي كثيراً ما كان يقول لأسماء: «اكرميها.. فهي.. والله.. كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر على من بقيَ منا»

كانت أروى على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ما تمتعت به من جمال الخلقة.. فكانت بيضاء اللون، سوداء الشعر، مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن، تميل إلى السمنة، كاملة المحاسن، جهورية الصوت، متعلمة تحفظ الأخبار، والتاريخ، وأيام العرب، والشعر. وذكر أن لها تعليقات وهوامش على الكتب، وكان يقال لها: «بلقيس» اليمن الصغرى، وكانت بالإضافة إلى كل ما ذكرناه عنها متبحرة في العلوم الإسماعيلية.. فكان يقصدها الدعاة، ويتعلمون منها من وراء الستر ويأخذون عنها، ويرجعون إليها.

وإنه من الطبيعي بعد هذا أن يختارها الملك علي زوجة لابنه المكرّم، وبالفعل اقترنت به بعد أن سمي ولياً للعهد سنة ٤٥٨ هـ. وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة، وهذا الزواج وصفه الشاعر القمِّي بقوله:

وكريمة الحسين يكنف قصرها ... أسد تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغضُّ عن ... تمثالها المرئي في مرآتها
ظفرت يداك بها فبخ إنما ... لك تذخر العلياء مضنوناتها

وكان الملك علي قد أصدقها «عدن» حين زواجها من ابنه المكرم، وقد ظلَّ إنتاج عدن يدفع إليها من حين زواجها، وهو مائة ألف تزيد، أو تنقص.

أولادها من المكرَّم هم:

علي، ومحمد، وفاطمة، وأم همدان.. فأما علي ومحمد فسنتكلم عنهما فيما بعد. وأما فاطمة فتزوجت من شمس المعالي علي بن سبأ بن أحمد الصليحي، وقد توفيت سنة ٥٣٤ هـ. وأما أم همدان فتزوجت من ابن خالها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان الزواحي فرزقت منه «عبد المستعلي» وتوفيت سنة ٥١٦ هـ.

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسي في عهد زوجها الملك المكرّم، ويقول المؤرخ عمارة اليمني:

«لما توفيت «أسماء بنت شهاب والدة المكرَّم... فوَّض الأمر لزوجته الملكة أروى فقامت بالأمر وحدها، واستعفته في نفسها وقالت: «إنّ المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر... فدعني وما أنا بصدده».

وكانت تستشير في هذه الفترة «عمران بن الفضل اليامي» و «أبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحي» ولما توفي زوجها سنة ٤٧٧ هـ. حملت وحدها عبء هذه المسؤولية الجسيمة، وأصبحت بتفويض من الخليفة «المستنصر بالله» تتصرف بأمور اليمن والهند وعُمان.

إن سياسة الخليفة الإمام المستنصر بالله، تدل على بعد نظر في الأمور فهو رفض تولية «سبأ بن أحمد الصليحي» الملك، بالرغم من وصية المكرَّم له، وولّى «علي بن المكرَّم»بالرغم من صغر سنه، لأنه كان يعلم أن والدته «أروى» لها من القوة والجدارة ما يمكنها من الاضطلاع بشؤون الدولة، وإنها أبعد نظر من الملوك الرجال أنفسهم.

أجل.. لم يراعِ الخليفة الإمام المستنصر بالله وصية المكرم، ولا شخصية «الأمير سبأ» الممتازة، ومحبة الناس له، وغيرته على الدولة الصليحية، ومواقفه في خدمتها، ورفع شأنها، ولكن أروى وهي السياسية المحنكة أدركت أن عليها القضاء على هذه العاصفة الهوجاء، فأعطت الأمير «سبأ» وظيفة النيابة أو الوصاية على ولدها الصغير،وفوّضت إليه قيادة الجيوش على أن تبقى زمام الأمور العليا بيديها. فدخل في حروب متوالية مع «جيّاش بن نجاح».. وآخر معركة وقعت كانت في «زُبيد» سنة ٤٧٩ هـ. وهي المعروفة بمعركة «الكظائم» التي انهزم فيها سبأ ومن معه.. ومن الجدير بالذكر أن

أخاه الأمير قيس قد قتل، ومحمد بن مهنّا، والقاضي عمران بن الفضل اليامي، كما عقرت فرس الأمير سبأ، فاضطر أن يسير راجلاً حتى حمله أخيراً جنده على جواد آخر، وهكذا ملك الأحباش زُبيد، ولم يقدر الصليحيون على أخذ تهامة بعد تلك المعركة، ومما تجدر الإشارة إليه: أن «الأمير محمد» ابن الملك المكرَّم مات في حياة أبيه، وبعد فترة قصيرة مات «الملك علي بن المكرَّم» فقام الأمير سبأ يطالب بحقه في تولي أمور الدولة، ولكن الملكة أروى لم تمكنه من ذلك، ثم إنها أعلنت عن نفسها بأنها المسؤولة عن تدبير أمور الدولة. وهنا... اتخذ الأمير «سبأ» سبيلاً آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج، ولكنها رفضت ذلك، وأنكرته غاية الإنكار، وعندئذٍ جمع الأمير سبأ جيوشه، وسار من حصن «أشيح» إلى «ذي جبلة» لا لمحاربة الملكة أروى، ولكن لإظهار قوته وسيطرته.. فجمعت هي جموعها، وكادت رحى الحرب تدور بينهما لولا أن «سليمان بن عامر الزواحي» شقيق الملكة أروى لأمها أنقذ الموقف بأن أشار على الأمير سبأ بأن يتصل بالإمام المستنصر بالله، ويقيمه حكماً فاصلاً، فترك الأمير سبأ المنهج العسكري ، ورجع إلى حصن «أشيح» ثم سيَّر إلى الخليفة الإمام المستنصر بالله رسولين هما القاضي «الحسين بن إسماعيل الأصبهاني» و«أبو عبد الله الطيب»... وهنا تظهر الاضطرابات التاريخية. فبعض المصادر تذكر أن الخليفة الإمام المستنصر بالله أصدر أمره إلى الملكة أروى بالقبول بالأمير سبأ زوجاً لها.. وتضيف هذه المصادر بأنها رفضت الأمر. وهناك مصادر أخرى تشير إلى أنها قابلت الأمر بالرضى والقبول، وأن الزواج قد تمَّ فعلاً.

إن جميع المصادر اليمنية التاريخية تؤكد بأن أروى رفضت أوامر خليفة مصر، ولم تتزوج ولكنها بالرغم من ذلك أقامت الأمير سبأ قيماً على الدولة، ولكن تحت إشرافها المباشر.. أما سبأ فكان كما وصفه المؤرخون:

فاضلاً، ورعاً ، تقياً ما وطىء أمه قط، ولا شرب مسكراً، كان كريماً، طيباً، يقصدهُ الشعراء، وأصحاب الحاجات، وكان أيضاً فصيحاً، وشاعراً يجيب الشعراء على قصائدهم ثم يجيزهم، ويزيد في برهم... وفي ذلك يقول الشاعر القمّي:

ولما مدحتُ الهز بريَّ ابن أحمدٍ أجاز وكافاني على المدح بالمدحِ

فعوّضني شعراً بشعرٍ وزادني عطاءً فهذا رأس مالي وذا ربحي
شققت إليه الناس حتّى لقيته فكنت كمن شقّ الظلام إلى الصبح
فقُبح دهرٌ ليس فيه ابن أحمدٍ ونزّه دهر كان فيه من القبح

وهكذا ظلَّ «الأمير سبأ» في حصن «أشيح» يقدم المساعدات، والاستشارات إلى الملكة أروى حتى وافته المنية سنة ٤٩١ هـ، وتشاء الأقدار أن يموت بعده بعام واحد «عامر بن سليمان الزواحي» أخو الملكة أروى لأمها، وكان من القواد الكبار الذين خدموا الدولة الإسماعيلية اليمنية بإخلاص وتفانٍ.. وبعد موت هذين القائدين خرجت «صنعاء»، وما يتبعها عن دولة الصليحيين ولم تفكر الملكة أروى باسترجاعها، وكانت قد عهدت إلى «المفضل بن الوليد الحميري» بإدارة شؤون الدولة، وقيادة الجيش.

وكان المفضل من الشخصيات البارزة، والقواد المعترف بإدارتهم، وقيادتهم، فغزا تهامة مراراً، وهبط إلى عدن أيضاً، وكانت له مواقف حميدة حتى أنه حارب «الأمير علي بن سبأ» عندما أعلن العصيان في حصن «قيضان». فأخرجه منه سنة ٤٩٥ هـ. كما حارب القبائل التي خرجت عن الطاعة. واسترجع خراج عدن بالقوة من «آل زريع».

أجل.. كان المفضل حازماً. وشجاعاً، وشهماً له مفاخر جمة، وقد توفي سنة ٥٠٤ هـ. وبعد وفاته خرجت بعض الجهات عن الدولة، وأخذت العواصف تهب من كل جانب، ولم ينفع تعيين «الأمير أسعد» مكان ابن عمه «المفضّل» بل إن التدهور ظلّ مستمراً، وازدادت الأمور تعقيداً، وهذا ما حدا بالملكة أروى إلى الطلب من الخليفة الآمر بأن يعين لها مستشاراً يبقى إلى جانبها ، ويساعدها في تدبير وإدارة شؤون الدولة. فأرسل إليها سنة ٥١٣ هـ «علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة». فجاء إلى «ذي جبلة» وتقلّد أمر الجيوش، والدولة، وبدأ أعماله بفض الخلافات، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد... فكان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين، لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا في البلاد، واستهانوا بالملكة أروى، فطردهم من «ذي جبلة» ونواحيها، وأوقع بمن بقي منهم، ومن بقيَ منهم ظلّ على الطاعة ، وتأييد الدولة.. وأمّن ابن نجيب البلاد، واستقرّت الأمور في

عهده، ورخصت الأسعار بحسن سياسته، وتدبيره، وأقام العدل، وعزّز جانب الدولة، وبعد فترة من الزمن أرسل إليه الوزير «المأمون البطائحي» بأمر من الخليفة الآمر أربعمائة محارب أرمني، وسبعمائة محارب إفريقي «أسود» وجميعهم من الرماة المجربين، وهذا ما جعل «ابن نجيب» يسرع في محاربة الدولة «النجاحية ـ الحبشية» في «زُبيد» سنة ٥١٨ هـ. وكان عليها «الفاتك» أحد عبيد «بني نجاح».

وكان عشرة رماة من الأرمن أصحاب «ابن نجيب» قد استأمنوا إلى أصحاب «زبيد»، ولما بدأ الزحف رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم فلم يخطىء أنف الفرس الذي يركبه«نجيب الدولة» فسقط إلى الأرض، وشبَّ الفرس فانهزم عسكره، وقتل السود بأسرهم، ولم ينج من الأرمن سوى خمسين، وكانوا أربعمائة. أما «ابن نجيب» فقاتلت عنه «همدان» أشد قتال حتى أن رجلاً منهم اسمه «السباعي» أردفه على فرسه، وعاد به إلى «ذي جبلة» فاجتمع بالملكة أروى ، التي عاضدته، وأعطته الأموال، وجمعت إليه الرجال، ولكن كل هذا لم ينجه من المنافسين الذين أخذوا يوقعون بينه، وبين الملكة أروى، فأخذت علاقته بها تفتر منذ سنة ٥١٩ هـ. حتى قيل إنه رماها بالخبل حين قال:

«لقد خرفت، واستحق عندي أن يحجر عليها».

وفي إحدى المعارك التي خاضها «ابن نجيب» حاصره أعداء الدولة الصليحية في «الجنَد» وهي ذات سور منيع. فلمّا اشتد عليه الحصار أرسل إلى الملكة «أروى» يطلب منها النجدة، فأرسلت إلى «عمرو بن عرفطة الجنبي» فأتاها وضمَّ في «ذي جبلة». وبعثت إلى أمراء القبائل، ففرقت فيهم عشرة آلاف دينار مصرية، وقالت للرسل: «اشيعوا في العسكر.. أن ابن نجيب فرَّق في الناس عشرة آلاف دينار مصرية، فإن أنفق الأمراء شيئاً من الذهب المصري بقينا وإلا ارتحلنا».

فلما طالب العسكر الأمراء بذلك، وعدوهم، ولما كان الليل ارتحل الجند ورجع كل واحد إلى بلده، وأصبح الأمراء بلا جيش، والحشود بلا أمراء، وانفضَّ الناس أخيراً عن الجند بهذه الحيلة الحربية..

وهنا قيل لابن نجيب.. هذا تدبير من قلت عنها إنها خرفت ، فركب إلى «ذي جبلة»، وتنصَّل ، واعتذر، ولكن هذا الاعتذار لم ينقذه من المصير المحتوم لأن أخباره كانت قد وصلت إلى الخليفة الآمـر، فأرسل «الأمير الموفق بن الخياط» في مئة فارس إلى اليمن للقبض على «ابن نجيب» فلم تسلِّمه الملكة أروى إلا بعد أن أخذت العهود، والمواثيق على «ابن الخياط» بأن لا يمسوه بأذى، كما أنها أرسلت إلى الخليفة الآمر كاتبها «محمد بن الأزري» يتشفع لابن نجيب.

وهنا اختلف المؤرخون في نهايته.. فمنهم من ذكر أنه قتل، وشهر به سنة ٥٢٤ هـ ومنهم من ذكر أنهم اكتفوا بإبعاده، وبعد رحيله عن اليمن اختارت الملكة أروى «علي بن عبد الله الصليحي» للقيادة، فلم يتمكن من إعادة الأمور إلى حالتها الأولى، لأنه لم يكن من الرجال الأكفاء، ويبدو أن الدولة الصليحية قد وصلت في هذه المرحلة إلى درجة الإنهيار، فكانت عوامل الانحلال، والشيخوخة قد تملكت قلب الدولة، ولم يعد بالإمكان التغلب، والإنقاذ.

ومن الجلي الواضح.. أنه في تلك الفترة الأخيرة استولى «ابن المفضل ابن أبي البركات الحميري» على «ذي جبلة» وملك ابنه منصور حصن «أشيح» وما يتبعه، ولكنه ظلَّ يدين بالطاعة للملكة أروى حتى وفاتها سنة ٥٣٢ هـ. وبعد ذلك استولى على ما كان تحت يدها من حصون، وأموال، وذخائر، ولما تقدمت به السن، وصار لا يستطيع حماية هذه الحصون من الطامعين باعها سنة ٥٤٧ هـ. إلى «محمد بن سبأ الزريعي»، وظلَّت بأيديهم حتى استولى على بلادهم «توران شاه بن أيوب». وهكذا انتقلت السيادة في اليمن إلى الأيوبيين الذين أعلنوا الخطبة باسم العباسيين، وذلك بعد حكم فاطمي دام ما يقارب المائة عام.

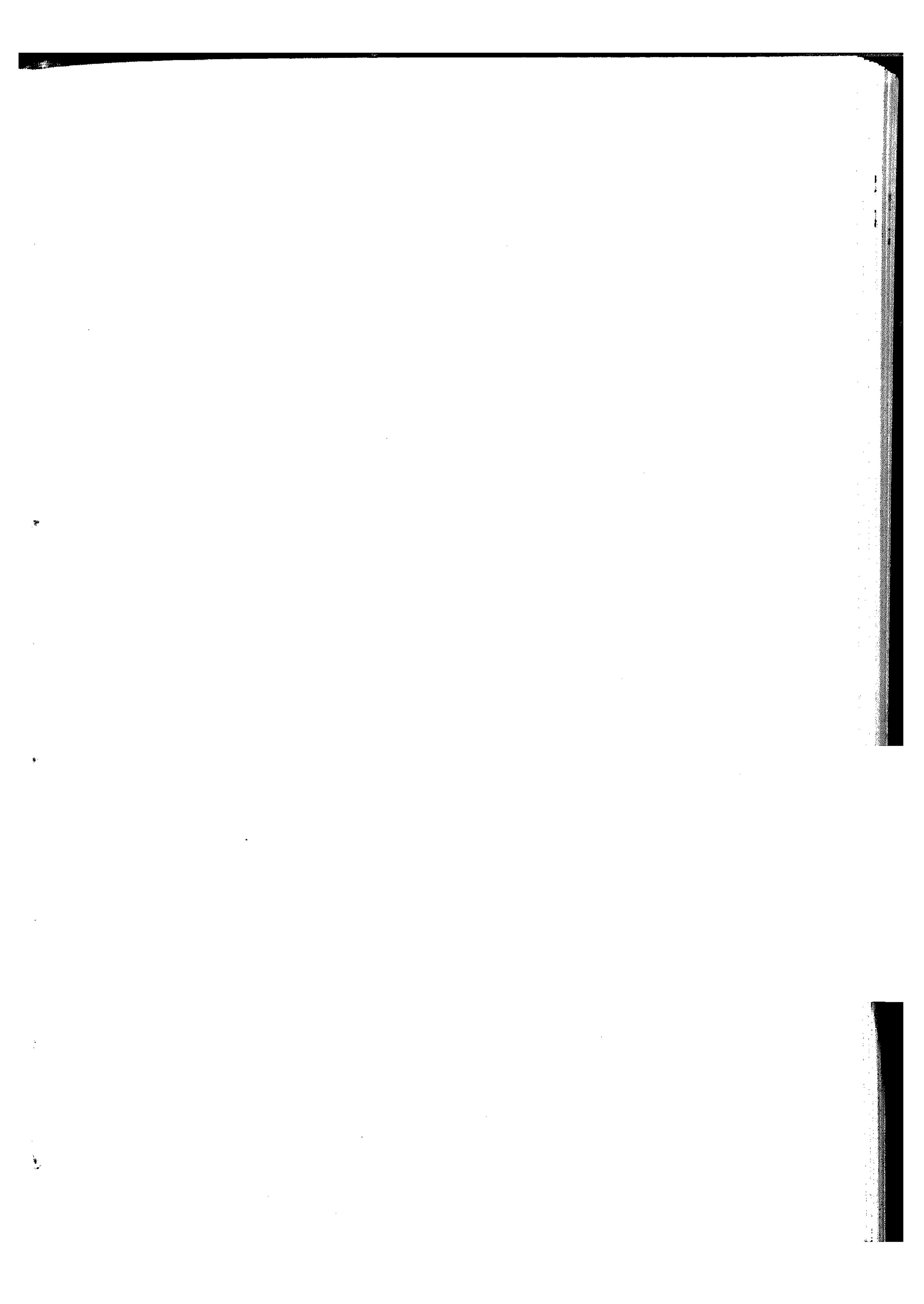
ومهما يكن من أمر.. فإن الملكة «أروى الصليحي» ستبقى خالدة في نفوس اليمنيين، والعرب مدى الدهر، وستظلّ وحياً، ونوراً مهما اختلفت الطرق، واشتدت الأزمـات، وأبعدت المسـافات، وتخلَّفت القوافل.. لأنها وحيدة كل زمان، والمرأة التي حكمت اليمن بعد «بلقيس».

وأخيراً ماتت الملكة أروى سنة ٥٣٢ هـ عن عمر ناهز /٩٢/ عاماً.

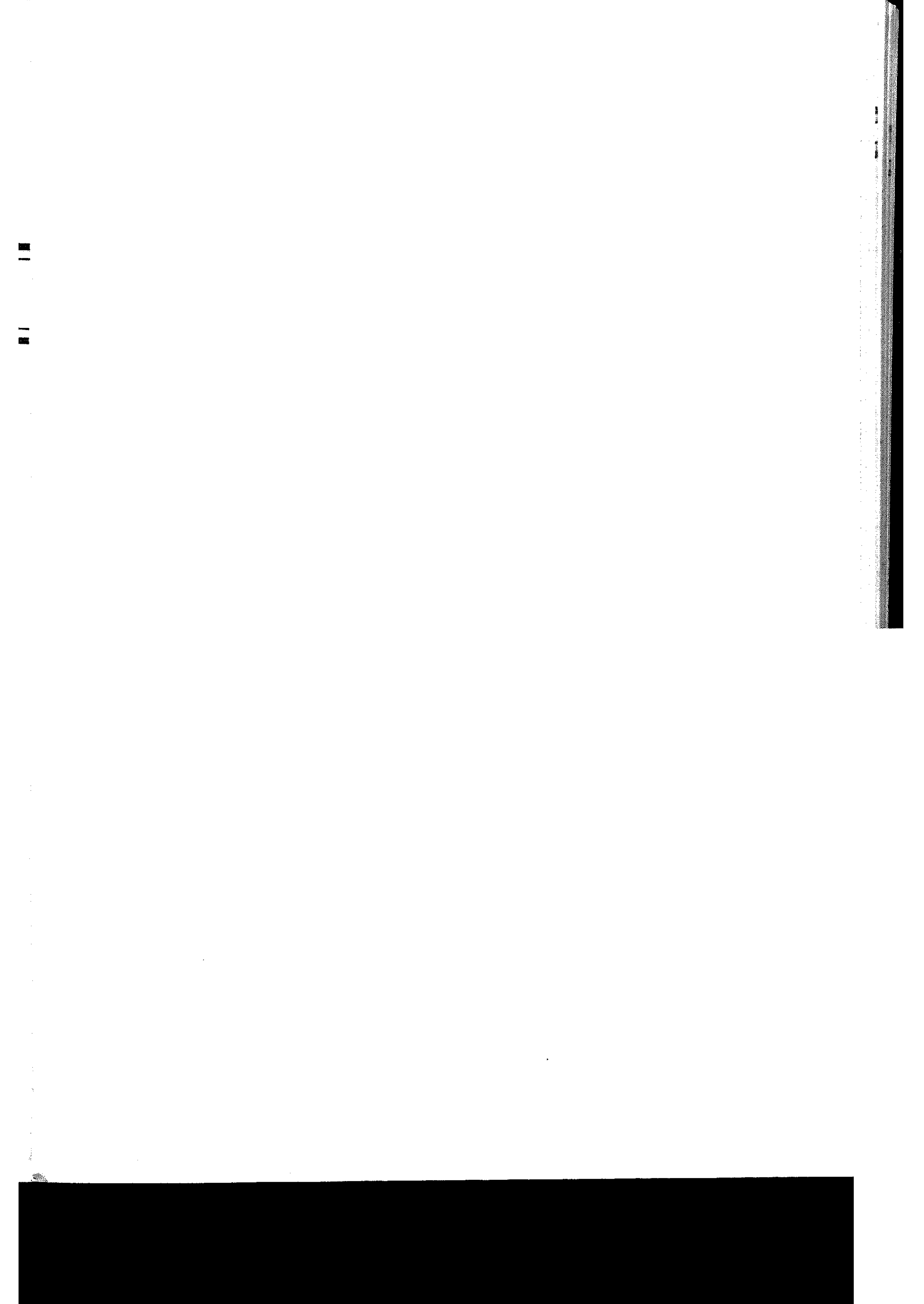
ودفنت في مسجد «ذي جبلة».. هذا وإذا كانت الدول الناهضة في العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل لإسعاد شعوبها، وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها، ورفع مستوى المعيشة بين أفرادها، فإن «أروى» لم تترك فرصة تمر إلَّا وعملت وبذلت كل عنايتها في سبيل الهدف المنشود.

لقد اهتمت الملكة أروى بالزراعة، والصناعة، والتجارة، والمواصلات، واستعانت بالخبراء ، كما إنها أولت الزراعة، والفلاحة اهتماماً خاصاً لأنها كانت تعتقد أن هذه الطبقة العاملة الفقيرة المحرومة يجب أن تنال حقوقها، وأن يتوقف الولاة والأمراء عن التحكم بها، واستعبادها، وأن مثل هذه المبادىء كانت تلاقي كل قبول من قبل الطبقات العاملة. وتحول دون انتشار روح التذمر. من جهة أخرى.. فإن الملكة أروى عرفت قدر التجارة، واعتبرتها من دعائم الاقتصاد، ولهذا كان لابدّ من الاعتماد على المواصلات التي اعتبرتها أيضاً الركن الأساسي لتسهيل نقل الحاصلات، والواردات. فعبَّدت الطرق، وأولت حركة البناء، والتعمير اهتماماً زائداً، وأنشأت المدارس، وبنت المصحّات، والمساجد، والحدائق. .. ومن مآثرها أنها منحت رعاياها في عموم اليمن حرية الاعتقاد، وممارسة الطقوس الدينية وهكذا فاخرت الملوك بأعمالها، وأوامرها التي استمدتها من مصلحة الشعب، وأتاحت لها الفرصة لجميع الكفاءات، لتتعاون في بناء الوطن الذي كان معتبراً بنظرها ملكاً للشعب، وليس لها أو لأحد من أسرتها.

وتؤكد المصادر التاريخية الإسماعيلية النزارية بأن الملكة أروى عاصرت «الفتنة الكبرى» التي وقعت في مصر بين أبناء الخليفة الإمام المستنصر بالله «نزار» «والمستعلي».. فهذه المصادر ذكرت: أن الملكة أروى كان لها ميول نزارية، وأنها في مجالسها الخاصة كانت تشجب الاعتداء الذي وقع على الإمام «نزار بن المستنصر» من قبل «الأفضل الجمالي» الأرمني الذي نصب ابن شقيقته «المستعلي بالله» ابن المستنصر بالله بقوة السلاح، دون مراعاة الوصية الرسمية النزارية.



المُسْتَنصِرُ بِاللهِ



الخليفة الفاطمي الثامن والامام الثامن عشر

لقبه «المستنصر بالله». اسمه «معد» كنيته «أبو تميم». ولد في القاهرة «المعزية» في السادس عشر من جمادي الآخرة سنة ٤٢٠ هـ. وبويع بالخلافة في النصف الأول من شعبان سنة ٤٢٧ هـ. وذلك بعد وفاة والده الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، وكان له من العمر وقتئذٍ سبع سنين وعدة أشهر.

توفي في القاهرة «المعزية» سنة ٤٨٧ هـ. عن سبع وستين عاماً، وخمسة أشهر قضى منها في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام، وهي أطول مدة قضاها خليفة إسلامي.

والدته أمة سوداء عاشت لدى تاجر يهودي في مصر اسمه «سهل بن هرون التُستري» وكان الخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله قد اشتراها منه، وتزوجها واستولدها «المستنصر بالله» . فلما آلت إليه الخلافة، وهو في سن مبكر، قبضت على شؤون الدولة، وعاونها مربيها التُستري، كما أشرف على أمور الدولة الوزير «الجرجرائي» في حينه.

ومما تجدر الإشارة إليه... أنها كانت على جانب كبير من الفهم والذكاء، وبعد النظر.. تضع الأمور في مواضعها، وتحكم على القضايا المعروضة، والطارئة بحسب الواقع والعقل، وعندما اشتد ساعد ولدها وكبر، تسلَّم شؤون الخلافة، وأدار دفتها وفق توجيهات والدته الساهرة المتيقظة، فكان عهده من أطول العهود التي عرفها التاريخ الإسلامي، ومتى علمنا أن المدة التي قضاها في سدّة الخلافة تجاوزت الستين عاماً، أدركنا أية أحداث جسام واجهته.

... إن الخبراء في الدراسات الإسماعيلية التاريخية يعتبرون عهد المستنصر بالله بداية النهاية للدولة الفاطمية، ومعنى ذلك أنه آخر خليفة شرعي للدولة الفاطمية.. إذ أنه بعد وفاته، وإن تكن الخلافة الفاطمية قد استمرَّت فترة أخرى في الديار المصرية، إلَّا أنها ارتدت طابعاً غير شرعي فالخليفة الذي تسلَّم الأمر بعد المستنصر بالله لم يكن صاحب نص شرعي، بل وصل إلى كرسي الخلافة غصباً، بعد مؤامرة كبرى أطاحت بالوارث الأصيل «نزار» وكل هذا سنأتي على ذكره في الأجزاء التالية:

ومن الواضح.. أن الخليفة الإمام المستنصر بالله كان يتميز بطيبة القلب ومحبته لشعبه، وحدبه على الفقراء، وكان بالإضافة إلى كل ذلك محباً للأدب، يقرّب العلماء ويعطف عليهم ويمد إليهم يد المساعدة، وكان يتذوق الشعر ويقرضه. وذكر أنه ترك ديواناً، ولكن الآثار الفاطمية، الأدبية والعلمية قد بادت على يد صلاح الدين الأيوبي، الذي وجد في إتلافها وطمسها، لذة وثواباً إثر سقوط الدولة الفاطمية.

وزراء المستنصر بالله

تجاوز عدد الوزراء الذين استخدمهم الخليفة الإمام المستنصر بالله إبان حكمه الخمسين، وبإلقاء نظرة على أسمائهم، وتاريخهم يتبين أن أكثرهم كانوا يمكثون أياماً في الحكم ثم يُصرفون ، وربما أعيدوا إلى الوزارة بعد ذلك، وهكذا دواليك، وكل هذا كان سببه الفوضى، وعدم استقرار أمور الدولة.. مما سنذكره في الصفحات التالية:

١ ـ علي بن أحمد الجرجرائي (فخر الدولة ـ صفي أمير المؤمنين): هو وزير الخليفة الإمام «الظاهر لإعزاز دين الله».. كان مقطوع اليدين من المرفقين. وقيل إن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله قد قطعهما سنة ٤٠٤ هـ. على باب القصر البحري بعد أن اتهم بالفساد، والرشوة، وكان آنئذٍ يتولّى رئاسة بعض الدواوين العليا.

عراقي الأصل.. إسماعيلي المذهب. موطنه الأول قرية «جرجرايا» في سواد العراق في سنة ٤٠٦ هـ. عُين على رأس ديوان النفقات، ثم صار فيما بعد وزيراً للخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أي سنة ٤١٨ هـ. وبعد وفاة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أخذ البيعة

للمستنصر بالله. من أعماله أنه أعاد النظام إلى ديار الشام، ودبر أمور الدولة المالية.

توفي سنة ٤٣٦ هـ. وكانت مدة وزارته سبع عشرة سنة. وثمانية أشهر... كان مخلصاً للخليفة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، ومن بعده لولده «المستنصر بالله».

٢ ـ الحسن بن علي الأنباري (فخر الملك): من أصحاب الجرجرائي. خلفه في الوزارة ، ولكنه لم ينعم بهذا المنصب لأن أمره قد فسد بسبب عداوته «للتستري». فقبض عليه، وصودرت أمواله، وقتل في سجنه... كان إسماعيلياً ، وذكر أنه عراقي.

٣ ـ صدقة بن يوسف الفلاحي (فخر الملك): كان يهودياً، ثم أسلم، وانتسب إلى الإسماعيلية. كان بارعاً في ضروب الكتابة والبلاغة. وليَ أولاً النظارة في الشام، ولكنه فرَّ من أمير الجيوش «أنوشتكين الدزبري» وقدم إلى القاهرة «المعزية» حيث لاذ بالوزير الجرجرائي الذي رقّاه، وأشار على الخليفة بتوزيره.

دخل الوزارة سنة ٤٣٦ هـ، وفي عهده سيطر «التُستري» على كافة المرافق، وهكذا لم يبق لصدقة من الوزارة سوى الاسم، ولما ضاقت به الأمور أغرى بعض الجنود الأتراك ودفعهم لقتل التُستري، وبعد ذلك ظنَّ أن الدنيا قد صفت له، وإن الجو قد خلا... ولكن التحقيقات السرية كشفت عن تدبيره مؤامرة القتل، فأقصي عن الوزارة، وقتل سنة ٤٤٠ هـ.

٤ ـ الحسين بن أحمد الجرجرائي (عماد الدولة): هو ابن أخي الوزير علي الجرجرائي. خلف الفلاحي في الوزارة... كان سيء السيرة، والإدارة. ففي عهده قبض على كثير من الأبرياء ، وازدادت المصادرات للأموال، والنفي والتشريد، فكثر ذم الناس له، لأنه كان يظلم الناس دون رأي الخليفة، وقد حاول أن يبعد «اليازوري» الذي حلَّ محل التستري في ديوان «والدة الإمام المستنصر بالله» ويشغله بمنصب قاضي القضاة، ولكن «اليازوري» أحبط مسعاه، وبقيَ في منصبه.

وأخيراً كان لفشله في سياسته الداخلية والخارجية، أن غضب عليه

الخليفة، فنفاه إلى مدينة «صور» سنة ٤٤١ هـ، ثم أفرج عنه بعد ذلك، فذهب إلى دمشق، وأقام فيها حتى آخر حياته.

كان على المذهب الإسماعيلي. . ومدة وزارته هي سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام.

٥ ـ صاعد بن مسعود (عميد الملك وزين الكفاة): كان من كبار رؤساء الدواوين، والمسؤول الأول عن منصب رئيس ديوان الشام، وذلك بعد إبعاد الجرجرائي عن منصب الوزارة، وكان هذا المنصب قد ظلَّ شاغراً عدة أيام وبعد ذلك عرضت عليه الوزارة على أن يكون «وسيطاً» لا وزيراً.. فقبل ولكن يبدو أن اليازوري وضع المصاعب في طريقه... مما أدَّى إلى فشله، وعزله أخيراً، وكان ذلك سنة ٤٤٢ هـ.

ومن الجدير بالذكر أن مدة وزارته لم تتجاوز العام.. وكان مسلماً سنياً.

٦ ـ الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري (غياث المسلمين وخليل أمير المؤمنين): هو من أشهر وزراء القلم في الدولة الفاطمية.. كان وزيراً ناجحاً، وأدى للدولة الفاطمية خدمات كبرى في المجالين الداخلي والخارجي. فلسطيني الأصل من قرية «يازور» ومسلم سني ... كان والده ثرياً معدوداً انتقل إلى الرملة، وولي القضاء فيها، وعندما نقل إلى القاهرة «المعزية» ، اتصل بوالدة الإمام «المستنصر بالله» فأعجبت به، وعينته مديراً لأعمالها بعد مقتل التُستري، فاتسع نفوذه، وأُضيف إليه قضاء القضاة، وعندما شغرت الوزارة بعد صاعد بن مسعود سنة ٤٤٢ هـ. عُين بالوزارة.

ومن الجدير بالذكر أن اليازوري لعب دوراً كبيراً في حياة الدولة الفاطمية، وظلَّ يملك ناصية الأمور حتى قبض عليه سنة ٤٥٠ هـ. وقتل في «التنيس» بعد أن ثبتت عليه مراسلة القائد السلجوقي «طغرلبك» المعادي للفاطميين.

٧ ـ عبد الله بن محمد البابلي (كفيل الدين وشرف الملّة): تولَّى الوزارة ثلاث مرات... كان في عهد اليازوري رئيس ستة دواوين عليا.. ثم أسندت الوزارة إليه بعد اليازوري مباشرة. كانت سيرته سيئة في الأوساط الشعبية، وكان الناس يذكرون إساءته لمن أحسن إليه، وقدمه، وأعني به اليازوري. صرف من الوزارة الأولى بعد

سبعين يوماً من توليته ثم اعتقل. وأخيراً أفرج عنه.. كان مسلماً سنياً.

٨ ـ **محمد بن جعفر المغربي**: هاجر من العراق إلى مصر فراراً من «البساسيري» فاتصل باليازوري الذي ولّاه ديوان الجيش. كانت أم الإمام المستنصر بالله توليه عناية خاصة، وهكذا اليازوري ... قبض عليه في جملة من قبض عليهم من أصحاب «اليازوري» وظلَّ معتقلاً حتى تقررت له الوزارة وهو في المعتقل، وذلك بعد عزل البابلي. ظلَّ رئيساً لديوان الإنشاء بعد صرفه من الوزارة. توفي سنة ٤٧٨ هـ. كان مسلماً سنياً.. لم تتجاوز أيامه في الوزارة الأشهر.

٩ ـ **عبد الله بن محمد البابلي** (مرة ثانية) من التاسع من رمضان سنة ٤٥٢ هـ حتى الثالث من محرم ٤٥٣ هـ.

١٠ ـ **عبد الله بن يحيى بن المدبر (شرف الوزراء وتاج الأصفياء)**: عرفت أسرته في الدولة العباسية بالعراق... كان يتصف بالأدب، هو ابن المدبر متولي خراج مصر في أيام ابن طولون. تولّى الوزارة مرتين، وتوفي سنة ٤٥٥ هـ. مصري الأصل، ومسلم سني.

١١ ـ **عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي (كفيل الدين وقاضي القضاة)**: كان والده قاضياً لطرابلس الشام، ثم انتقل إلى القضاء في مصر، وكان أفضل من تولاه. توفي وهو في الوزارة سنة ٤٥٤ هـ. مصري الأصل، ومسلم إسماعيلي.

١٢ ـ **أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد (ثقة المسلمين وخليل أمير المؤمنين)**: كان مثل أبيه وأخيه يعمل في القضاء، وكان مأموناً وديناً محقاً.. انتقل من القضاء إلى الوزارة، لم تحدد المدة التي قضاها في الوزارة. ذكر التاريخ أنها سبعة عشر يوماً... مصري الأصل... مسلم إسماعيلي.

١٣ ـ **الحسين بن علي بن محمد بن الحسن بن عيسى الماشلي (سديد الدولة وذو الكفايتين)**: أديب كبير، وكاتب مبرز غزير المادة. تولّى نظارة دواوين الشام، وكانت إقامته في دمشق. استدعي إلى مصر، وتقلّد الوزارة. ظلَّ في الحكم من ربيع الأول سنة ٤٥٤ حتى الثاني من شعبان من السنة المذكورة. في عهده حدثت الواقعة المشهورة بين العبيد، والأتراك. تولّى بعد صرفه من

الوزارة ديوان الشام، ثم رحل إلى مدينة صور حيث أقام فيها عدة سنين، وعاد إلى مصر أخيراً، وأصبح المشرف العام على شؤون الإسكندرية، ثم صرف من الخدمة. توفي سنة ٤٨٧ هـ. كان مصرياً ومسلماً سنياً.

١٤ ـ **البابلي**: من شعبان سنة ٤٥٤ إلى المحرم سنة ٤٥٥ هـ.

١٥ ـ **أحمد بن عبد الكريم بن عبد الكريم (مجد الأصفياء وسيد الوزراء)**: كان مثل عمه يتولّى القضاء تارة، والوزارة أخرى. صرف من الوزارة بعد شهرين أي من ١٣ محرّم سنة ٤٥٥ هـ حتى ١٧ صفر من العام المذكور. توفي في دمشق.

١٦ ـ **ابن المدبّر (للمرة الثانية)** من صفر أو من ربيع الأول سنة ٤٥٥ هـ حتى وفاته من جمادي الأولى من السنة المذكورة.

١٧ ـ **عبد الظاهر بن الفضل بن الموفق في الدين ـ ابن العجمي ـ (تاج الوزراء والأمين المكين)**: اشتهر بالجرأة، والإقدام. تولّى الوزارة غير مرة سنة ٤٥٥ هـ ثم صرف، وقبض عليه في ٢٧ شعبان من السنة المذكورة. مصري الأصل.. مسلم سني.

١٨ ـ **الحسن بن أسد بن أبي كدينه (جلال الإسلام وظهير الإمام)**: مثله مثل أبناء عبد الحاكم في التردد بين الوزارة والقضاء.. كان سيء الطبع، قاسي القلب، عُرف بأنه من ولد «عبد الرحمن بن ملجم» الذي غدر بالإمام علي بن أبي طالب، قبض عليه «بدر الجمالي» وسيَّره إلى دمياط حيث قتل فيها.. مسلم سني. وزارته كانت من شعبان سنة ٤٥٥ هـ. حتى الخامس من ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ.

١٩ ـ **أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم**: تولَّى الوزارة للمرة الثانية في الخامس من ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ. حتى ١٣ من شهر محرّم سنة ٤٥٦ هـ.

٢٠ ـ **المشرّف بن أسعد بن عقيل (وزير الوزراء وأبو المكارم)**: كان من صنائع «البابلي» وخاصته. وكان رئيساً لديوان الذخيرة.. تولّى الوزارة مرتين، وأخيراً قتله «بدر الجمالي» فيمن قتل من وزراء مصر ورجالها. وزارته كانت من ١٣ من محرَّم سنة ٤٥٦ هـ. حتى ٢٧ من ربيع الآخر من السنة المذكورة.

٢١ ـ **ابن العجمي**: .. تولّى الوزارة للمرة الثانية من ربيع الآخر حتى رجب سنة ٤٥٦ هـ.

٢٢ ـ **الجرجرائي (للمرة الثانية)**: من مستهل رجب سنة ٤٥٦ هـ. حتى العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ هـ.

٢٣ ـ **ابن أبي كدينه (للمرة الثانية)**: .. من بدء العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ هـ حتى الرابع من ذي الحجة من السنة المذكورة.

٢٤ ـ **الحسن بن إبراهيم بن سهل التُستري (العميد وعلم الكفاءة)**: كان يتولّى بيت المال، قبل إسناد الوزارة إليه.. ينسب إلى «تُستر» وهي بلدة من كور الأهواز في خوزستان. تولّى الوزارة من ٤ من ذي الحجة سنة ٤٥٦ هـ. حتى منتصف محرم سنة ٤٥٧ هـ.

٢٥ ـ **محمد بن الأشرف بن علي خلف (فخر الملك وأبو شجاع)**: كان أديباً، وله كتاب «مراد البيان» في ترتيب كتاب الدول، ولي الوزارة ليوم واحد.. عراقي الأصل، مسلم إسماعيلي.

٢٦ ـ **ابن كدينه (للمرة الثانية)**: ولمدة أربعة أيام، أي من ١٧ إلى ٢١ من شهر محرَّم سنة ٤٥٧ هـ.

٢٧ ـ **ابن خلف (للمرة الثانية)**: من ٢١ محرَّم حتى منتصف ربيع الأول سنة ٤٥٧ هـ.

٢٨ ـ **هبة الله بن محمد الرعياني (تاج الأصفياء وسديد الدولة)**: قيل إنه عراقي الأصل.. ولي الوزارة مرتين، وكل مرة عشرة أيام أي من منتصف ربيع الأول سنة ٤٥٧ هـ. حتى آخره.

٢٩ ـ **ابن كدينة (للمرة الرابعة)**: من ربيع الآخر سنة ٤٥٧ هـ. حتى منتصف رجب سنة ٤٥٧ هـ.

٣٠ ـ **المشرف بن أسعد (للمرة الثانية)** .. من منتصف شهر رجب من العشر الأخير من شوال سنة ٤٥٧ هـ.

٣١ ـ **علي بن الأنباري (كافي الكفاة)**: كان صديق «المؤيد في الدين» هبة الله الشيرازي... داعي دعاة الدولة الفاطمية.. يقال إنه ابن الوزير الحسن بن الأنباري. أقام شهراً في الوزارة ، وصرف في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٧ هـ.

٣٢ ـ **ابن كدينة (للمرة الخامسة)**: تولّى الوزارة من ذي الحجة سنة ٤٥٧ هـ حتى ٢٦ صفر سنة ٤٥٨ هـ.

٣٣ ـ **الرعياني (للمرة الثانية)**: من ٩ ربيع الآخر حتى ١٦ منتصف سنة ٤٥٨ هـ .

٣٤ ـ **أحمد بن عبد الكريم (للمرة الثالثة)**: من ٤ جمادي الآخرة سنة ٤٥٨ هـ، وقد صرف منها بعد أيام.

٣٥ ـ **الحسن بن سديد (تاج الرئاسة وسيد السادات)**: هو أخو الوزير الماشلي السابق ذكره. أقام أياماً ثم صرف، سار بعدها إلى الشام مع أخيه ثم عاد أخيراً إلى مصر. مسلم سني.

٣٦ ـ **ابن خلف (للمرة الثالثة)**: أقام في الوزارة أياماً ثم صُرف.

٣٧ ـ **طاهر بن وزير (نفيس الدولة وسيد الكفاة)**: هو من أهل طرابلس الشام، كان على ديوان الإنشاء. تولّى الوزارة في شهر جمادي الآخرة أو رجب سنة ٤٥٨ هـ. أقام في الوزارة أياماً وصرف. كان مسلماً سنياً.

٣٨ ـ **محمد بن حامد التنيسي (شمس الأمم وسيد رؤساء السيف والقلم)**: هو من أصل «تنيس» كان ذا يسار ورفعة. وزارته كانت أيام الفوضى والفتن.. أقام في الوزارة يوماً واحداً، وقتل بعد ذلك... مصري، ومسلم سني.

٣٩ ـ **منصور بن أبي اليمن الملقب بابن زنبور (عميد الخلافة وشرف الكفاة)**: كان والده نصرانياً، ومنصور على دينه، فلما أفضت إليه الوزارة. أسلم أقام أياماً، فطالبه الجند بأرزاقهم. فوعدهم، وطمأنهم، ثم هرب أخيراً خوفاً على حياته.. مصري نصراني.

٤٠ ـ **عبد الغني بن نصر بن سعيد الضعيف**: كان يخدم «اليازوري» في دولته.. قبض عليه أمير الجيوش «بدر الجمالي» ونفاه إلى «قيساريّة» ثم نقله إلى «تنيس» حيث قتل فيها. بقيَ في الوزارة أياماً ثم صرف عنها.

٤١ ـ **ابن كدينة**: «صرف عن الوزارة للمرة السادسة، وذلك يوم الثلاثاء الثامن المحرَّم سنة ٤٥٩ هـ.

٤٢ ـ **عبد الحاكم المليجي**: تولّاها في الثامن من محرَّم سنة ٤٥٩ هـ..

٤٣ - **ابن كدينة** : أقام ليلتين ثم صرف.

٤٤ - **المليجي**: أقام ليلتين ثم صرف.

٤٥ - **ابن كدينة** : أقام إلى ٢٨ من ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ.

٤٦ - **أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم (للمرة الرابعة)**: تولَّى الوزارة من ٢٨ ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ حتى شهر محرَّم سنة ٤٦٠ هـ.

٤٧ - **المليجي**: من محرم سنة ٤٦٠ هـ. حتى صفر سنة ٤٦٠ هـ.

٤٨ - **ابن كدينة**: من ربيع الأول حتى جمادي الأولى سنة ٤٦٠ هـ.

٤٩ - **أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم**: من جمادي الأولى حتى العاشر من ذي الحجة سنة ٤٦٠ هـ.

٥٠ - **ابن كدينة**: من العاشر من ذي الحجة سنة ٤٦٠ هـ. . حتى ٢٣ صفر سنة ٤٦١ هـ.

٥١ - **محمد اليازوري (خطير الملك)**: تولَّى الوزارة سنة ٤٦١ هـ. ولا يُعرف متى صرف عنها. فلسطيني ومسلم سني.

٥٢ - **محمد بن جعفر المغربي (للمرة الثانية)**: وغير معروف تاريخ توليته الوزارة، ولكنه صرف عنها في شهر رمضان سنة ٤٦١ هـ.

٥٣ - **أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم**: تولاها في شهر رمضان سنة ٤٦١ هـ. وصرف عنها بعد أيام.

٥٤ - **محمد اليازوري (للمرة الثانية)**: تولاها في شهر رمضان سنة ٤٦١ هـ. حتى شوال من العام نفسه. قتله القائد شاذي بسبب وشاية.

٥٥ - **ابن كدينة**: من شوال إلى ذي القعدة سنة ٤٦١ هـ.

٥٦ - **المليجي**: تولاها في ذي القعدة سنة ٤٦١ هـ. ولم يذكر تاريخ صرفه.

٥٧ - **ابن كدينة**: من ربيع الأول سنة ٤٦٤ هـ. حتى آخر السنة.

٥٨ - **العجمي**: للمرة الثالثة سنة ٤٦٥ هـ. قتل في رجب من السنة المذكورة.. قتله القائد «الدكز».

٥٩ ـ **ابن كدينة**: من ربيع الأول سنة ٤٦٦ هـ. حتى يوم مقتله على يد «بدر الجمالي» في شهر جمادي الأولى من السنة نفسها.

٦٠ ـ **بدر الجمالي (أمير الجيوش وسيف الإسلام)**: من ٢٨ جمادي الأولى سنة ٤٦٦ حتى سنة ٤٨٧ هـ.

هو أرمني الجنسية. كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار، تربّى عنده ثم خرج فيما بعد، وكان ابن عمار يعتبره من ذوي الشهامة، والعزم، والرجولة. انتسب إلى الدولة الفاطمية، واعتنق المذهب الإسماعيلي كما ذكرت المصادر، ولكن المصادر الفاطمية تؤكد بأن الاعتناق المذكور لم يكن إلّا في سبيل المناصب، والنفوذ، والمغانم. تنقل في الرتب حتى ولي بلاد الشام ... ومن الجدير بالذكر أنه تقلّد إمارة دمشق مرتين. ولما ثار عليه أهلها نقل إلى عكا.. في تلك الفترة كانت أحوال مصر تسير من سيء إلى أسوأ. فالجيش قد تغيَّر، والجنود قد تغيروا وتبعثروا أيضاً، والفتن قد اتصلت، وتأصلت، والوزراء يقفون بالاسم دون الأمر، والنهي، والرخاء، والصلاح لا وجود له في الدولة، وقبيلة لواته المغربية قد ملكت الريف، والعبيد استولوا على الصعيد، والطرقات انقطعت براً ، وبحراً إلّا بالخفارة الثقيلة، والمارقون ينوي بعضهم الاحتيال والغدر، ويضمر كل منهم لصاحبه الشر، والقتل، والغدر، وفي غمرة هذه الأوضاع الرديئة، وصلت إليه دعوة الخليفة الإمام «المستنصر بالله» بالحضور إلى القاهرة «المعزية» فجاء، ولم يلبث أن تسلَّم الوزارة، والقيادة، وشؤون الدعوة الدينية، وفي فترة قصيرة تمكن من القضاء على مثيري الفتن. ورتَّب الدواوين والمستخدمين وهكذا عاد الاستقرار والازدهار إلى البلاد.

ومهما يكن من أمر.. فإن بدراً تحكَّم في الدولة الفاطمية، وسيطر على أمورها، وردَّ الغزوات عنها.فهو من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح الدولة الفاطمية. مات سنة ٤٨٧ هـ.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخليفة المستنصر بالله تزوَّج ابنة بدر الجمالي ورزق منها غلاماً سمَّاه «أحمد»، وهذا الغلام ولَّاه خاله «الأفضل بن بدر الجمالي» وكان قد أصبح بعد وفاة أبيه قائداً للجيوش، ووزيراً أولاً للدولة الفاطمية، وذلك بعد إبعاد وقتل الوصي الشرعي للخلافة وللإمامة «الإمام نزار».. وبعمله هذا مثل دور

الطاغية الذي حمل معول الهدم للدولة الفاطمية.. وكل هذا سنفصّله في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة.

٦٠ - **الأفضل بن بدر الجمالي (سيف الإمام وشاهنشاه)**: ... تولّى الوزارة والقيادة بعد وفاة والده سنة ٤٨٧ هـ. ومن الجدير بالذكر أنه تدرب على شؤون الحكم والإدارة على يد والده.. اعتبر أيضاً من وزراء الخليفة الفاطمي التاسع «المستعلي بالله» أو القيم عليه.

أحداث وأعاصير

نلاحظ ، ونحن نستعرض أسماء الوزراء الذين استخدمهم الخليفة الإمام المستنصر بالله. أن الدولة الفاطمية إبان عهدهم كانت تسير بخطى وئيدة نحو المصير المحتوم... .. فالأقاليم التابعة للدولة الفاطمية الأم، سادها الاضطراب، والفوضى، والفساد، والولاة طمعوا وشجعوا الثورات، وحركات الاستقلال، ونبذ طاعة الدولة... وفي الداخل اختل الأمن، وضاع الاستقرار وذهب الإخلاص، ولم تنفع الحكمة، والسياسة. فكان الوزير لا يمضي إلَّا أياماً في الحكم حتى تقتله أيد مجهولة لا يعرف لها جنسية، ولا انتماء، فيذهب ضحية المؤامرات.

وفي آخر المطاف تسرَّبت الأسرة الأرمنية المستأجرة إلى حرم الدولة الفاطمية، وتمَّ لها تنفيذ المخطط المرسوم الذي هدف إلى القضاء على الدولة الكبيرة، وكان ذلك عندما تزوج الخليفة الإمام المستنصر بالله ابنة الوزير «بدر الجمالي» ذلك الزواج الذي مكنه من التحكم بالدولة وبالبلاد الفاطمية «فالأفضل بن بدر الجمالي» قد فرض وعيّن ابن شقيقته «أحمد» خليفة وإماماً بالقوة. بعد أن قتل أسرة نزار، الإبن الأكبر للمستنصر بالله وأبادها، وولي العهد المعترف به، والذي كان قد مضى على ولايته للعهد ما يقارب الثلاثين عاماً، وقد كانت هذه المؤامرة بداية النهاية، إذ أن الدولة الفاطمية أصبحت خاضعة لأئمة غير شرعيين كانوا خاضعين لعناصر أرمنية. حتى انهارت الدولة وذهبت ضحية الاستخفاف.

أما الأحداث التي سبقت الوقائع فيمكن اختصارها بما يلي:

في سنة ٤٤٤ هـ. هبط منسوب مياه النيل، فارتفعت الأسعار في مصر، واشتد الغلاء ، وفقدت المواد، وتفشّت الأمراض، والأوبئة،

وكثر الموت في الناس، ثم عادت هذه الموجة من جديد سنة ٤٤٦ هـ. وخلال تلك المدة اشتبه على الخليفة الإمام المستنصر بالله أمر رجالات الدولة، وأصبح يشك في الناس الذين يجتمعون حوله. ولا يأمن لأحد منهم.

وفي سنة ٤٥٣ هـ. كثر تنقل الوزراء، والقضاة، ورؤساء الدواوين، وتضاعفت الوشايات، وبرز الحسد والجشع، وعمَّت السرقات والفساد، واختلَّ النظام والأمن بحيث أصبح الحكم للرّعاع وللأراذل، ولأبناء الشوارع، ووقع الاختلاف بين الجنود، والقواد، وضعف شأن الوزراء لقصر مدة حكمهم، وخفَّت الواردات، وقلَّ الإنتاج، وسادت البلاد موجة طاغية من الاستخفاف بالأمور، واستمرت هذه الفترة العسيرة التي سميت الشدة العظمى، زهاء عشر سنوات.

وفي سنة ٤٥٤ هـ. وقعت الفتنة الكبرى بين العبيد والأتراك. وقيل إن «أم المستنصر» انتصرت للعبيد فكانت تمدهم بالأموال، والسلاح، وتساعدهم على الوصول إلى حقوقهم كاملة، ولكن هذا لم يجد نفعاً، فانتصر الأتراك، وتمكنوا من طرد العبيد إلى الصعيد، وقد نتج عن هذه الأحداث قيام المعارك التي دمَّرت كل شيء في كل مكان، وجعلت البلاد تحت سيطرة شراذم من الجيش المنقسم على نفسه، والخارج على النظام.

وبعد اعتقال الوزير اليازوري دخلت الدولة حالة من الاضطراب والفوضى وخاصة حين تولى الوزارة، وزراء ضعاف، غير متمرّسين بشؤون الحكم، وكان أكثر هؤلاء لا يبقى في الوزارة إلا أياماً قليلة.

ومن المشهور عن الوزير اليازوري أنه رغم خدماته للدولة الفاطمية، فقد جمع كل مظاهر القوة، والسلطان بفضل ثقة «أم المستنصر»، وكان بالإضافة إلى كل ذلك، رجلاً مؤهلاً للحكم، ومحباً لحياة الرفاهية، ميالاً للترف، وشغوفاً خاصة بالفن والتصوير... وقيل إنه أمر بصنع خيمة بلغت نفقة إقامتها ثلاثين ألف دينار، وقد اشترك في صنعها مئة وخمسون صانعاً ظلّوا يعملون في صناعتها وتطريزها تسع سنوات، وقد صوروا عليها كل حيوانات الأرض، وطيورها.

أمّا مائدته فكان يجلس إليها كل يوم القضاة، والفقهاء، والأدباء،

وكانت أغنى من موائد الملوك، وكان الخليفة الإمام «المستنصر بالله» يحضرها كل يوم ثلاثاء، وهي عادة درج عليها. وعرف عن اليازوري أنه كان أنيقاً في ثيابه، ولباسه... وهذا البذخ استرعى الانتباه، وأثار الشكوك حول استغلاله لموارد البلاد... ففكّر في الهرب من البلاد حينما شعر أن الخليفة الإمام بدأ يتغيَّر عليه، وقد جعل أمواله في سبائك من ذهب هرّبها ابنه إلى الشام وقدرت بثلاثة ملايين دينار.

ولكن الوزير اليازوري كان رجلًا قادراً تمكن من إدارة دفة البلاد بمهارة، واجتاز الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد، «قضى على المجاعات التي كانت تطلّ بوجهها، وقد تجلّى كل هذا عندما داهم الغلاء البلاد المصرية سنة ٤٤٦ هـ.، وعندما هبطت مياه النيل إلى منسوب أدنى...... ...وفي تلك الفترة لم يكن في مخازن الدولة إلّا ما يكفي لحاجة القصور، وارتفعت الأسعار بشكل جنوني، واشتدَّ الأمر على الناس، وانتهز التجار فرصة إفلاس الفلاحين وعجزهم عن دفع الضرائب المترتّبة عليهم وخاصة الخراج. فاشتروا منهم محصول القمح قبل أن يحل موسمه بسعر بخس. وحملوه بعد حصاده إلى مخازنهم. وهنا، وإزاء هذا الوضع أمر الوزير اليازوري بمصادرة هذه الغلال، وعوَّض التجار عن كل دينار دفعوه ديناراً آخر.

ولما جمعت الغلال في المخازن حدَّد ثمن «التليس» بثلاثة دنانير، بعد أن كان بثمانية، ثم قرر أن توزع على الخبازين في مصر، والقاهرة ما يكفي حاجة الاستهلاك اليومي. وبهذه الطريقة اجتاز المحنة بسلام.

وبعد اليازوري عادت الفوضى، وقامت المجاعات، واستمرَّت سبع سنين، وصلت فيها البلاد إلى درجة من الفاقة والعوز لم يعرف مثلها في التاريخ...

حتى جاء «بدر الجمالي» فأعاد تنظيم الدولة، ومرافقها، وأدخل النظام على الدوائر كافة، وأنقذ الاقتصاد من الانهيار، وقضى على الفساد المهيمن في كل مكان، كما نظَّم الشؤون المالية تنظيماً دقيقاً.

وسامح الفلاحين بالخراج المقرر عليهم ثلاث سنين، وفي السنة الرابعة جبى نصف الخراج، وعمَّر الريف، وأصلح الترع، والجسور حتى صلحت الأحوال، واستغنى أهل الريف، وشعروا بالأمن، والرخاء، والرعاية من قبل الدولة، ولأجل تأمين الرقابة الفعلية أعاد

تقسيم البلاد إدارياً إلى واحد وعشرين عملاً، والأعمال إلى نواحٍ، والنواحي إلى كفور وقرى، كما شجع أصحاب رؤوس الأموال، وذوي اليسار على الحضور إلى مصر، فكثر ورود التجار في تلك الأيام، بعد أن كانوا قد نزحوا عنها أيام الغلاء.

كان لهذه السياسة الحازمة أثر بارز في عودة الرخاء إلى البلاد، فتراجعت الأسعار حتى بيع «تليس» القمح بربع دينار، كما تحسنت ميزانية الدولة تحسناً مرموقاً فضلاً عن انتعاش الحياة العلمية والفكرية.

وبالإمكان أن نضيف إلى أعمال «بدر الجمالي» تشجيعه العمران، والبناء. فقد ذكر أنه جدَّد جامع «العطّارين» في الإسكندرية، وأنشأ جامع «المقياس» و«الجامع العتيق» بأسنا، وجامع «أمير الجيوش» بأعلى جبل المقطمَّ، ومشهد الإمام الحسين «بعسقلان» في فلسطين، كما عمَّر الجامع الطولوني والمسجد النفيس، والمسجد العمري، وأدخل الفن البيزنطي على أبواب القاهرة الثلاثة: أي باب زويلة، وباب النصر، وباب الفتوح.

.. إن إنجازات بدر الجمالي مهما بلغت فلا تعادل ما خرَّبه ابنه «الأفضل» في الدولة الفاطمية..

ثورات داخلية

في سنة ٤٤٢ هـ. ثار عرب «بني قرَّة» بالبحيرة على الدولة الفاطمية، وكانوا قد استقروا فيها، وملكوها، وعمروا ضياعها، ومزارعها، وقد انضمَّ إليهم «الصلحيُّون» ـ واشتدت شوكتهم حتى ضاق بهم ولاة الإسكندرية، وكان الوزير اليازوري قد ولَّى عليهم رجلاً يقال له «المقرَّب» ، فأنفوا من الخضوع إليه، وطالبوا بعزله، وعندما رُفض طلبهم، شقوا عصا الطاعة، فاضطرَّ الإمام المستنصر بالله أن يجرد عليهم حملة عسكرية، ثم أتبعها بأخرى، فالتقت بهم «بكوم شريك» .. وهناك دارت الدائرة عليهم، واضطروا إلى الفرار هم «والصلحيُّون» إلى برقة، ثم انقطع أثرهم بعد ذلك في منطقة البحيرة.

ولما كانت مهمة الجند في أعمال البحيرة هي الحفاظ على الأمن، وهذا يكلف الدولة نفقات باهظة، فإن اليازوري أرسل إلى «بني سينس»

وهم قبيلة تنتسب إلى «طي» وكانت تقيم في «الداروم» جنوبي غزة، فأقطعهم أراضي وديار «بني قرَّة» وبذلك محى كل أثر لهم.

ونعود إلى بدر الجمالي... فنقول إنه من سنة ٤٦٦ هـ. إلى سنة ٤٦٩، ظلَّ يتتبع المفسدين من الأمراء، والقواد والأعيان الذين تمرنوا على الفساد، وأعمال الفتن، وخلق الاضطرابات. فكان أول عمل قام به من هذا النوع هو القضاء على الأمراء الأتراك. فقتل معظمهم في وليمة أولمها لهم. ثم قبض على الباقين حيث أودعهم السجون. وبعد ذلك خرج إلى الوجه البحري سنة ٤٦٧ هـ. فقضى على قبيلة «لواتة» البربرية، واستصفى أموالها، ويقال إنه قتل منها عشرين ألفاً، ثم توجه بعد ذلك إلى «دمياط» فقضى على المفسدين فيها ثم عبر إلى البر الغربي، فقتل العديد من الطائفة «الملحية» حتى وصل إلى الإسكندرية، فاستأصل المفسدين فيها. وبعد ذلك ذهب إلى الصعيد حيث اجتمع عليه بمدينة «طوخ العليا» جماعة من عرب «جهينة» و «الثعالبة» و «الجعافرة» لقتاله... فسار إليهم، وطوقهم ليلاً حتى أفنى أكثرهم قتلاً، وقد غرق من فرَّ منهم، وصادر أموالهم.. ومن هناك سار إلى «أسوان» حيث قضى على ثورة «كنز الدولة ـ محمد بها» كما قضى على عرب «قيس» و «سليم» و «نزارة» وطرد كل من بقي منهم إلى برقة. وفي تلك الفترة وصلت إليه أوامر الخليفة الإمام المستنصر بالله بالعودة إلى القاهرة «المعزية» لمواجهة خطر «أتسذ» صاحب دمشق الذي قاد حملة جبارة، وأقبل يريد الاستيلاء على مصر لإقامة الدعوة العباسية فيها، ولكن «بدر الجمالي» عاد، واستقبله، وخاض معه عدة معارك انتهت بهزيمته شر هزيمة، ولكن لم يتم ذلك إلَّا بعد أن عاثت جيوشه خراباً في ريف مصر.

أحداث المغرب

مرَّ معنا أن الولاية الفاطمية في المغرب كانت معقودة اللواء «للمعز بن باديس آل زيري الصنهاجي» حتى عهد الخليفة السابع الإمام الظاهر لإعزاز دين الله.

وفي سنة ٤٤٣ هـ خلع «المعز بن باديس» طاعة الفاطميين نهائياً، وأعلن الولاء للعباسيين، وكان يضطلع بشؤون الوزارة في ذلك العهد اليازوري الذي كان في باطنه يضمر العداء للمعز المذكور، وهنا أشار

اليازوري على الخليفة الإمام المستنصر بالله إرسال القبائل العربية المعروفة، «بني هلال» و «زغبة» و «رباح» و «ربيعة» و «عدي».

وكانت موجودة في الأراضي المصرية، ولما كانت تعيش حياة الفوضى، ولا تتمسك بالأنظمة أو تخضع للقوانين، فإن الإمام المستنصر بالله رأى إرسالها إلى المغرب للاستيلاء عليه واجتمع إلى رؤسائها وأزال كل ما بينهم من خلاف، كما ألزم الدولة بدفع الديَّات المستحقة على بعض هذه القبائل، ثم أجزل لأمرائها العطاء، وزودها. بكل ما تحتاج إليه من مال، وعتاد، وسلاح، وأمرها بالمسير إلى المغرب بعد أن أمَّر عليها «الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي» ليكون قائدها ومندوباً من قبله عليها، وليكون حلقة الوصل بينها وبينه.

فلما علم المعز بن باديس بالمؤامرة سار إليهم قبل أن يتحركوا من «برقة»، فدارت المعارك الطاحنة بينهم وبينه، ولكنهم هزموه، واندفعوا وراءه، وهو يتراجع حتى «المهديَّة» بالمغرب... وهناك طوقوها، وتمكنوا أخيراً من احتلالها، والاستيلاء على قصور «الزيريين»، وعلى الأثر عاد «علي بن ملهم» إلى القاهرة «المعزية» محملاً بالأسلاب، والغنائم التي نهبت من قصورهم، ومن قصور الأمراء الموالين لهم، ومن قصور القواد، والولاة أيضاً.

هذه الهجرة العربية إلى المغرب، أو بلغة أصح هذا الغزو العربي تبعته غزوات أخرى من عرب بني هلال وأحلافهم الذين آثروا اللحاق فيما بعد بأخوتهم، وأبناء عمومتهم، بعد أن اطمأنوا إلى نجاحهم، واستملاكهم الأراضي الواسعة، والمدن الكبرى. هذا ومن الجدير بالذكر.. أن جميع القبائل العربية التي كانت تقيم في المغرب أعلنت عن ولائها وتأييدها وشاركت بالمعارك ضد البربر، وقد كان لهذا الفتح العربي صداه الطيب في مصر، حتى أن الخليفة الإمام «المستنصر بالله» كان يتلقى القرارات العليا فيوافق عليها، ويباركها، ومنها التقليد بتولية «موسى بن يحيى المرداسي» القيروان وباجه وزغبة وطرابلس، وقابس. وبتولية «الحسن بن سرحان» «قسطنطينة».

هذه الحركة التي انتهت باستيلاء العرب على المغرب، واقتسامه وتدمير كل شيء غير عربي فيه، قد جعلت آل باديس الصنهاجيين

يهرعون إلى تأدية الأتاوات، والضرائب للعرب الذين ملكوا الأرباض والمدن. أما بالنسبة للخليفة الإمام المستنصر بالله، فقد نفَّذ مهمة تعريب المغرب، وأصبح حكامه العرب يدينون له بالولاء والطاعة، فاعتبر المؤرخون أن هذه الثورة أحدثت في تلك البلاد تعديلاً جنسياً، وعنصرياً بحيث امتزج العرب فيما بعد بأهل المغرب، وأصبح هذا القطر معروفاً بعروبته، ويعود الفضل في ذلك إلى الخليفة الإمام المستنصر بالله الفاطمي.

تذكر بعض المصادر: أن المعز بن باديس قد ندم على ما فعل.. وبعد ذهاب الوزير اليازوري سنة ٤٥٢ هـ. عاد، واتصل بالخليفة والإمام المستنصر بالله طالباً منه الصفح. ويذكر التاريخ أنه أرسل إليه هدايا ثمينة، ومنها أوراق مرصعة بالجوهر كانت للخليفة الفاطمي الأول «عبد الله المهدي»، ولكن الاضطرابات التي عمّت البلاد في أواخر عهد الإمام المستنصر بالله، جعلت العلاقات تصاب بفتور، وأخيراً بالانقطاع.

وذكرت المصادر الفاطمية: أن يحيى بن باديس عاد سنة ٥٠١ هـ إلى طاعة الفاطميين، ولما مات خلفه ابنه علي سنة ٥٠٩ هـ. وقد أرسل إليه الخليفة الفاطمي الآمر وقتئذٍ رسولاً من قبله ليحمل إليه التهاني. والتبريكات.

في ديار الشام

مرَّ معنا أن الخليفة الفاطمي السابع الإمام «الظاهر لإعزاز دين الله» قد استعان بالقائد «أنوشتكين الدزبري»، وعهد إليه قيادة حملة عسكرية لاستعادة سيطرة الفاطميين على الشام، فخرج سنة ٤٢٠ هـ. متوجهاً بادىء ذي بدء إلى «الرملة» ثم إلى «بيت المقدس» وهناك التقى بالخارجين قرب «الأقحوانة ـ طبريا» فتمكن بعد معارك عدة من قتل «صالح بن مرداس» وابنه الأصغر، وهرب «إحسان بن الجراح» إلى الإمبراطور البيزنطي.

وصل «الدزبري» إلى دمشق، ومكث فيها متحيناً الفرص للاستيلاء على حلب، وفي سنة ٤٢٩ هـ. استولى عليها، وأصبح الحاكم المطلق في ديار الشام كلها، ولكن العلاقات ساءت بين الوزير الجرجرائي والدزبري، فاتهم الأول الثاني بمحاولة الاستقلال بالحكم، ولهذا ألَّب

عليه جيشه، وأغرى بعض القادة العسكريين على الخروج عليه، فحاول الدزبري قتال المنشقين ولكنه فشل. فخرج إلى «بعلبك» ولكن واليها منعه من الدخول، ثم قصد «حماه» فصُدَّ عنها أيضاً. فسار إلى «حلب» ودخلها بمساعدة «المقلِّد بن منقذ الكفرطـابي» سنة ٤٣٣ هـ. ولما عاد إلى دمشق وصل سجل الخليفة الذي يتهمه فيه بالخيانة. فأرسل يستعطفه دون جدوى، وعندما يئس رجع إلى حلب، وعكف على الشراب حتى مرض من الحزن، ومات سنة ٤٣٣.

بعد الدزبري عاد الأمن يختل من جديد في ديار الشام، وأخذ العرب يعيثون فساداً، واستبدَّ حسان بن مفرج الطائي بفلسطين، وقام «الحسين بن حمدان» ناصر الدولة متولي دمشق من قبل الفاطميين يعمل لمنع وقوع دمشق في أيدي العرب ثم إنه هاجم حلب بقصد انتزاعها من ثمال بن صالح بن مرداس، ولكنه عاد خائباً ومن المعروف أن ثمال ظلَّ محتفظاً بحلب حتى جاء«المؤيد في الدين» ـ هبة الله الشيرازي ـ داعي الدعاة، فـأعاده إلى الحظيرة الفاطمية، وبعد ابن حمدان تولَّى الحكم في الشام «مظفَّر الصقلبي» فقبض على ابن حمدان واعتقله في مدينة صور ثم في الرملة، وفي هذه الفترة خرج «رفيق الخادم» بعسكر عدته ثلاثين ألفاً بقصد محاربة بني مرداس، ولكنهم ظفروا به ، وسجنوه في قلعة حلب، ثم أفرج أخيراً عن ابن حمدان، فذهب إلى القاهرة، ومات فيها.

أما أسرة بني مرداس: فبعد ثمال تسلَّم الحكم «عطية بن صالح بن مرداس» أبو ذؤابة» وكان أخوه قد أوصى له بذلك سنة ٤٥٢ هـ. ولكن ابن أخيه «محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح» انتزعها منه، فسار «عطية» إلى الرقة، وملكها، وما زال فيها حتى أخذها منه «مسلم بن قريش» سنة ٤٦٣ هـ.

ومما تجدر الإشارة إليه أن «حلب» ظلَّت على أوضاعها المتقلبة كما ذكرنا حتى استولى أخيراً عليها «ألب أرسلان» السلجوقي سنة ٤٦٣ هـ.

هذا بالنسبة لحلب. أما الشام، فإن اضطراب الأحوال في مصر جعل السلاجقة يتطلعون إليها، فجردوا حملتهم المشهورة سنة ٤٦٥ هـ. وبدأوا باحتلال المعاقل والبلدان، وعندما استقرَّت الأحوال في الديار

المصرية، وجَّه الفاطميون الجيوش لاستعادة دمشق، لكنها عادت دون أن تتمكن من احتلال أي بلد. فأعادوا الكرة، وهنا استعان حاكمها بتاج الدولة «تتش بن ألب أرسلان» فجاء «تتش» إلى دمشق، وهزم الفاطميين ثم استولى على دمشق وقتل «اتسذ» كما زحف إلى بعلبك، وأزال عنها الحكم الفاطمي.

وكنا قد ذكرنا أن «أتسذ» قطع خطبة الفاطميين من ديار الشام، ولم تعد الخطبة إليها بعد ذلك، كما أنه حاول الاستيلاء على مصر نفسها، فهاجمها سنة ٤٦٩ هـ. منتهزاً فرصة انشغال «بدر الجمالي» في القضاء على الفتن، والثورات في الصعيد. فاستولى على «الدلتا» ولكن بدراً عاد إلى القاهرة، وهاجم «اتسذ» وألحق بجيشه هزيمة منكرة، وعندئذٍ فرَّ إلى الشام بمفرده - وفي تلك الفترة ثار عليه أهل غزة، والرملة، وبيت المقدس، إلَّا أنه استطاع إخضاعها بالسيف فيما بعد.

وقاد «بدر الجمالي» حملة لفتح دمشق سنة ٤٧٨ هـ. فحاصرها مدة وقاتل. إلا أنه لم يتمكن من دخولها، فعاد إلى مصر. وفي سنة ٤٨٢ هـ. أرسل قائده ناصر الدولة، فاحتل مدن الساحل: صيدا، وصور، وعكا، وجبيل، ثم احتل بعلبك. وهنا حاول السلاجقة استعادة ما استولى عليه الفاطميون، ثم مهاجمة مصر نفسها، فـاجتمعت جيوش «تتش» في دمشق، وجيش «اقسنقر» في حلب «و «بوران» في الرها، وتعاهدوا على اللقاء في حمص سنة ٤٨٥ هـ. وبدأوا بـاحتلال بعض القلاع الفاطمية، ولكن هذه الحملة فشلت أمام طرابلس الشام نتيجة مساعي صاحبها «علي بن عمار».

وتوفى الخليفة الإمام «المستنصر بالله» وليس للفاطميين إلَّا بعض مدن الساحل في بلاد الشام. وبالنسبة للسلاجقة فإن الخلاف لم يلبث أن دبَّ بينهم، فوقع النزاع بين تتش، وابن أخيه «بركيارق» وذلك سنة ٤٨٦ هـ، وأدَّى إلى قيام الحرب بينهما وانتهت هذه الحرب بمقتل «تتش» سنة ٤٨٨ هـ. فاقتسم ابناه «دقاق» و «رضوان» أملاك أبيهما. فاستقل رضوان بولاية حلب، ودقاق بدمشق، وكانت الفرصة مهيأة في هذه الفترة لاستعادة الشام وحلب للفاطميين لولا وقوع الفتنة الكبرى بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله.

امتدَّ سلطان الفاطميين في عهد المستنصر بالله، إلى الشام، وفلسطين، والحجاز واليمن، وشمال أفريقيا، وصقلية، وكان اسمه يتردد في الجوامع الإسلامية من المحيط الأطلسي غرباً حتى البحر المتوسط شرقاً. وهكذا بالنسبة لصقلية، ولكن بعض هذه البلدان لم تلبث أن خرجت الواحدة تلو الأخرى، وأوّلها صقلية التي استولى عليها «روجردن» الرومي كما ذكرنا، ثم تبعتها المدن الأخرى في الشرق والغرب.

لقد كان ذلك بداية النهاية كما قلنا. فالدولة الفاطمية كانت في طريقها إلى الانهيار، والزوال، ويعتبر عهد المستنصر بالله عهد الشيخوخة الذي ينتهي بصاحبه إلى القبر، وكل هذا ظهرت آثاره واضحة منذ أن تسلَّم الأرمني المتآمر زمام الأمر في الدولة الفاطمية.

سقوط بغداد

الدعوة الفاطمية قديمة في المشرق، ويعتبر المشرق ساحتها والمسرح الذي مثلت عليه أدوارها. فالدعوة الإسماعيلية كما هو واضح لم تتوقف عن العطاء منذ أن كان مركز انطلاقها في مدينة سلمية ـ في سورية في عهد الأئمة المستورين، وبعد أن تمركزت في المغرب فالديار المصرية.. ازداد نفوذها، وتضاعف، واتسعت الدعوة وأصبحت ترتكز على أسس متينة، ودعائم قوية.

أما الآن فاستيفاء للبحث عن عهد الخليفة الإمام المستنصر بالله، لابد من إعطاء لمحة عن الدعوة الإسماعيلية في بلاد فارس، والعراق، وعن الدور الكبير الذي قام به الفيلسوف الداهية المؤيد في الدين «هبة الله الشيرازي» داعي الدعاة. فهذا العبقري تمكن بدهائه ومرونته من إعادة حلب إلى الدولة الفاطمية، وإحداث انقلاب عسكري في بغداد استهدف الخليفة العباسي القائم، وقد التحقت آنئذٍ العراق بالدولة الفاطمية في مصر، وظلَّ هذا الوضع قائماً مدة عام ونيف.

ولو أن المخطط الذي وضعه هذا الداهية نفذ، ولو أن القائمين على شؤون الدولة الفاطمية العليا أعاروا آراءه ونصائحه ما تستحق... إذن لتغيّر وجه التاريخ.

أجل... لا يستطيع الباحث في التاريخ، وهو يعرض أحداث الماضي، وسير حياة العظماء الذين لعبوا دوراً مهماً على مسرح الحياة إلَّا أن يعرِّج ولو هنيهة على رحاب علم من أعلام الأدب، والفلسفة،

والخطابة، وداهية من دهاة السياسة استطاع بمرونته، وعبقريته وصبره أن يحدث انقلاباً عسكرياً في أكبر دولة عرفها ذلك العصر، وأعني بها الإمبراطورية العباسية، ذلكم هو المؤيد في الدين، وداعي دعاة الفاطميين «هبة الله الشيرازي» الذي ولد في بلاد فارس في القرن الرابع للهجرة، والمعروف في تاريخ الأدب العربي بمناظرته مع «أبي العلاء المعري». وبالرغم من أن المؤيد في الدين فارسي الموطن إلّا أنه عربي الأصل، وقد عرف عنه بأنه وفد على مصر، وأقام فيها ثلاثين عاماً ونيف حيث أنشد في ربوعها أرق قصائده، وألقى أروع محاضراته الفلسفية أو «مجالسه» ـ كما سمّاها ـ على الطلاب والراغبين، والمستجيبين. فأثّر في الحياة العقلية، والسياسية، والأدبية تأثيراً لا حدود له.

ولم تقف في سبيله، أو تمنعه من الانصراف إلى حقل السياسة العليا للدول الإسلامية، قضايا الأدب، والشعر، والفلسفة، ولعله سار على غرار ابن سينا، وأبي عبد الله الشيعي ومنصور اليمن وغيره من الدعاة الإسماعيليين الذين جمعوا بين العلم والسياسة:

هو: «هبة الله بن أبي عمران بن داؤد...» ولد في شيراز سنة ٤١٠ هـ. والده كان حجة فارس في عهد الخليفة الفاطمي السادس «الحاكم بأمر الله» وكل ما عرف عنه يتلخص فيما قاله المؤيد في الدين عن نفسه بمذكراته:

«إن والدي كان في هذا البلد متسماً بهذا الاسم، ومرتسماً بهذا الرسم، وكان له من المكنة، واليد، والقدرة ما كان يغنيه أن يطأ عتبة الباب، أو يقاسي ذل الحجاب، وكان في عهده الوزير «أبو غالب الواسطي» الملقب بفخر الدولة ووزير الوزراء، والمعروف باتساع مكنته، وانبساط يده، ونفوذه، فلم يعهد والدي قط داخلاً إليه، أو مسلماً عليه، بل كان هو يزوره، ويغشاه في منزله».

من هنا... يتبين أن والد «المؤيد في الدين» كان داعياً في إقليم فارس، وأنه كان على جانب كبير من عزة النفس والمكانة حتى أن الوزير الواسطي كان يزوره في منزله دون أن يزوره هو في منزله أو في إيوانه.

تبوأ المؤيد في الدين بعد وفاة والده مرتبة داعي إقليم فارس، وبدأ نشاطه بأن اتصل بالملك البويهي «أبي كاليجار» الذي كان في بدء

حياته يكره الشيعة ثم أصبح فاطمياً بعد اتصال المؤيد به ، وخاصة بعد أن حضر مجالسه العلمية، واستمع إلى مناظراته مع علماء «المعتزلة» و «الزيدية» و «أهل السنة».. تلك المناظرات التي كان يتفوق بها على مناظريه، ويفحمهم بالأدلة، والبيانات، والحجج الدامغة. وكل هذا عجَّل بانتفاضة الأعداء عليه، وحسدهم، وخاصة طبقة العلماء، ورجال الدين، والقضاة. وفي تلك الفترة شاعت الظروف أن يتصدع أركان أحد المساجد في مدينة الأهواز، فيذهب المؤيد في الدين للإشراف على ترميمه وتجديده، وتجرأ وأمر بنقش أسماء الخلفاء الفاطميين بالذهب على محرابه وأبوابه، كما أقام خطبة الجمعة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، مما أثار حفيظة قاضي الأهواز ابن المشتري ، فأرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي «القائم» في بغداد ينعي فيه الدولة العباسية ويؤكد سقوطها في أيدي المؤيد في الدين، فأرسل على الأثر «القائم» العباسي وزيره «علي بن الحسن» المعروف «بابن المسلمة» إلى شيراز مع كتاب إلى «أبي كاليجار» يهدده بالاستعانة «بالسلاجقة» وإغرائهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلدان إذا ظلَّ المؤيد في الدين في فارس، فخاف «أبو كاليجار» عاقبة الأمور، وكان من أمره أن أوعز إلى المؤيد في الدين بالخروج من شيراز، ولما لم يجد هذا بداً من الهجرة، سار إلى مصر متخفياً، ومتجنباً الطرق العامة، وسالكاً البراري، والقفار حتى لا يقع بأيدي الكمائن التي أعدها له العباسيون، حتى وصل إلى القاهرة «المعزية».

أجل.. خرج المؤيد في الدين من شيراز. في فارس يتحمل لفح الهجير والزمهرير ماضياً إلى غايتهمسرعاً دون أن يكون له في رحلته الشاقة صديق أو رفيق.. إن أشرق الصباح توارى خائفاً، أو جن الليل سار متحرزاً، وفي الحالتين لا يني عن التفكير في ماضيه، وحاضره، ومستقبله، وكانت تلك الفترة من أكثر الفترات في حياته ألماً.

خرج المؤيد في الدين من شيراز، وهو يتطلع إلى بغداد شزراً.. وكان يعلم أن الخلافة العباسية لا تزال ترتجف هلعاً عند سماع اسمه، وأن ساستها يتسقطون أخباره، فلقد أزعجهم تحليقه كالنسر الذي لا يعشق إلاَّ الذرى والقمم العالية.

وحطَّ الرحال أخيراً في القاهرة المعزية، وكانت آماله بأن الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله سيوليه عطفه، ويدنيه، ويكافئه على جهاده، وينيله كل ما يتمناه، ولكن أنَّى له الاتصال به؟ فالخليفة مشغول عنه بالخلافات، والانشقاق الداخلي الذي ذرّ بقرنه في صفوف حاشيته، ووزرائه، وقواده، وجعلهم يعدمون رشدهم، ويكيدون لبعضهم البعض. ويتآمرون على مصلحة الدولة الكبرى، وعلى قضية البلاد العليا، هذا فضلاً عما نجم من انتفاضات في الأقاليم، والمناطق الفاطمية في المغرب، والحجاز، وصقلية، مما جعل كيان الدولة مهدداً في أغلب الأحيان وقد أوحى للمؤيد في الدين هذه الأبيات:

إلهي أحاط اليأسُ من كل جانب ... بنا وبنا ضاقت جميع المذاهب
غدونا بجور الدهرِ مأكلَ آكلٍ ... وصِرْنا بمسّ الضرّ مشربَ شارب
غدت دعوة الأطهار من آل فاطمٍ ... شموسّ الهدى الشمُّ الكرام المناسب
مبلبلةٌ من قصدِ ناسٍ مغالبِ ... مزلزلة من كيد رجس المناصب

... وجد المؤيد في الدين في مصر أن أمر الدولة الفاطمية في أيدي حفنة من الوزراء الوصوليين المستغلين. ففكر غير مرة في الرحيل عنها، ولكنه اصطدم برغبة الخليفة في البقاء، والانتظار، والصبر... فقدر عليه أن يعيش وسط الدسائس، والوشايات، والمؤامرات. فكان يقرّب تارةً، وتارة يُبعد.. فهو بين الرضى والغضب... بين المد والجزر، وهكذا فإن العباقرة في كافة الأزمنة، والعصور، يتعثرون، ويحوطهم الحاسدون، وتطوقهم الغايات، والأهواء، والسحب الدكناء، والعواصف الهوجاء.

ومهما يكن من أمر... فإن المؤيد في الدين عندما وصل إلى القاهرة المعزية واستقرَّ فيها تقرَّب من «أبي سعيد هرون التُستري» واتخذه واسطة للوصول إلى الخليفة «المستنصر بالله» ـ والتُستري كما ذكرنا في الصفحات السابقة كان مربياً لوالدة الخليفة، فمن هذه الجهة كان واسع النفوذ، وقابضاً على أمور الدولة يتصرف بها كيفما شاء، وفوق ذلك فقد تسلَّم نظارة الخاصة لأم الخليفة.. ولكنه ماطل وسوَّف، ولم ينجز وعده.

وأخيراً قتل هذا الرجل سنة ٤٣٩ هـ. بمؤامرة دبرها الوزير الأول

«صدقة بن يوسف الفلاَّحي» فكان هذا الحدث مدعاة للمؤيد في الدين لكي يتصل بهذا الوزير الذي بادر إلى تعيينه ناظراً على المجلس الخاص الذي يدخل منه الخليفة على والدته، وكان غرضه من هذا التعيين إفساح المجال أمامه لمقابلة الخليفة الإمام، والتحدث إليه، ولكن الظروف شاءت أن تبقى أبواب الخليفة موصدة في وجهه... مما جعله يرسل إليه هذه الأبيات:

أقسم لو أنك توجتني ... بتاج كسرى ملك المشرق
ونلتني كل أمور الورى ... من قد مضى منهم ومن قد بقي
وقلت أن لا نلتقي ساعةً ... أجبتُ يا مولاي أن نلتقي
لأنَّ إبعادك لي ساعة ... شيَّب فؤاديَّ مع المفرقِ

فأجابه الخليفة الإمام المستنصر بالله على الفور:

يا حجةً مشهورة في الورى ... وطود علمٍ أعجز المرتقي
ما أغلقت دونك أبوابنا ... إلَّا لأمرٍ مؤلمٍ مقلقِ
ولا حجبناك ملالاً فثق ... بعهدنا وارجع إلى الأليق
شيعتنا قد عدموا رشدهم ... في الغرب يا صاح وفي المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا ... وكن لهم كالوالد المشفقِ
إن كنت في دعوتنا آخراً ... فقد تجاوزت مدى السُبَّق
مثلك لا يوجد فيما مضى ... من سائر الخلق ومن قد بقي

وفي سنة ٤٤٠ هـ. عزل الوزير «الفلاَّحي» وسجن ثم قتل أخيراً انتقاماً للتستري فولي بعده اليازوري الوزارة الأولى، فكان حاله مع المؤيد في الدين حال الرجل الذي يخافه ويحسب له الحساب.. من جهة ثانية اعتبر وجوده قريباً من الخليفة، ووالدته أمراً يعكّر عليه صفوَ عيشه، وربما أفسد العلاقات بينه، وبين الأسرة الحاكمة، وهذا ما جعله، يعجّل بنقله إلى وظيفة رئاسة ديوان الإنشاء.

وهنا تبدأ حياة المؤيد في الدين السياسية. فيباشر نشاطه، واتصالاته، وتطلعاته، ولكن معارضة رجال الحاشية برزت للعيان من جديد متخذة أعنف المواقف.. فقد ساءهم أن يصل هذا الرجل «الأعجمي» الغريب إلى هذا المنصب الكبير الحسَّاس بهذه السرعة، كما آلمهم ظهور الحقيقة واضحة. وقد عرف المؤيد في الدين كل هذا، وكان لسانه يردّدِ:

أنا في دار غربة وحقيق ... غير بدَعٍ إن ذلَّ فيها الغريب

ويقول:

قد كنت افترسُ الأسود بفارسٍ والآن تنهض لافتـراسي الشاة

ومهما يكن من أمر... فإن المؤيد في الدين بعد تسلمه المنصب المذكور تحسنت حـالته المعيشيـة، فتمكن من العمل، والتفكـير، والتخطيط... فأجرى الاتصالات بالعراق، والشام، وفارس، وأرسل الرسل إليها لاستطلاع الأخبار، والأحداث، والوقوف على كل ما يجري في بلاط الدولة العباسية، وبعد دراسة مستفيضة رأى بثاقب نظره، أن «التركمانية» في العراق إذا ما تمكنت من السيطرة على الحكم فإن مصالح الدولة الفاطمية تتعرض لـلأخطار، وخـاصة البلدان والأقاليم الواقعة في الشام، وحلب، وأعالي الجزيرة. فهرع إلى الخليفة «المستنصر بالله» وأطلعه على هذه الحقائق، وهنا أطلق الإمام المستنصر بالله يده في المشرق، ووضع تحت تصرفه الإمكانيات المادية، والمعنوية باعتباره خبيراً بأحوال المشرق عامة، وعارفاً بأموره وأوضاعه، وهذه البادرة شجعته على العمل، وبذل المساعي للقضاء على الدولة العباسية وعلى خلفائها الذين ناصبوه العداء، وشردوه من أوطانه.

وتشاء الظروف في تلك الفترة أن يزداد نفوذ القائد البويهي «أبي الحارث أرسلان البساسيري» لدى «القائم» العباسي، ولما كان المؤيد في الدين على علاقة وثيقة وقديمة به فإنه أجرى اتصالاً، جديداً به واتفقا على خطة للعمل، وتقرير سياسة معينة تهدف إلى الإطاحة بالحكم العباسي، وإبعاد هذه الطغمة عن الحكم في العراق. وبعد مشاورات، ودراسات تمَّ الاتفاق بينهما على الاجتماع في العراق. فاستأذن المؤيـد في الدين الخليفـة الإمام المستنصر بـالله الذي استجاب له، وزوّده بالأموال، والخلع، والهدايا، والألقاب.. وهكذا سار ميمماً شطر المشرق.

في الشام جنَّد المؤيد في الدين ثلاثة آلاف رجل من قبيلة «بني كلب» وأرسلهم إلى الرحبة ليكونوا تحت إمرة البساسيري، وفي حمص ضرب بأوامر الوزير اليازوري عرض الحائط، وكان هذا قد أمره بعدم الاتصال «بالمرداسيين» أصحاب حلب، فأرسل إلـى «ثمال بن صالح بن مرداس» كتاباً دعاه فيه إلى الاجتماع، وبالفعل تمَّ اللقاء في

«موقع الرستن» الواقع على ضفاف نهر العاصي بين حمص وحماه، وهنا تمكن بحسن سياسته، وبعد نظره ودهائه، من استمالته بعد أن كان قد أعلن استقلال حلب عن الدولة الفاطمية، ثم عقد معه اتفاقاً على العمل العسكري المشترك، وسارا معاً إلى حلب، وفي معرة النعمان وافاهم بعض ضباط البساسيري لمرافقة المؤيد في الدين إلى العراق، وبعد أن أقام في حلب مدة قصيرة سار إلى الرحبة ومعه «ثمال» وفي الطريق وصل إليهم رسول «نصر الدولة أحمد بن مردان» صاحب ميافارقين وديار بكر، وكان يحمل رسائل التأييد ، والترحيب.

وصل المؤيد في الدين إلى الرحبة، وفيها خرج البساسيري مع أركان حربه ـ وجنوده لاستقباله، فحمل لهم المؤيد في الدين تأييد الخليفة الإمام المستنصر بالله، وعطفه، ودعمه، وتأييده، وبعد أن عرضت الأمور، ودرست الأوضاع اتصل «بنور الدولة» الأمير دبيس بن فريد الأسدي صاحب «الحلة»، وأمير العرب على بلاد ما بين النهرين، فأقنعه بضرورة اللحاق بالبساسيري، ووضع قواته تحت إمرته، وبعد أن تمَّ كل شيء على غاية ما يرام، زحف البساسيري على بغداد وكان ذلك سنة ٤٤٨ هـ ولكن «قتلمش» ابن عم القائد «طغرلبك» و «قريش بن بدران» صاحب الموصل اعترضا جيشه في «سنجار» وهي على مقربة من الموصل، فنشبت بينهم المعركة المشهورة التي انتهت بانتصار البساسيري وهزيمة الأعداء. ومما يجب أن يذكر أن «قتلمش» قتل في المعركة بينما لجأ قريش إلى الأمير دبيس، فعفا عنه، وضمَّه إلى جيشه، بعد أن منح لقباً فاطمياً بالاتفاق مع المؤيد في الدين.

وهذه المعركة أوحت للشاعر «ابن حيوس» هذه الأبيات:

عجبت لمدعي الآفاق ملكاً   وغايته ببغداد الركودُ
ومن مستخلفٍ بالهون يرضى   يذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيف بمصرٍ   تقام به بسنجار الحدود

كان المؤيد في الدين من شهود المعركة الحاسمة، وعندما حقق البساسيري الانتصار الأول طلب إليه المؤيد في الدين أن يتريث بالزحف على بغداد، ثم عاد إلى حلب، وغايته إرسال المزيد من الجند إلى البساسيري من القبائل العربية في الشام، والجزيرة، وكان قد

لمس ترددهم في البداية. فنزل في «بالس» وفيها تمكن من الاتصال بشيوخ «بني عقيل» و«بني كلاب» و«نمير» و«خفاجة». فأقنعهم، واستمالهم، وجندهم، ولم يغادر المكان إلا بعد أن ساقهم إلى البساسيري.

كانت ردود الفعل لدى «القائم» العباسي عنيفة، وخاصة عندما وصلته أخبار معركة «سنجار» وانهزام جيوشه، ومقتل قواده، فأوعز إلى القائد «طغرلبك» بتسلم القيادة العامة، والتصدي للبساسيري، ولكن المؤيد في الدين الداهية تمكن في تلك الفترة من إغراء «إبراهيم بن نيال» أخي «طغرلبك» لأمه، فأمده بالمال الوفير، وشجعه على القيام بثورة ضد أخيه، وانتزاع القيادة منه، وبالفعل وقع ما كان ينتظره «المؤيد في الدين» وانقسم جيش «التركمانية» إلى فريقين متحاربين، وهذا ما شجع البساسيري على الإسراع بالزحف، فدخل بغداد سنة ٤٥٠ هـ. ورفع على شرفات قصورها الأعلام الفاطمية، وكان أول شيء فعله قتل الوزير «ابن سلمة» فأخرج من محبسه مقيداً وكانت عليه جبة من صوف، وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة جلود بعير، فبصق أهل الكرخ في وجهه عند اجتيازه بهم لأنه كان يتعصب عليهم، وعندما وصل إلى معسكر «البساسيري» نُصِبت له خشبة، وأنزل عن الجمل ثم ألبس جلد ثور، وجُعلت له قرون في رأسه، كما وُضِعَ في فكيه كلّابان من حديد، وصلب فظلّ يضطرب حتى مات في آخر النهار.

أما بالنسبة للخليفة العباسي «القائم» فإن البساسيري أمر باعتقاله واشترط عليه التنازل عن الخلافة للفاطميين لقاء الإبقاء على حياته، فرضي بذلك ووقع وثيقة اعترف فيها بأنه لا حق له، ولا لأحد من العباسيين في الخلافة، وأن هذا الحق للفاطميين وحدهم، وبعد أن سلَّم «للبساسيري» ثوبه، وعمامته، وشباكه أي كرسي الخلافة، سمح له بالخروج، فذهب وأقام في «حديثة ـ عانة» الواقعة على مقربة من «الأنبار». ومن المعروف.. أن البساسيري، بعد ذهاب الخليفة العباسي من بغداد أرسل الثوب ، والعمامة والشباك إلى الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، كما أعلن في الجامع «المنصور» وفي كافة مساجد العراق بخطبة الجمعة اسم «المستنصر بالله»، وهكذا أصبحت بغداد تابعة للقاهرة «المعزية» ولأول مرة في التاريخ.

ومما تجدر الإشارة إليه... أن الشعب العراقي في بغداد قابل هذا الفتح السريع بمظاهر الفرح، والتأييد. فتألفت المواكب، وسارت الجموع في الشوارع وهي ترقص، وتهلل، وتردد.

«يا بني العباس صدُّوا ملك الأمر معدُّ
ملككم كان معاراً والعواري تُستردُّ»

بعد هذا الانتصار الحاسم الذي تمَّ بتدبير المؤيد في الدين، وبعد أن استقرَّت الأحوال في بغداد، وأصبحت العراق تابعاً للدولة الفاطمية.. عاد المؤيد في الدين إلى مصر وهو يعتقد أنه حقق أكبر خدمة للدولة الفاطمية، وأن رجال الدولة سوف يخفّون لاستقباله والترحيب به، ولكن آماله خابت لدى وصوله إلى القاهرة «المعزية» ، فلم يستقبله أحد بل على العكس رأى الوجوم بادياً على الوجوه، وكأنه قد اقترف جريمة كبرى، وبالرغم من كل هذا فإنه قابل الخليفة «المستنصر بالله» وقدَّم له تقريراً عن كل الوقائع... ثم نصح الدولة بأن تتعجل بتقديم المساعدات من أموال، ومحاربين، ورجال إلى البساسيري، وإلَّا فإن الأمور قد تفلت من يديه، ولكن لم يستجب أحد لهذا المطلب فالوزير أبو الفَرج محمد بن جعفر المغربي كان يضمر العداء للبساسيري، قد أشار على الخليفة أن يهمل الرد على مراسلات المؤيد، وبالتالي عدم إرسال المساعدات للبساسيري خوفاً من أطماع هذا القائد بعد نجاحه.

أجل.. لم يدم الحال طويلاً مع البساسيري، فبعد أن فرغ طغرلبك من قتال أخيه إبراهيم، والقضاء على ثورته، زحف على بغداد بقوات كبيرة، وعندما أيقن البساسيري أنه لا قبل له بمواجهته بالجيش الموجود تحت إمرته، ولا سيما وأن الخلاف قد دبَّ في صفوف جيوشه أي بين العرب والأتراك، وإن المساعدات المالية، والعسكرية التي وعُد بها لم تأتِ من مصر، وكل هذا جعله في حالة من اليأس. فقرر الخروج من بغداد مع جيشه إلى الكوفة، وكان ذلك سنة ٤٥١ هـ. وعندما دخل طغرلبك إلى بغداد أحضر الخليفة العباسي القائم، وأعاده إلى قاعدته وقصره، كما أرسل قائده «خمارتكين الطغرائي» في ألفي فارس إلى الكوفة، وأضاف إليهم سرايا «ابن منيع الخفاجي» كما سار هو في إثرهم على رأس جيش آخر، فلم

يشعر البساسيري ، والأمير دبيس بن مزيد إلاَّ والجيوش قد أقبلت، وهنا تفرقت جيوش البساسيري عنه، وبدأت تخرج من الكوفة، فلحقها ابن مزيد يروم إرجاعها ولكنه لم يتمكن.

وأخيراً، لم يبق مع البساسيري إلاّ قلة من الرجال، وبالرغم من ذلك حمل على «خمارتكين» ولكن في نهاية المعركة وقع أكثر أصحابه أسرى وهم: «أبو الفتح بن وزّام» و «منصور وبدران، وحمّاد» أبناء الأمير دبيس بن مزيد «نور الدولة» ، وإبّان المعركة أصيب البساسيري بسهم طائش، فلحق به من عرفه وهم من رجاله كما ذكر التاريخ، وكان قصدهم أخذه حياً، وحمله إلى «طغرلبك» فلم يستطيعوا تحقيق أمنيتهم لأن السهم أصاب منه مقتلاً.. مما حملهم على حزِّ رأسه، وحمله إلى بغداد حيث جعل على رأس رمح طيف به في أنحاء العاصمة العباسية، ثم صُلب قبالة «باب النوبى».

إلى هنا.. طويت صفحة من تاريخ المؤيد في الدين، وإلى هنا يتوقف نشاطه السياسي وهنا أي في المرحلة الأخيرة بدأ الغموض يكتنف حياته.. والأقوال كثيرة، ولكن الأرجح أنه فاء إلى العزلة، وتفرَّغ للشؤون العلمية والأدبية، ثم يعود ليرثي أصحابه الذين استشهدوا في سبيل نصرة الدولة الفاطمية، وهو بعيد عنهم، ولا يملك ما يساعدهم، أو يخفف عنهم الأذى والموت، وكان لسان حاله يردد:

أبحتُ حمي دمي فيهم وفيهمِ حسرت شبيبتي وربيع عمري
وفيهم سرتُ عن وطني غريباً أجوبُ الأرضَ قفراً بعد قفر
«أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِداد ثغرِ»(*)

ومما تجدر الإشارة إليه: أن المؤيد في الدين نفيَ إلى الرملة بأمر من الوزير «عبد الله بن المدبر» ثم أعيد فيما بعد إلى القاهرة.

كان المؤيد في الدين من أكابر العلماء في عصره، عارفاً بجميع العلوم، قوي الحجة في مناظراته، ومناقشاته مع مخالفيه ، عظيم الإقناع، مؤثراً في السامع، ويكفي أن يكون القاضي اليمني «لمك بن مالك» و «ناصر خسرو» و «الحسن بن الصبَّاح» ، من تلاميذه الذين درسوا

(*) هذا البيت للشاعر العرجي.

عليه العقائد الإسماعيلية، وقواعد الفلسفة، وقد صدق أبو العلاء المعري حين قال عنه:

«وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين لا زالت حجته باهرة، ودولته غالبة (...) لو ناظر «أرسطاطاليس» لجاز أن يُفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه».

توفي المؤيد في الدين سنة ٤٧٠ هـ. في القاهرة «المعزية» ودفن في دار العلم، وصلّى عليه الخليفة الإمام المستنصر بالله.

ترك المؤيد في الدين عدداً من المؤلفات . وباعتقادي أن أهمها وأقومها «سيرته» أو «مذكراته» ففيها صورة صادقة دقيقة لما كانت عليه مصر وبغداد في النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

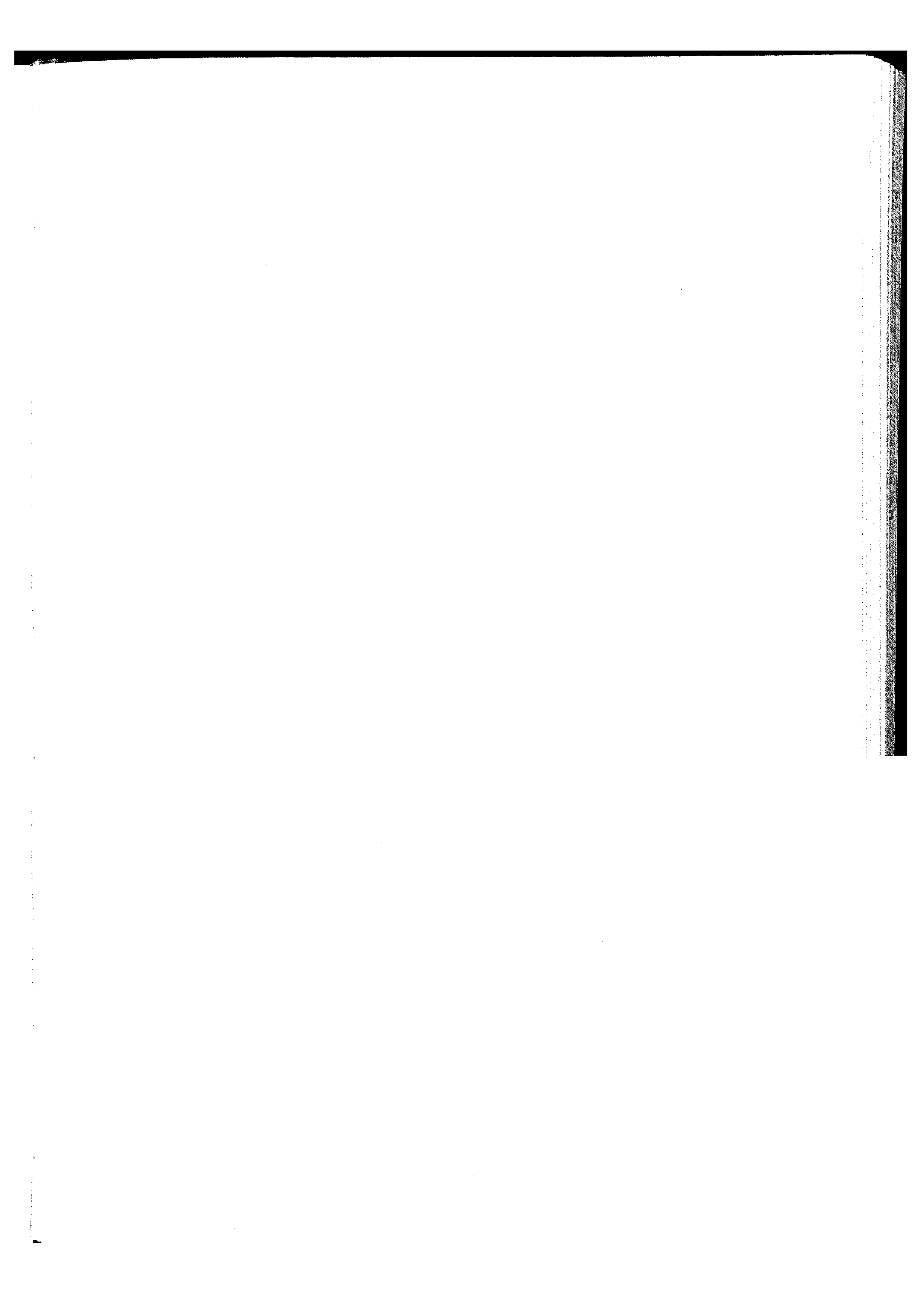
فقد تحدث عن بلاط الخليفة وانتقده، كما تحدث عن الوزراء، ورجال الدولة الذين استغلوا طيبة قلب الخليفة فتلاعبوا بالبلاد، وبالمقدرات لمصلحتهم الشخصية، حتى اضطربت أمور مصر، وأدى الأمر إلى المحنة التي عرفت في التاريخ «بالشدة العظمى المستنصرية».

في الواقع.. لم يأتِ المؤيد في الدين في هذا الحديث بشيء جديد على المؤرخين فإن كل هذا مسطّر في كتب التاريخ، ولكن الجديد الذي لا نكاد نرى له مثيلاً في كتب التاريخ الإسلامي هو: أن المؤرخ المؤيد في الدين تحدث بصراحة، وعلى مسمع من الوزراء، ووجّه الانتقادات، وذكر العيوب... بينما لم يعودنا المؤرخون أن يوجهوا انتقاداً أو لوماً إلى الملوك، والأمراء بل كان أكثرهم يمرون بعيوبهم مرّ الكرام، دون أن يتجاسروا على ذكرها، هذا بالإضافة إلى تغيير الحقائق التي كانوا يسجلونها في كتبهم لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

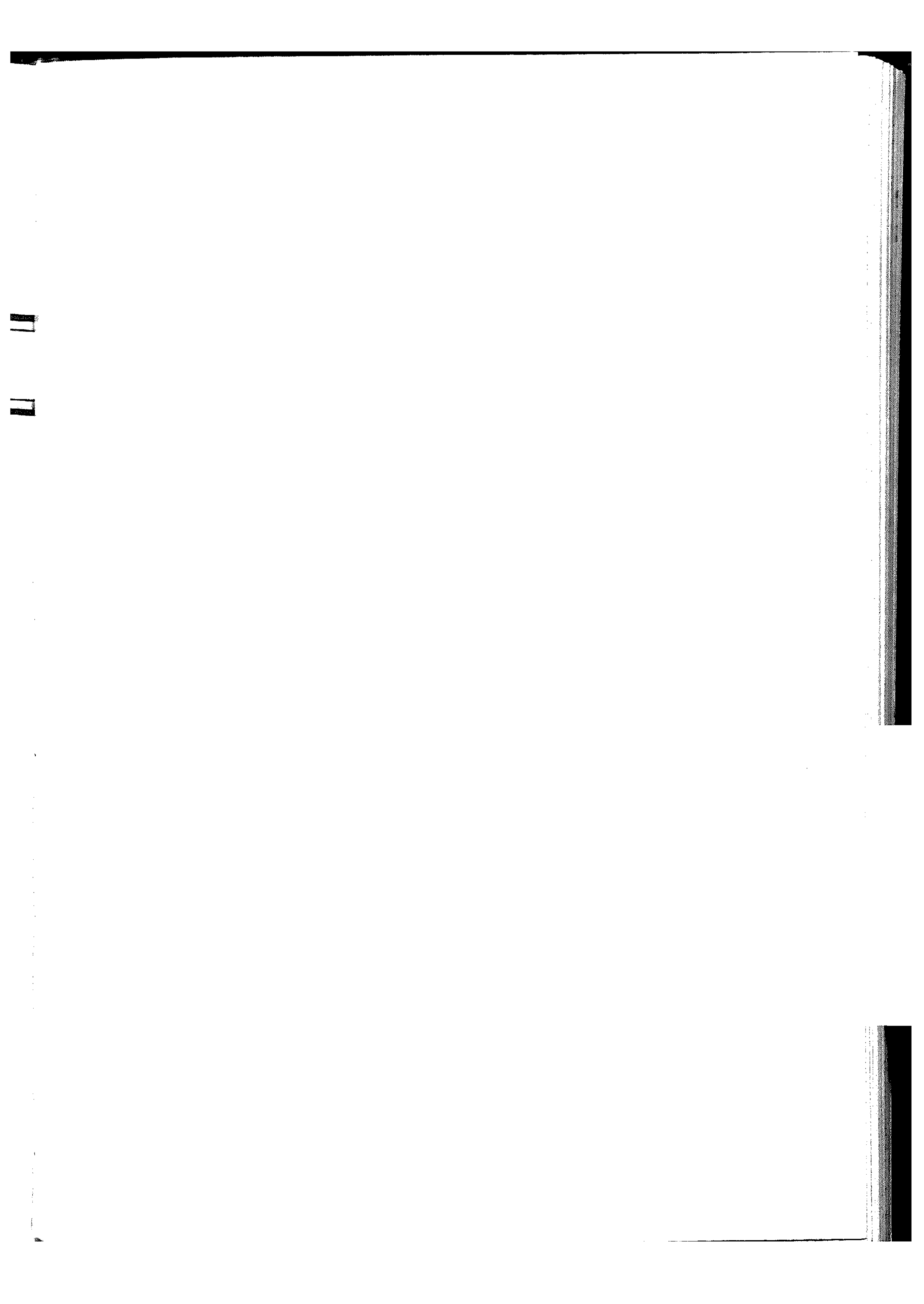
ونلاحظ: أن المؤرخ ابن خلدون تحدث في مقدمته حديثاً طويلاً عن هؤلاء المؤرخين، وضرب أمثلة عديدة لأقوال بعضهم، وناقشها مناقشة دقيقة، واضطرَّ إلى دفعها أخيراً.

أما المؤيد في الدين فقد كتب ما كتبه في سيرته، دون أن يتطلع إلى منفعة يبتغيها، أو يخشى من أذى يلحق به، فكانت كتابته على هذا النحو جديدة على التاريخ الإسلامي ويكفي أن تقرأ أقوال المؤيد في الدين عن حالته النفسيَّة قبل أن يدخل مصر، وبعد أن استقر بها

لندرك أنه كان صادق اللهجة في حديثه، دقيقاً في تعبيـره عن شعوره، وإحساسه.



الانهيار الكبير



بداية النهاية

للدول أعمار، تطول وتقصر بحساب ولأسباب، ولكن ندر أن داهم الفناء دولة وهي في أوج منعتها، وعزّ شبابها، اللهم إلّا إذا كان فناء يباغتها من حيث لا تحتسب، وحتى مثل هذه النهاية ليست من الصدفة في شيء، بل نرى أن الدول تقوم لأغراض وتفنى بعلل، قد لا تبين للمرء لأول وهلة.

والدولة الفاطمية، موضوع حديثنا، كانت في عهد الخليفة الثامن الإمام المستنصر بالله، على جانب من العزّة والمنعة والألق عظيم، وكان سلطانها يظلّ بظلّه رقعة شملت مناطق، من العالم الإسلامي نائية، بل إنه ـ كما بتنا نعلم ـ بلغ بغداد عاصمة بني العباس، حيناً من الدهر. بيد أن النجاح الواسع هذا كان يحمل في أثنائه نذر زوال وفناء، وفي تاريخ الدولة الكثير من غامض القضايا وغريب الأسرار، مما لابدّ من جلاء أمره وكشف ملابساته والحكم على حقيقته: أهو ابن صدفة محض أم أنه ثمرة السعاية والتآمر والتدبير.

الصدفة، لا تستمرّ تاريخاً بكامله. نقول هذا وفي بالنا سيرة القائد الأرمني بدر الجمالي وكيف انخرط في صفوف الدولة الفاطمية وتقدم مترقياً، حتى بلغ به الأمر أنه تسلّم مقاليد الأمور الزمنية والدينية على حد سواء، وصار يقف موقف الندّ إزاء كبار دعاة الدولة المتصلين بالإمام، وهذا لعمري، غريب عجيب لا يمكن البتّ بأمره على أنه ابن صدفة بل على أن الرجل كان مدسوساً على الدولة في تدبير ناقع تدخل في جملة تفصيلاته خبر إسلام بدر واعتناقه الدعوة عقيدة.

ولبدر الجمالي، أيادٍ بيضاء على الدولة الفاطمية، لا جرم، فما نحن

بالذي ينكر جهد الرجل وحسن بلائه في سبيل الدولة وما قام به من أعمال لإعادة الأمن والاستقرار في أيام شدة وامتحان عصفت بالدولة، ولكننا نستهجن أن يبلغ ثمن ما قدّمه بدر، أضعاف ثمن ما قدّمه جوهر الصقلّي مثلاً وهو من نعرف جهاداً وبلاء وولاء. نعم، نستهجن أن يكون ثمن أمانة المستخدم في الدولة، منحه رتبة دينية، هي من أساس بنية الدولة، ولا ينالها المرء إلاّ بعلم ومعرفة وقدرة فكرية، أين منها بدر الجمالي؟
تزوج الخليفة الإمام المستنصر بالله، ابنة بدر الجمالي، وكان في آخر عهده بالكهولة وأول عهده بالهرم، وله من الأولاد نزار ومحمد وعبد الله وجعفر وداؤد وكانوا كلهم أبناء امّ واحدة. فأنجبت ابنة بدر له ابنه «المستعلي» الذي كان من الأسباب التي أدت إلى الانقسام في الدعوة الإسماعيلية، فالأفضل بن بدر، الذي جعله أبوه نائباً عنه، أخذ يعدّ العدة لتنصيب المستعلي خليفة دون أخيه نزار مع أن هذا هو الموصى له، في حياة أبيه المستنصر، وبشهادة الشهود من كبار الدعاة ورجال الدولة.

والوصية التي تنصّ على نزار خليفة وإماماً، لم تكن بنت يومها، ولا «فلتة»، بل كانت مبدأ معمولاً به على مدى خمسة وثلاثين عاماً، حتى إذا انتقل الإمام المستنصر بالله إلى رحاب ربّه، تسلّم الأفضل بن بدر زمام الأمور في الدولة وفرض ابن أخته «المستعلي» على رقاب الخلق خليفة، وفتك بنزار وأخوته وأفراد أسرته في جريمة مروعة مهوبة، ورائده في ذلك الحقد على نزار الذي لطالما أعلن في مجالسه أنه «لابد من إبعاد هذا الفلان» يعني الأفضل.

ولّي المستعلي الأمر ودبّ السقام في الدولة، فانفصلت عنها الأقاليم الخاضعة لحكمها، تباعاً، وظلت مصر تصارع النهاية حتى قضي الأمر وطويت صفحة من أخلد صفحات التاريخ الإسلامي، ولكن ذلك لم يأت صدفة، فبموت المستنصر بالله، ماتت الشرعية، وانقسمت الدعوة على نفسها وصار أهلها يحاربون بعضهم البعض بعد أن كانوا أخوة يقين وجهاد وغاية واحدة. ولمّا سقطت الدولة تفرّق رجالها في أرجاء العالم الإسلامي، وقصاراهم إعادة بناء ما تهدّم ولقد أخفقوا في بقاع وأمصار عديدة ولم تقم للدعوة قائمة إلاّ في مكانين

في بلاد فارس، وفي بلاد الشام، حيث قامت فيهما دولة نزارية كان لها شأن كبير لولا أن عمرها كان قصيراً.

بدر الجمالي

مات بدر الجمالي في القاهرة «المعزية» سنة ٤٨٧... أي قبل وفاة الخليفة الإمام المستنصر بالله ببضعة أشهر... ومما يجب أن نشير إليه أنه ترك وصية تقضي بتعيين «الأفضل» في مركزه... وقد ثبت أن بدراً كان يعد الأفضل لخلافته منذ عام سنة ٤٧٩ هـ. ويستنيبه عندما يخرج من القاهرة، كما أنه كان يدربه على شؤون الحكم والسلطة، وقد أيَّد ذلك كل من المؤرخ المقريزي وابن ميّسر، بأن والده أصدر أوامره بأن يُدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة، ولأمير الجيوش.

وبالفعل نفذَّت الوصية بعد وفاته، وأمر الخليفة المستنصر بالله إنشاء سجل خاص قرىء في الديوان على مسمع من أمير المؤمنين، ومن سائر أعيان الدولة، وأشرافها، وأمرائها، وجنودها، وخاصها وعامها، وقد ظهر الأفضل على أعين الناس مجلّلاً بـرداء التفخيم والتعظيم، وبأزهى المفاخر والمعالي.

ومهما يكن من أمر.. فإن أية معارضة لم تظهر إلّا من أحد المقربين من بدر الجمالي وهو أرمني أيضاً ويسمَّى «لاوون» وكان رفيقاً لبدر الجمالي، ومنعماً عليه، وقد ظهر عنه طموحه بـالوزارة واقتـرافه الدسائس، ولكنه لم ينجح في مسعاه، فلقد قتله، الأفضل.

أما بالنسبة للثروة التي خلّفها.. فقد ذكرت المصادر: بأنه جمع ثروة طائلة في ظروف عصيبة، وفي وقت كانت البلاد المصرية تعاني من المحن والكوارث... فقد قدَّر الخبراء ثروة «بدر الجمالي» بالملايين، واستدلوا على ذلك حينما ذكروا بأن أحد كتابه اشترى «سمكة» من عنبر بألف دينار حرقها في النار في جلسة واحدة، كما أن الشاعر «علقمة بن عبد الرزاق العليمي» مدح بدراً فخلع عليه من كانوا عنده من أصحابه المؤيدين المنتفعين ما بلغ مقداره سبعين حملاً، وأجازه «بدر» من ماله الخاص بعشرة آلاف.

ومما يجب أن يذكر: أن احتياجه من السكر كان مئة قنطار بالرطل الشامي، وقد كان مشغوفاً باقتناء الجواهـر الثمينة، وخلَّف من الأموال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف درهم في دار الوزارة، ومن الجواهر، والياقوت أربعة صناديق،

ومن الذهب، والفضة، والمراكب أي السروج المحلاّة ما تعجز الأقلام عن وصفه، كما خلّف ألف قصبة من الزمرد لأنه كان مغرماً غراماً عظيماً بهذا الجوهر الذي كان يرسل رجاله لتجميعه من مختلف الأقطار.

كل هذا باستثناء ما تركه من المزراع، والخيول، والمراكب، والبقر، والغنم، والجواميس، وغيرها من الحيوانات الأهلية التي كانت تدر عليه الأرباح الطائلة.

وقائع الفتنة

مات بدر الجمالي، فاستلم ابنه الأفضل منصبه، وبعد موت بدر بأشهر توفّى الخليفة الإمام المستنصر بالله، فانتهى بوفاته عهد من الشرعية والهيبة، وخلا الجو للأفضل بن بدر الذي بلغت به الجرأة على الحق والحقيقة، أنه أذاع على الناس، فور وفاة الإمام المستنصر بالله، سجّلاً يقول فيه بأن الإمام قد أوصى وهو على فراش الموت وبمحضر من الشهود، بالإمامة والخلافة لابنه المستعلي.

كانت النـاس ترتقب الواقعة هذه، فنزار لم يكن يخفي امتعاضه وغيرته على الدولة والعقيدة ولا استياءه من الأفضل وجسارته على ارتكاب كل عظيم بحقها، وكان يردد دائماً، قبل وفاة أبيه، أنه لابد من إبعاد الأرمني، وهو كلام بلغ أسماع الأفضل فأستعدّ للأمر وكان السجلّ المذكور أول الغيث.

ولكن السجلّ لم يأت بالنفع المرجو منه، فنزار خليفة بالنص منذ عقود تربو على الثلاثة، وقواد الدولة ودعاة العقيدة، لا يمكن لهم بأي حال التسليم بسابقة خطيرة كهذه، ليس لها ما يبررها، ولا لها ما يدعمها.

لم يسكت الإمام نزار بل أذاع، هو أيضاً، سجّلاً على الناس، اتهم فيه الأفضل بالاعتداء على أقدس مقدسات الفـاطمية، ألا وهي الإمامة، وذكّر الناس بالوصية القائمة منذ ثلاثين عاماً ونيّف، والتي تنصّ عليه خليفة وإماماً. والإمام نزار لم يذع على الملأ ما أذاعه إلاّ بعدما بايعه كبار القواد وعاهدوه على الولاء والجهاد أمامه، فاستنفر عندئذ أنصاره ومريديه ومضى إلى الإسكندرية وكان حاكمها قد انتصر له، ومن هناك سأل أخوته الأربعة وأسرته الالتحـاق به ففعلوا.

ولكن الأفضل كان يعد للأمر عدته منذ زمن بعيد، فلم تدهمه الأحداث، بل جرّد جيشه وضمّ إليه رجالاً بايعوا نزاراً بالأمس، ومضى إلى الإسكندرية فخاض معارك طالت أسبوعاً حتى انتهت «بالنصر» الذي ذهب ضحيته افتكين قائد الجيش الفاطمي في الإسكندرية، وجلال الدين بن عمار، أمير جيش كتامة وكانا من أنصار الإمام نزار، واعتقل الإمام وأخوته الأربعة، وأولادهم واقتادهم إلى القاهرة المعزية مكبلين بالأصفاد وهناك طرحهم في السجن.

وفي سنة ٤٩٠ هـ فتك الأفضل بنزار وبعض أولاده. وثـمّة من يقول إنهم ماتوا جوعاً وعطشاً، ومن يقول بأنه أعدمهم الواحد تلو الآخر، بهدف القضاء على كل ورثته ولكنه رغم كل محاولاته استطاع بعض أبناء نزار النجاة والقيام بحملة لمحاربة الأفضل.

تلك الأسرة الكريمة، التي طالما نال منها سيف البغاة وحكام السوء، والتي ضحّت بأفضل أبنائها في كل عصر، وثالثة المآسي هذه، لن تكون الأخيرة بل ستلحق بها مجزرة ألمَوت على يد هولاكو، وكل هذا ما كان ليحدث لولا انحراف أهل الإثم والفساد والتوائهم على الحق.

قتل الإمام نزار وصار أخوه المستعلي خليفة، خاض إلى دست الخلافة في دم أخوته وأهله، وكان زاهداً بالحكم برماً بالناس، ميّالاً للعزلة، بادي الأسى والوجوم، فلقد كان ينظر إلى الأفضل بن بدر وهو يصرّف أمور الدين والدنيا من دونه، وينظر إلى الغلاء وقد استفحل والأوبئة وقد انتشرت، وتبلغه الأخبار عن دمشق وكيف أزيل أسمه من الخطبة في مساجدها واستبدل باسم الخليفة العباسي.

وفي عهد المستعلي، تسلّم الأفضل بن بدر بيت المقدس من الأرمن، واحتل الصليبيون سواحل الشام وأنطاكية وبيت المقدس، فخرج الأفضل في عشرين ألف لمقاتلتهم ولكنه رجع خائباً ثم أعاد الكرة ولم يفلح وأخيراً واقعهم في عسقلان وكانوا قد ملكوا الرملة وبيت المقدس ، ولكنهم دحروه وقتلوا جميع قواده، أما هو فلقد نجى بنفسه هارباً في البحر.

وفي عهد المستعلي أخذ الحسن بن الصباح، أحد أبناء نزار واسمه علي «الهادي» وهو الإمام العشرون، إلى بلاد فارس، وكان الوحيد

الذي نجى من سيف الأفضل، وهناك في ألموت في بلاد فارس، أعلنت الدولة الإسماعيلية النزارية وعلى رأسها الإمام الشرعي والخليفة القانوني ابن الخليفة الشرعي القتيل.

الآمر بأحكام الله

ولد في القاهرة المعزية في ١٣ محرم سنة ٤٩٠ هـ وبويع بالخلافة ١٣ صفر سنة ٤٩٥ هـ. وكان له من العمر خمس سنوات وفي تلك الفترة تسلَّم الأفضل شؤون الحكم بالنيابة عنه، وبعد أن كبر، وترعرع تسلَّم الصلاحيات ولكنه ظهر أنه لم يكن أداة طيعة بيد الأفضل، بل كان كثيراً ما يقف منه موقف المعارض.

اغتيل في ١٤ ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ. وقد بلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً عندما كان في هودج يقوم بنزهة بين الجزيرة والقاهرة، وقد حمل إلى القصر ولكنه لم يلبث أن فارق الحياة.

المستعليون يتهمون النزاريين بأنهم قتلوه انتقاماً لنزار، وبعضهم يتهم الأفضل لأنه أراد التخلص من خليفة لا يحترمه، ولا يستمع إليه، ويحد من صلاحياته.. وفي عهده بدأ شبح الانهيار، والوهن على الدولة، ووقع غلاء شديد، ونقص في المواد الغذائية، وعمَّ الفساد، والرشوة، والسرقة على يد كبار الموظفين وصغار المستخدمين، وساءت الأوضاع لدرجة أنها أعطت ما يشبه الإنذار بأن النهاية أصبحت قريبة.

كان الآمر يطمح إلى تأليف جيش كبير والزحف لاستخلاص بلاد الشام ثم الوصول إلى بغداد ولكن الأحداث الداخلية، ووجود الأفضل على رأس السلطة منع كل خير. من مآثره وأعماله:

بناء جامع الأقمر في القاهرة، وتجديد قصر القرافة، وفتح مكتبة دار العلوم للمطالعة والتدريس.

الطيِّب بن الآمر

يقول المستعليون ـ البهرة: بأن الآمر بأحكام الله مات وامرأته حامل بغلام ذكر يسمَّى أو سمَّوه «الطيِّب» ولهذا عهدوا بالخلافة الزمنية إلى أعضاء من الأسرة الفاطمية تحت اسم «نائب للخليفة»، وقد جاء تسلسلهم كما يلي:

الحافظ، والظافر، والفائز، ثم رابعهم وآخرهم العاضد. وهؤلاء

النواب تسلموا الحكم بالنيابة لأنهم لا يتمتعون بالنص من الإمام الأصيل، ولأنهم من أطراف الأسرة.

هذا ولم يثبت، ولا يوجد أي دليل يؤكد حمل امرأة الآمر بأحكام الله، وأنها وضعت طفلاً اسمه «الطيب».. فهناك مصدر آخر يؤكد بأنها وضعت أنثى اسمها «صفية» لم تلبث أن ماتت.

ومما يجب أن نشير إليه... أن الفرقة المستعلية الإسماعيلية «البُهرة» نقلت نشاطها إلى اليمن بعد انهيار الدولة الفاطمية، حيث عاشت في تلك البلاد حياة العزلة السياسية، وانصرفت إلى شؤون الدعوة الدينية متخذة «داعياً مطلقاً» كقائم بمهمة الإمام، وكحامل للصلاحيات نفسها. وهذه الفرقة يوجد منها أعداد في الهند، وباكستان ونجران بالسعودية، واليمن ويعرفون «بالبهرة» وسنتحدث عن كل هذا بالتفصيل في الأجزاء القادمة.

الأفضل الجمالي

ذكرنا في الصفحات الأولى: أن الأفضل الجمالي تسلَّم الحكم بالقوة، وبعد تمكنه من السيطرة على ابن شقيقته المستعلي، وعلى ولده الآمر بأحكام الله من بعده، شرع بإقامة قواعده ، وتحصين أوكاره، وإشباع رغباته ونزواته، حتى وقت اغتياله، وكان له من العمر سبع وخمسون عاماً.

ولد الأفضل الجمالي في عكا سنة ٤٥٨ هـ.، وقتل في أحد شوارع القاهرة سنة ٥١٥ هـ عندما خرج عليه عدد من الرجال من دكان دقّاق بالملاحين، وتختلف المراجع في سبب قتله، والدوافع للقتل، والقاتلين. فالبعض يذكر: أن الإسماعيلية النزارية قتلوه انتقاماً وثأراً لنزار بن المستنصر بالله، وهناك من يقول إن «الآمر بن المستعلي» ضاق ذرعاً بتحكمه وسيطرته واستبداده بعد تسلّمه الحكم، وهكذا وقعت بينهما المباينة، وأخذ كل منهما يخطط لاغتيال الآخر، وعندما عزم الآمر على قتله داخل القصر.. جاء إليه ابن عمه «الأمير عبد المجيد» وحذره من ذلك، وأشار عليه بأن يستميل «المأمون البطائحي» باعتباره ثقة الأفضل، ثم يمنّيه بالوزارة لقاء تدبير قتله، فتمَّ الأمر وفق ما دبره الأمير عبد المجيد. وذكر أن قَتَلَتَهُ قُتلوا في الحال حتى يضيع سرهم معهم.

كان الأفضل قبل توليته الوزارة والقيادة يحمل لقب: «عز الدولة» و «غياث المسلمين» و «صفوة أمير المؤمنين». ولما اشترك مع أبيه في الحكم أصبح يحمل الألقاب التالية: «الأجل الأفضل» و «سيف الإمام» و «جلال الإسلام» و «شرف الأنام» و «ناصر الدين» و «خليل أمير المؤمنين» و «أبو القاسم شاهنشاه» ، وبعد وفاة أبيه اتخذ جميع هذه الألقاب مع زيادة كلمة «الأفضل» التي صارت فيما بعد نعتاً خاصاً طغى حتى على اسمه. أما الأحداث التي وقعت في عهده فيمكن إجمالها كما يلي:

في سنة ٤٩٠ هـ. وقع في مصر غلاء شديد، وحلّت مجاعة كبرى طغت على أرجاء البلاد المصرية، وفقدت المواد الغذائية، وانتشرت الأوبئة.. وكنا ذكرنا أن الخطبة قطعت في مساجد دمشق واستعيض عن اسم المستعلي الفاطمي باسم الخليفة العباسي.

وفي هذا العام خرج «الفرنجة» من القسطنطينية، وغايتهم استملاك سواحل بلاد الشام وغيرها. فملكوا أنطاكية بادىء ذي بدء ومنها تقدموا بزحفهم.. ويبدو أن الدول العربية لم تدرك أهداف الحركة الصليبية. بادىء الأمر، ولم تتبين غرضها فظنتها مثل الحملات التي كان يشنها البيزنطيون بين الحين والحين، لذلك لم تقم باتخاذ أي إجراء لدرء هذا الخطر الداهم ولعلَّ الخلافات الداخلية، والخصومات المتأججة بين الفاطميين والعباسيين وقفت حائلاً دون اتخاذ أي موقف مشترك.. وهكذا وجد الصليبيون الطريق مفتوحاً أمامهم لامتلاك معظم بلاد الشام، ولم يستفق المسلمون من سباتهم حتى كان الجيش الصليبي يوطّد أقدامه في بلاد الشام.

كانت مصر في تلك الفترة، أي قبل أن يتسلّم بدر الجمالي قيادة جيوشها في حالة سيئة من البؤس والفوضى، فقد صورها المؤرخون بصورة واضحة فقالوا:

إن الجيش في تلك الفترة انقسم على نفسه إلى فئات أخذت كل منها تعيث فساداً في البلاد، وبالرغم من نجاح بدر في القضاء على عوامل الفساد، وإخراج البلاد من أزمتها الاقتصادية إلَّا أن هذا ترك أثراً سيئاً في بنية الجيش الذي ضعفت قوته الحربية.

فصار عاجزاً عن استرداد ما ضاع من ممتلكات الفاطميين في

الشام، وعندما جاء الأفضل ثارت الأهواء، وحدثت النزاعات، ووقع ما كان ينتظره الناس، عندما اقترف جريمته النكراء بقتل الإمام نزار وأسرته، وانقسام الإسماعيلية إلى جبهتين متعاديتين هما: النزارية والمستعلية.. ... وكل هذا كان له أهمية خاصة بالنسبة للجيش ولعزيمته في الدفاع، وفي الفتوحات.

هذا من الناحية الداخلية... أما من الناحية الخارجية فإن مصر أصبحت في تلك الفترة أمام خطر خارجي يهدف إلى احتلالها، والقضاء على الحكم القائم فيها وهو الخطر السلجوقي الذي داهم بلاد الشام، واستولى على معظم أجزائها، حتى أصبح يهدد مصر نفسها، ونظامها الفاطمي. ومن الثابت أن العداء بين هاتين القوتين كان عداءً عنيفاً عميقاً يجعل أية مهادنة بينهما غير ممكنة زد على ذلك ما لمسناه من التسامح الديني الذي كان ينعم به المسيحيون في بلاد الإسلام، والمسلمون في بيزنطة. فكان للمسلمين مساجدهم في القسطنطينية، وغيرها من بلاد الروم كما كانت كنيسة القيامة في القدس في حماية المسلمين، وكان المسيحيون يفدون إليها دون عائق، كما أن الفاطميين استعانوا أكثر من مرة بوزراء من المسيحيين واليهود، وكان من المألوف أن يستعين الحكام المسلمين في بعض الأحيان بالبيزنطيين ضد بعضهم البعض، أو يستنجد البيزنطيون بالأساطيل المصرية ضد منافسيهم المسيحيين في جزيرة صقلية. والأفضل، كما يبدو، لم يكن يرى مانعاً يمنعه من الاتصال بالصليبيين لأنه كان ينظر إليهم كمرتزقة تابعين للإمبراطور البيزنطي. لهذا عندما علم الأفضل بوصول الإنفرجة إلى أنطاكية أرسل إليهم مندوباً يدعوهم إلى المفاوضة مقترحاً تقسيم بلاد الشام.. فيكون الشمال من نصيب الفرنجة، ويستولي الفلسطينيون على فلسطين، ولكي يجعل لاقتراحه قوة وفاعلية، فإنه جنّد فرقة كبرى، وخرج بها إلى فلسطين. فاستولى على بيت المقدس في رمضان سنة ٤٩١ هـ.

ومن الجدير بالذكر... أن الصليبيين استقبلوا هذا المندوب بالتكريم بالرغم من أنهم لم يدخلوا معه في أية مفاوضات، وعاد المندوب محملاً بالهدايا، وبعد ذلك أكمل الصليبيون زحفهم، وكانت وجهتهم بيت المقدس، ومن الجدير بالذكر أنهم استغلوا التفكك الحاصل بين

الحكام المسلمين، وساروا على مبدأ «فرِّقْ تسُدْ» . فأرسلوا إلى «دقّاق» صاحب دمشق يطلبون منه عدم التدخل ما دام ليس لهم مطمع في ممتلكاته. وبعد أن أمنوا، وتمكنوا من تجميد كل نشاط إسلامي معارض، ساروا في طريق ساحل البحر، فوصلوا إلى بيت المقدس التي كان الأفضل قد سبقهم إلى احتلالها، ودارت معركة عنيفة. وأخيراً تمكن الصليبيون من إحراز الانتصار، واحتلوها.

ومهما يكن من أمر، فإن سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين، وقتل ما يقارب من سبعين ألف مسلم، أيقظ النفوس، وأوقع الحماس في العالم الإسلامي، ولم يتمكن العباسيون في بغداد من التحرك، أو من مد يد المعونة بسبب الاختلافات الحاصلة بين الأمراء الحاكمين للمقاطعات والفتنة التي وقعت بين أمراء «السلاجقة» بعد مقتل «ألب أرسلان» وخاصة الاختلاف بين السلطان «بركيا روق» وأخيه محمد.

أما في مصر فقد أدرك الأفضل ، بعد فوات الأوان، طبيعة الحركة الصليبية، وما ترمي إليه من تهديدها لمصر خاصة، وللإسلام بوجه عام، فدعا إلى الجهاد، وتجنَّد له، وأرسل إلى أمراء السلاجقة رسائل يعلن فيها استعداده لتناسي الماضي، وما بينهم وبينه من الخلافات، ولكن أمراء السلاجقة في الشام لم يستجيبوا إلى ندائه.

وأخيراً: خرج إلى عسقلان في شهر رمضان سنة ٤٩٢ هـ، ولدى وصوله أرسل إليهم كتاباً يعلن فيه سخطه، ونقمته على ما فعلوه بالمسلمين، ويبدو أنه كان ميالاً للدخول معهم في مفاوضات إلّا أن الصليبيين لم يردوا عليه، وبادروه بالتأهب، وحشد القوات. وبعد ذلك دارت رحى معركة ضروس بين جيش مصر والصليبيين كانت حصيلتها إبادة جيش مصر، واستسلام من نجا منه. أما الأفضل فقد لاذ بالفرار، وتخلَّص من المعركة بأعجوبة، فعاد بالبحر متخفياً إلى مصر تاركاً عسقلان تحت رحمة الصليبيين الذين لم يتفقوا على دخولها، والاحتفاظ بها.

بعد هذه المعركة التي كانت درساً للأفضل، عاهد الله بأن لا يخرج لمعركة ثانية وخاصة مع الصليبيين، ولكنه استمرَّ بإرسال الجيوش للقتال، الحملة تلو الحملة حتى أنه كثيراً ما كان يعهد لأولاده بقيادة هذه الحملات.

ومن الجدير بالذكر... أنه حاول مرة ثانية إجراء ما يشبه الوحدة مع دمشق بعد أن وجد استجابة من أميرها «طغتكين» ولكن كل هذا لم يقدر له البروز على مسرح الأحداث ولم يحدّ من أطماع الصليبيين، ومن الواضح أن الأفضل مات، ولم يبق بيد الفاطميين من بلاد الشام سوى عسقلان، وصور.

خرج الأفضل من القاهرة سنة ٤٩١ هـ كما ذكرنا على رأس حملة كبرى بقصد الاستيلاء على بيت المقدس، وكان يحكمها آنئذٍ «سلمان وإيلغازي» إبنا «ارتق» فرفضا تسليم المدينة، وعندئذٍ حاصرهما مدة أربعين يوماً، وفي نهاية المطاف سلَّم أهلها، فدخلها واستقرَّ بها... ومن الجدير بالذكر أنه أكرم «سلمان وإيلغازي» وخلع عليهما وتركهما أحراراً، ولكن هذا الانتصار لم يدم طويلاً، ولم يهنأ به الأفضل إذ سرعان ما وصل الصليبيون إلى أبواب بيت المقدس، وكانوا قد أتموا فتوحاتهم في بلاد الشام. ومن الواضح الجلي أن انقسام القوى الإسلامية، والعداء القديم العنيف بين بغداد والقاهرة مكَّن الصليبيين من تحقيق انتصاراتهم السريعة، وأكثرها تمَّ دونما أية مجابهة.

هذا وكنّا قد ذكرنا بأن الفاطميين في عهد الأفضل قد فقدوا كل ممتلكاتهم في ديار الشام، ولم يحدثنا التاريخ أنهم عادوا، أو أن حكمهم ظهر على مسرح هذه البلاد من جديد... اللهمَّ إلَّا بعد زوال الدولة الفاطمية ، فالتاريخ، والوقائع دعمت وذكرت قيام «دولة مصياف» الإسماعيلية النزارية بقيادة «سنان راشد الدين». ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن الدولة الفاطمية قطعت كل صلة لها بشمالي أفريقيا وذلك سنة ٥٠٩ هـ. وهكذا فعلوا بالنسبة لجزيرة صقلية.

أما بلاد «النوبة» فإن علاقات الدولة الفاطمية بها قد ساءت، وطرأ عليها ما يشبه الانتفاض ... فالمصادر التاريخية توضح: أن الأخبار وردت إلى الأفضل سنة ٥٠١ تفيد بأن ملك النوبة قد جهَّز جيوشه، وحشدهم في البر والبحر، معولاً على الاندفاع واحتلال الممتلكات الفاطمية الواقعة على حدود بلاده، وعندئذٍ سيَّر الأفضل جيوشه إلى «قوص» ووجه أوامره إلى والي قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة. فورد الخبر بوثوب شقيق الملك عليه، وقد تمكن أخيراً

من قتله، وعندئذٍ تفاقمت الفتنة، وأصبحت المملكة في حالة من الفوضى.

لم تبق لمصر الفاطمية بعد وفاة الخليفة الثامن الإمام المستنصر بالله أية ممتلكات لا في الشرق، ولا في الغرب. عدا مصر التي ظلت وحدها تتنازعها الأيدي المخرِّبة الغريبة التي تسرَّبت إلى الحكم في الظلام بصورة غير شرعية.

ومهما يكن من أمر... فإن النظام والأمن في تلك الفترة اضطربا اضطراباً مخيفاً في جميع أرجاء الدولة الفاطمية بعد مقتل الأفضل، ولكن يقظة «المأمون البطائحي» الذي تولَّى الوزارة بعده جعلته يعيد الأمور إلى نصابها، ويحفظ الأمن فعزل والي عسقلان لارتيابه بأمره وعين مكانه والياً آخر.

دار الأفضل

عندما تسلَّم «بدر الجمالي» شؤون الوزارة الأولى، والقيادة العليا للجيش، في عهد الخليفة الإمام المستنصر بالله... بنى داراً في حارة «برجوان»، قد عرفت فيما بعد بدار «المظفَّر». ويذكر بعض المؤرخين أنها عرفت أيضاً بدار الوزارة. ومن المرجح أنها الدار المرموقة والوحيدة في القاهرة، وقد كان «الأفضل» قد جدَّد بناءها، وأدخل عليها تحسينات عديدة، وكان موقعها في شمال القصر الكبير الشرقي.. ويفصل بينهما رحبة باب «العيد» التي عرفت «بدار القباب» وفي الغالب، فإن الأفضل اتخذها دار سكن فقط، ولم يحوّل إليها الدواوين من القصر، إلى أن بنى «دار الملك» على ساحل مصر، فنقل إليها الدواوين من القصر.. يؤيد ذلك ما ذكره التاريخ عنها:

أنها من إنشاء الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش، وقد قام ببنائها، وإنشائها سنة ٥٠١ هـ. فلما كملت تحوَّل إليها من دار «القباب» بالقاهرة، وسكنها، وحوَّل إليها الدواوين، من القصر، فصارت فيها، وجعل فيها أيضاً الأسمطة، واتخذ بها مجلساً سمَّاه «مجلس الوصايا» كان يجلس فيه من حين لآخر. أما دار القباب فقد أصبح بعد ذلك سكناً لأولاده، ومما تجدر الإشارة إليه.. أن الأفضل ازدادت كراهيته لأولاده لأنه لم يستطع ضبط أمورهم وجعلهم يخضعون له في كل شيء.. وهذا ما جعله منذ سنة ٥٠١ هـ يحتجب

عنهم في أكثر الأوقات، ولهذا استقروا في القاهرة، وانقطعوا في دار الأفضل القديمة المعروفة بدار الوزارة.

إذن... فالأفضل اتخذ من دار الملك مقراً للحكم، وترك دار القباب لسكنى أولاده، وقد ظلَّ الحال على هذا الوضع حتى قتل «الأفضل» وعندئذٍ نقلت الدواوين مرة أخرى من دار الملك إلى القصر، وظلَّت هكذا إلى حين قام الخليفة «الآمر بن المستعلي» بمصادرة بيوته، وممتلكاته في كل مكان. .. أمّا متى صارت دار «القباب» مقراً للوزراء. فنرجح أن ذلك حدث عندما أصبح «أحمد بن الأفضل» الملقب «كتيفات» وزيراً للحافظ سنة ٥٢٥ هـ. وفي هذا العام تمكن من السيطرة واستلام الحكم، بعد أن سجن الحافظ، واستعاد أملاك أبيه التي صادرها «الآمر بأحكام الله» ومن بينها دار القباب. ومن المرجح أنه في تلك الفترة قد انتقل إليها، وسكنها مع دواوين الوزارة وظلَّت مركزاً للدولة، ومقراً للوزراء حتى عهد «صلاح الدين الأيوبي» الذي سكنها أيضاً.... هذا ويذكر التاريخ أن الملك «الكامل محمد» استقرَّ بالقلعة، فتحولت عندئذٍ إلى دار ضيافة للملوك وللوزراء، وللشخصيات الكبرى التي كانت تفد إلى مصر... ويصفها التاريخ: بأنها كانت محاطة بسور مبني بالحجارة، وقد بقيَ جزء بدون سور مدة طويلة، وكانت الدار تشمل قاعات ومساكن، وحديقة كبرى فيها مئة وعشرون مقسماً للماء الذي يجري في بركها، ومطابخها، كما كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين أحدهما:

دار الحرم، والآخر دار السلام الذي كان مخصصاً للإدارة ولشؤون الحكم، وقد ذكر أن في إحدى قاعات هذا الدار كانت «كرسي الخلافة العباسية» وهو المقعد الكبير الذي كان قد أرسله «البساسيري» من بغداد إلى الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، وقد ذكرنا ذلك في الأجزاء السابقة. ومن الجدير بالذكر أن الأفضل كان يجلس عليه.

.. إن كرسي الخلافة المذكورة قد ظلَّت بالدار المذكورة حتى عمَّر «ركن الدين بيبرس» الخانقاه الركنية، وعندئذٍ أخذ من دار الوزارة أكثر محتوياتها، ومن جملتها المقعد العباسي، وهذا المقعد جعله في القبة التي دفن تحتها.

أحداث ومفاجآت

ذكرنا في مكان آخر من هذا الجزء بأن «الأفضل بن بدر الجمالي» قتل كما قيل بأيدي النزارية... وقد أيَّد ذلك أكثر المؤرخين، وذكرنا أيضاً بأن الأفضل هو الذي أقام «المستعلي» وسمَّاه خليفة بعد وفاة والده الإمام المستنصر بالله، وذلك للحفاظ على قيادته وزعامته باعتبار المستعلي ابن شقيقته.. ومما يجب أن يذكر: أن المستعلي لم يـعمّر طويلاً، وأن عهده، وعمره كانا قصيرين. فبعد موته أقام الأفضل ابنه «الآمر بأحكام الله» وسمَّاه خليفة وكان له من العمر خمسة أعوام ونيف، وهذا الخليفة بعد أن كبر، ومارس شؤون الحكم والخلافة ضاق ذرعاً بأعمال الأفضل السابقة واللّاحقة، فنقم عليه، وأخذ يوجه الأنظار ضده، ثم بدأ يسلبه الصلاحيات الواحدة تلو الأخرى، مما جعل الأفضل أيضاً يخطط من جهته للتخلص منه، ولكن الأقدار لم تساعد الأفضل فقتل قبل أن يتمكن من تنفيذ مخططه.. وينسب إلى الآمر بأحكام الله تدبير قتله، ولكن هناك من يقول عكس ذلك، وعلى العموم فإن الآمر هلَّـل للحدث الـرهيب المفاجىء، وارتاح ضمناً لوقوعه، وما زال الارتياح يتفاعل في داخله حتى قتل اغتيالاً من قبل النزارية أخيراً.

وفي هذه الفترة تصدَّى «الحافظ» للحكم وهو أحد أعمـام الآمر بأحكام الله متخذاً لنفسه صفة النيابة أو الوصاية، أو ما يسمَّى الكفالة لطفل «منتظر» زعموا أنه من صلب الآمر، وأطلقوا عليه اسم «الطيّب»... ورشحوه للخلافة، وللإمامة.

وفي تلك الفترة قام «أحمد بن الأفضل» فاستولى على الوزارة وعلى القيادة، وبقوة السلاح استطاع القبض عـلى الحافظ، وإيـداعه السجن، ثم قام بحملة تفتيش على الطفل المسمَّى «الطيب» الذي قيل إن امرأة الآمر بأحكام الله قد ولدته بعد وفاة أبيه. وكان أحمد يبغي قتله، ولكنه لم يعثر له على أثر، لأن اتباعه قالوا أنه دخل كهف الاستتار منذ اليوم الأول من ولادته. أما أحمد فإنه بادر إلى إلغاء الشعائر الدينية التي أحدثتها الفرقة «المستعلية» وأسقط منها اسم «الخليفة» واستبدلها بـ «الإمام المنتظر».

إن أكثرية المصادر التاريخية تذكر: بأن أحمد بن الأفضل الملقب «كتيفات» كان قاسياً وعنيفاً، وقد ارتكب جرائم عديدة في القصر إبان

قيامه بالحملة التفتيشية على «الطيب» المزعوم، ولكنه مع كل أسف لم يجد له أثراً.

وفي سنة ٥٢٦ هـ. قتل اغتيالاً بعد حكم تعسفي شديد استمرَّ سنة ونيف، وبعد موته خرج الحافظ من سجنه، وأعلن من جديد بأنه «الخليفة».

وسعى جاهداً لأخذ مبايعة كبار رجال الدولة على هذا الأساس، وكل هذا أوقع انشقاقاً جديداً في الفرقة المستعلية، فقامت فرقة لمساندته ودعمه في الخلافة تعرف «بالحافظية» بينما قامت فرقة أخرى معاكسة قالت: بأن «الحافظ» لا ينحدر من أسرة الفاطميين، وأن وجوده في الخلافة ضرورة اقتضتها الظروف الطارئة وأن مركزه لا يخرج عن كونه وصاية مؤقتة، وهذه الفرقة تسمَّت «بالطيِّبة». وقد كان من نتيجة ذلك أن خرجت اليمن عن طاعة مصر في أواخر عهد «الملكة الحرة، أروى الصليحي» وهذه الملكة كانت تعلن في مجالسها وأمام المقربين منها عن استنكارها لأعمال الأفضل، وعن إقرارها واعترافها بصحة إمامة نزار.

أعمال الأفضل

من المعلوم أن بدر الجمالي أمير الجيش مات وترك لولده ولخليفته في القيادة دولة كبرى مستقرة هادئة ناعمة البال، وخليفة لا يخيِّب له رجاءً، ولا يرفض له طلب، ولكن الأفضل لم يكن يملك من المواهب، وبعد النظر ما يكفل له السير في الدروب السهلة. فمن الواضح أنه لم يسر على نهج أبيه في حكم الدولة، كما لم يستطع في فترة حكمه الطويل أن يوطِّد الأمن والرخاء في البلاد المصرية، ولا أن يحتفظ بالأقطار الأخرى التي انفصلت عن الدولة، وأعلنت استقلالها.

وجاءت النزارية بأساليبها الجديدة، ومخططاتها الهادفة إلى تقويض دولة الأفضل لتطغى على كل شيء في الديار المصرية، ولتضع الأفضل أمام الأخطار والرعب الذي كان يلاحقه أينما سار وحيثما توجه.

ومهما يكن من أمر.. فإن الأفضل بالرغم مما فعله، واقترفه من جرائم بحق الأسرة النزارية الفاطمية، فإنه كان يوجه اهتمامه للشؤون الزراعية، ولتحسين الأرض.. والتاريخ الذي لا يرحم ذكر: أنه سنة ٥٠١ هـ. أمر بحل جميع الإقطاعات، وذلك عندما شكا أصحاب الملكيات الصغيرة من قلة دخل إقطاعهم بالنسبة لإقطاعات

الأمراء، وكبار الملاكين، ورجال الدولة كما أجرى مساحة عامة في البلاد، وأعاد توزيع الإقطاعات على المتزايدين من الأجناد، والأمراء، وفي ذلك يقول المؤرخ المقريزي:

إن المأمون البطائحي الذي كان رئيساً لديوان الخراج عندما رأى من اختلال أحوال الرجال العسكريين والمقطعين وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خسَّ ارتفاعها، وساءت أحوالهم لقلة المتحصل، وأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها، وازدادت عن غيرها، وإن في كل ناحية الفواضل للديوان جملة تجيء بالعسف، ويتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها...

فخاطب الأفضل في أن يحل الإقطاعات جميعها، ويردها كلّها، وعرفه أن المصلحة في ذلك تعود على المقطعين، والديوان، لأن الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلادة مقررة.... فأجاب إلى ذلك، وحلَّ جميع الإقطاعات، ومسحها، واختبر دخلها، وأخذ كل من الأقوياء، والمتميزين،يتضررون، ويذكرون لهم بساتين، وأملاك، ومعاصر في نواحيهم. فقال له كل من كان له ملك فهو باقٍ عليه لا يدخل في الإقطاع، وهو مخير إن شاء باعه، أو شاء أجَّره، فلما حلَّت الإقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها، فوقعت الزيادة في إقطاعيات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم، وكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد، وأحضر الأقوياء وقال لهم:

ما تكرهون من الإقطاعات التي كانت بيد الأجناد؟ فقالوا: كثرة غيرها، وقلة متحصلها، وخرابها، وقلة الساكن بها.. فقال لهم: ابذلوا في كل ناحية ما تحمله، وتقوي رغبتكم فيه، ولا تنظروا في العبرة الأولى... فعند ذلك طابت نفوسهم، وتزايدوا إلى أن بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه، فأقطعوا فيه، وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم، وحصل للديوان بلاد مقررة بما كان مفرقاً في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار، وبذلك طابت نفوس الجميع، وأقبلوا على زراعة الأرض.
ونلاحظ من هذه التدابير تطورات اقتصادية مهمّة أولها زيادة مدة الضمان من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة، وقد يكون الغرض من ذلك

أن يخلق الاستقرار الذي يشعر به المُقْطَع، في هذه المدة الطويلة حافزاً على أن يولي كل عناية لإقطاعه، وثانيها أن أغلب المقطعين أصبحوا من الأمراء، والأجناد، والموظفين ذوي المرتبات الثابتة نظراً لقدرتهم على التزايد في حين أن أفراد الشعب، والفلاحين لم يعودوا على ما يبدو قادرين على الدخول في هذه المزايدات، وذلك لما تعرضوا له من هزات اقتصادية أثناء الشدة العظمى في أواخر أيام الخليفة الإمام المستنصر بالله، وثالثاً فإن إعطاء الإقطاعات الفقيرة التي كانت في يد الأجناد للأمراء القادرين من عوامل إصلاحها مما لدى أصحابها الجدد من القدرة المادية على الإصلاح، كما نلاحظ أيضاً أن الأملاك الخاصة للمقطعين في إقطاعاتهم القديمة لم تمس بل ترك لكل واحد منهم الحرية في التصرف كما يشاء.

ولما بلغ الأفضل أن بعض أصحاب الأملاك في الصعيد الأعلى قد أضافوا إلى أملاكهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها، ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدُّوا عليها. وضموها إليها، أمر بإقرار جميع الأملاك ، والأراضي، والسواقي بأيدي أربابها في ذلك الحين من غير انتزاع شيء منها، وأن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره، ... «وقد أنعمنا وتجاوزنا عما سلف، ونهينا من يستأنف، وسامحنا من خرج عن التعدي إلى المألوف، وجرينا في العفو والمعروف، وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين، ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم الله منه، وطولب بمستأنفه وأمسه، وبرئت الذمة من ماله، ونفسه، وتضاعفت عليه الغرامة، والعقوبة .. وقد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب في عمارة أرض حلفاء دائرة، وإدارة مهجورة معطلة في أن يسلم إليه ذلك، ويقاس عليه، ولا يؤخذ منه خراج إلَّا في السنة الرابعة من تسليمه إياه، وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجاً مؤيداً، وأمراً مؤكداً».

فلما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل وأصحاب هذه الأعمال حصل الاجتهاد في تحصيل مال الديوان ، وعمارة البلاد... إلى جانب ذلك وجه «الأفضل» عناية للري... ففي عهده جدَّد حفر خليج أمير المؤمنين سنة ٥٠٢ هـ.، وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه، وأقام عليه والياً بمفرده، ومنع الناس من أن يطرحوا فيه شيئاً، كما أمر بحفر الخليج الذي عرف بخليج «أبي المنجا» وكان الأفضل قد

حفره بناءً على نصيحة «أبي المنجا بن شعيا اليهودي» الذي كان مشرفاً على البلاد الشرقية التابعة لديوان الخلافة، وذلك لأن الماء لم يكن يصل لهذه الجهات إلَّا من خليج «السردوس» وغيره من الأماكن البعيدة. وابتدأ الحفر سنة ٥٠٦ هـ. وتمَّ في عامين، ويقال إن الأفضل ركب في النيل مع حاشيته بعد أن رمى فيه حزمة من «البوص» وأخذ يتتبعها حتى رماها الماء في المكان الذي ابتدأ الحفر منه، وكان هذا الخليج سبباً في ازدهار هذه البلاد التي يرويها، وقد غلب على الخليج اسم «أبي المنجا» برغم من محاولة الأفضل تسميته باسمه.

ومن الجدير بالذكر.. أن التقدم الزراعي بلغ أعلى درجة في عهده. فحرث الأرض حتى أن الأفضل استجلب «أردبين» من نوع جديد من القمح، وأراد تجربتها في الزراعة. فأرسل أحدهما إلى والي «الصعيد»، والآخر إلى والي «الدلتا».. فجاءه الجواب من أحدهما: بأن الأرض كلها مزروعة، وليس هناك مكان لبذر هذا القمح، في حين ذكر الثاني أنه بذر الأردب.. فعرف اهتمام الأول بالزراعة بحيث لم يجد مكاناً غير مزروع يمكن زراعة هذا القمح فيه، في حين أهمل الثاني الزراعة حيث بقيت هناك أرض معطلة زرع فيها هذا الأردب، وكان أن كافأ الأول، وعاقب الثاني.

واهتمَّ الأفضل اهتماماً بالغاً بالحالة الاقتصادية وخاصة الزراعة، فما أن علم أن ضامن أي أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر، فتنزع منه قبل انقضاء مدة ضمانه، حتى أبطل ذلك، وأقرَّ كل ضامن على أرضه، إلى أن تنتهي مدة ضمانه، ما دام منفذاً لتعهداته.

وقد أصدر لذلك منشوراً جاء فيه ما نصه:

> «إن أي واحد من الناس ضمن ضماناً من باب، أو ربع، أو بستان، أو ناحية، أو كفر، وكان لأقساط ضمانه مؤدياً، ولما يلزمه من ذلك مبدياً، وللحق متبعاً، فإن ضمانه باقٍ في يده، لا تقبل زيادة عليه مدّة ضمانه على النقد المعقود عملاً بالواجب، والنظام المحمود. فأما من ضمن ضماناً، ولم يقم بما يجب عليه فيه، وأصرَّ على المدافعة، والمغالطة التي لا يعتمدها إلَّا كل سفيه سيء الطباع.. فذلك الذي فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه».

كان الضمَّان يعجزون عن مبالغ ضمانهم جميعها فتبقى عليهم في

أكثر الأحيان مبالغ عرفت «بالبواقي» فكانت الدولة تتسامح في بعض الأحيان تخفيفاً عنهم، وهذا ما اتخذه المأمون البطائحي من قرارات بإعفاء الضمّان من دفع ما عليهم من بواقي، ولا شك بأن المسامحة بهذه المبالغ الطائلة دليل على أن خزانة الدولة كانت عامرة حتى أمكن التخفيف عن أصحاب الضمانات بإلغاء المبالغ المستحقة عليهم. ولما وجد المسؤولون أن بعض الناس قد اجتازوا أرضاً بالإصلاح أو غيره، دون أن يدفعوا عنها خراجاً لمدة طويلة، ولما قدّر عليهم الخراج عن هذه السنين وجد أنه يستنفد ثروتهم، أعفوهم من خراج السنين السابقة، وهذا يدل على التشجيع لإصلاح الأراضي البور التي أعفي كل مستصلح لقسم منها، من دفع خراجها لمدة أربع سنوات.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأفضل أعفى سكان مصر، والقاهرة، ممن يستأجرون مساكن، أو حوانيت، أو حمامات، أو غيرها من أملاك الدولة بأجرة شهر رمضان من كل سنة تخفيفاً عنهم، وإكراماً للشهر المبارك.

ومن الغريب جداً... أن بعض المؤرخين، أشادوا بالأفضل، ووصفوه بالعدل، وحسن السيرة في الرعية ، والتجار، والمزارعين، ويبدو أنه كان يغرقهم بأمواله، وعطاياه. ومما ذكروه عنه: أنهم لم يعرفوا أن أحداً صودر في زمانه أو أسقط حقّه. وأضافوا إلى أقوالهم هذه القصة وهي أنه لما حضر الأفضل إلى الإسكندرية كان فيها يهودي عرف عنه أنه كان يبالغ في سب الأفضل ولعنه وشتمه... فقبض عليه، وأراد قتله، وعندما عدّد عليه ذنوبه.. قال له: إن معي خمسة آلاف دينار، فخذها واعتقني، وأعفُ عني فأجابه: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك... وهكذا عفا عنه، ولم يأخذ منه شيئاً:

مخلفات الأفضل

أطنبت المراجع التاريخية في التحدث عن الثروة التي خلّفها «الأفضل ابن بدر الجمالي» حتى أن الخليفة الفاطمي العاشر «الآمر بن المستعلي» ظلّ أربعين يوماً في دور الأفضل وتحت يديه الكتاب يحصون ويسجلون ما وجد في دوره وذلك تمهيداً لنقلها إلى القصر، وأنه لمن الغريب كيف استطاع هذا الأفضل جمع هذه الثروة الكبيرة

في وقت كانت البلاد تعاني من ويلات الحروب الصليبية، وضياع معظم ممتلكاتها. فقد وجد لديه ستة ملايين ومائتان وخمسون ألف دينار، وخمسون أردباً دراهم ورق.. ووجد في حجرة نومه قمطران عليهما حلية من الذهب، مملوءان جواهر ما بين عقود مفصلة بالياقوت والزمرد وسبح وقطمر فيه إحدى عشرة شرابة طول كل واحدة منها شبران بجواهر ما يقع عليها قيمة وصناديق فضة مملوءة مصاغات ما بين عصائب وتيجان ذهب مرصعة بالجواهر النفيسة، وثلاثون راحلة أحقاف من الذهب العراقي، ودواة من الذهب قوّم ما فيها من الجواهر بإثني عشر ألف دينار ومئة مسمار من ذهب وزن كل مسمار منها مئة دينار في عشرة مجالس، في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مذهب بلون من الألوان أيمًا أحب منها لبس، وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من دبق تيسني، وصندوقان كبيران فيهما إبر ذهب مصاغة برسم الجواري والنساء. وخلّف من الرقيق ، والخيل، والبغال، والمواكب من الطيب، والتجمل، والحلي الشيء الكثر. وخلّف من البقر ، والجواميس، والغنم، ما بلغ قيمة ألبانها في العام ثلاثون ألف دينار. وترك تسعمائة ثوب من الديباج الملّون، وتسعين ألف ثوب عتّابي، وثلاث خزائن كبيرة ممتلئة بالثياب الدبيقيّة من صنع تنيس ودمياط، كما ترك أربع حجرات ملأى بالمقاطع، والستور، والفرش والوسائد، والمساند، والديباج، وخزائن أخرى مملوءة بالثياب المصنوعة من الديباج، والمحلاّة بالذهب إلى غير ذلك من الستور، والطنافس، والأبسطة التي وجد منها أربعة آلاف، كما خلّف خمسمائة قطعة بلور، وألف عدل من متاع اليمن، والإسكندرية، والغرب، وسبعة آلاف مركب «أي سرج».. أما ما وجد من الذهب، والأحجار الكريمة، فلا يمكن أن يوصف.

وترك سبعمائة طبق ما بين فضة وذهب، وما لا يحصى من الصحاف، وأكواب الشراب والأباريق، والقدور، وأواني اللبن وغيرها.. وكلها من الذهب والفضة كما كان هناك الكثير من الأواني الصينية المملوءة بالجواهر التي كان بعضها على هيئة عقود، والبعض الآخر منثوراً. وكان الأفضل، حين يجلس للشراب يجعل في مجلسه صواني الذهب، وعليها الأواني المملوءة بالجواهر، فعند الشراب تفرغ الأواني في الصينية فتملأها، ويجعل بدله الشراب.

وكان الأفضل مغرماً بأنواع الطيوب من المسك والعنبر، وكانت له خزانة للطيب مملوءة بأسفاط العود، وغيره مكتوب على كل منها وزنه ونوعه، ووجد من أواني المسك، والكافور، والعنبر ما لا يمكن عده، وكان من ذخائره دكة عاج وأبنوس محلّاة بالفضة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل تزن ألف رطل في أعلاها تمثال طائر من ذهب أرجله من المرجان، ومنقاره من الزمرد، وعيناه ياقوتتان وكان ينصبها في بيته فيضوع عرفها، ويعم القصر، وقد صارت إلى صلاح الدين الأيوبي، وكان يضع ملابسه على تمثال من العنبر حتى تكتسبْ رائحة. وفي مجلس شرابه وضعت ثمانية تماثيل لثمان جوارٍ متقابلات. أربع منهن بيض من الكافور، وأربع سود من عنبر عليهن أفخر الثياب، وأثمن الحلي، وبأيديهن أحسن الجواهر، وكان الأفضل إذا دخل المجلس، ووطىء القبة نكّسن رؤوسهن إجلالاً له، فإذا أخذ مكانه استوين قائمات.

وكان في بيت «الأفضل» ثمانون جارية. منهن خمسون حظية، لكل واحدة منهن حجرة تخصّها وخزائن مملوءة بالكسوة، وآلات الديباج والذهب، كما كان بدار الملك مجلس يعرف بمجلس العطاء يجلس فيه الأفضل لتصريف الأمور، وكان به ستة ظروف من الديباج الأطلس من كل لون إثنان في كل منهما خمسة آلاف دينار، ووضع في قاعة «اللؤلؤ» وفي دار الحرم ظرفان في أحدهما خمسة آلاف دينار، وفي الثاني دراهم... وكان الأفضل يتصدق بها.

نهاية الأفضل

ذكرنا أن الأفضل قتل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، إذ أن مولده بعكا كان سنة ٤٥٨ هـ. ومن المؤكد أن أولاده وأخوته وأبناء أخيه «الأوحد» و «المظفّر» قتلوا جميعاً وكان عددهم نحو مائة ما بين كبير وصغير، ولم يسلم منهم سوى ولد صغير نحيف هو «أحمد» الملقب «كتيفات» الذي أصبح وزيراً فيما بعد ، ثم قتل أخيراً. وهكذا انتهت حياة هذه الأسرة الغريبة التي تسربت إلى حرم الدولة الفاطمية، فتمكنت من السيطرة، وبسط نفوذها، والتعجيل بالقضاء على الدولة الكبرى، وذلك حين قسمتها إلى شطرين متنافسين كان كل شطر يعمل للقضاء على الثاني.

والحقيقة فإن ما حلَّ فيها في نهاية المطاف كان طبيعياً.

ومهما يكن من أمر... فلا الدولة المستعلية، ولا دولة ألموت النزارية استطاعتا إعادة الدولة الفاطمية إلى سابق عهدها، فالدولة الفاطمية التي نحن بصدد التحدث عنها انتهت بعد وفاة الخليفة الثامن والإمام الثامن عشر المستنصر بالله.

فهرس الاعلام

ي

فهرس الأماكن

فهرس القبائل والعائلات والفرق

المصادر

المصادر العربية

ابن سينا في موانع اخوان الصفاء ـ عارف تامر.
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ المقريزي.
اثبات التبوأت ـ السجستاني ـ عارف تامر.
أخبار مصر ـ المسبحي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ ابن حمّاء القاضي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ فوندر.
أروى بنت اليمن ـ عارف تامر
أساس التأويل ـ النعمان بن حيُّون ـ تحقيق عارف تامر.
استتار الأمن ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أعيان الشيعة ـ محسن الأمين العاملي.
افتتاح الدعوة «النعمان بن حيُّون» تحقيق وداد القاضي.
الإمام المستنصر بالله الفاطمي ـ عبد المنعم ماجد.
البيان المغرب في أخبار المغرب ـ ابن عذارى.
تاج العقائد (علي بن الوليد) تحقيق عارف تامر.
تاريخ أخبار القرامطة ـ ثابت بن سنان وابن العديم.
تاريخ الاسلام السياسي والديني ـ حسن ابراهيم حسن.
تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ـ طه أحمد شرف.
تاريخ جوهر الصقلي ـ علي ابراهيم حسن.
تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري.
تقويم البلدان ـ أبو الفداء.
تميم بن المعز لدين الله ـ عارف تامر.
ثورة القرامطة الاشتراكية ـ عارف تامر.
جوهر الصقلي «القائد» ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ عبد المنعم ماجد.
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ محمد عبد الله عنان.
حركات الشيعة المتطرفين ـ محمد جابر عبد العال.
حضارات الاسلام ـ جوستاف فون جرونبوم.
دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ عبد العزيز الدوري.
دعائم الاسلام (النعمان بن حيُّون) تحقيق آصف فيضي.
دولة النزارية ـ طه أحمد شرف.
راحة العقل والكرماني ـ محمد مصطفى حلمي ومحمد كامل حسين.

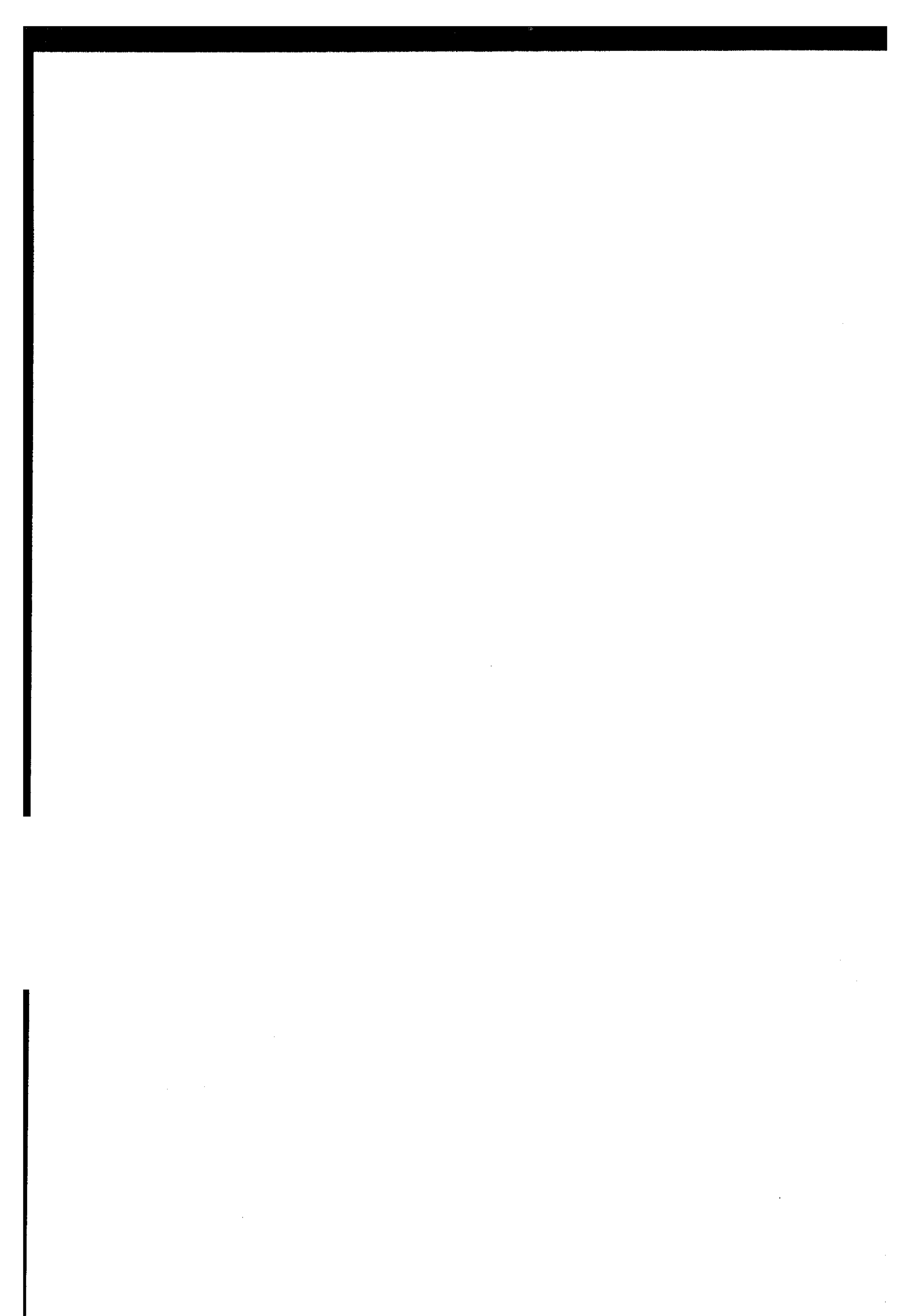
الرياض ـ (الكرماني) ـ تحقيق عارف تامر.
سيرة الاستاذ جوذر الكاتب ـ محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة.
سيرة جعفر الحاجب ـ (اليماني) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي ـ عارف تامر.
صلة تاريخ الطبري ـ غريب بن سعد.
الصليحيون في اليمن ـ حسين همذاني.
عبقرية الفاطميين ـ محمد حسن الأعظمي.
عبيد الله المهدي ـ إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية ـ حسن ابراهيم حسن.
العزيز بالله ـ عارف تامر.
العصر العباسي الأول ـ شوقي ضيف.
العصر العباسي الأول ـ عبد العزيز الدوري.
عيون الأخبار ـ ادريس عماد الدين.
الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر.
الغلو والفِرق الغالية في الحضارة الاسلامية ـ عبد الله سلوم السامرائي.
الفاطميون في مصر ـ حسن ابراهيم حسن.
الفرق بين الفِرق ـ الإمام أبو منصور البغدادي.
فرق الشيعة ـ النوبختي.
فصول وأخبار (مخطوط ـ نور الدين أحمد).
في أدب مصر الفاطمية ـ محمد كامل حسين.
القرامطة ـ عارف تامر.
كتاب البلدان ـ اليعقوبي.
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ الحمادي اليماني.
كنوز الفاطميين ـ زكي محمد حسن.
لمعة من أخبار المعز ـ مؤلف مجهول.
المجالس المستنصرية ـ الداعي ثقة الإمام.
المجالس والمسايرات ـ النعمان بن حيُّون.
المجلة الذهبية ـ علي محمد جبارة.
مروج الذهب ـ المسعودي.
معجم البلدان ـ ياقوت الحموي.
المعز لدين الله ـ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف.
المعز لدين الله ـ عارف تامر.
المِلل والنحل ـ الشهرستاني.
الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين ـ عارف تامر.
المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ـ محمد كامل حسين.
الناصر لدين الله ـ سيمون حايك.

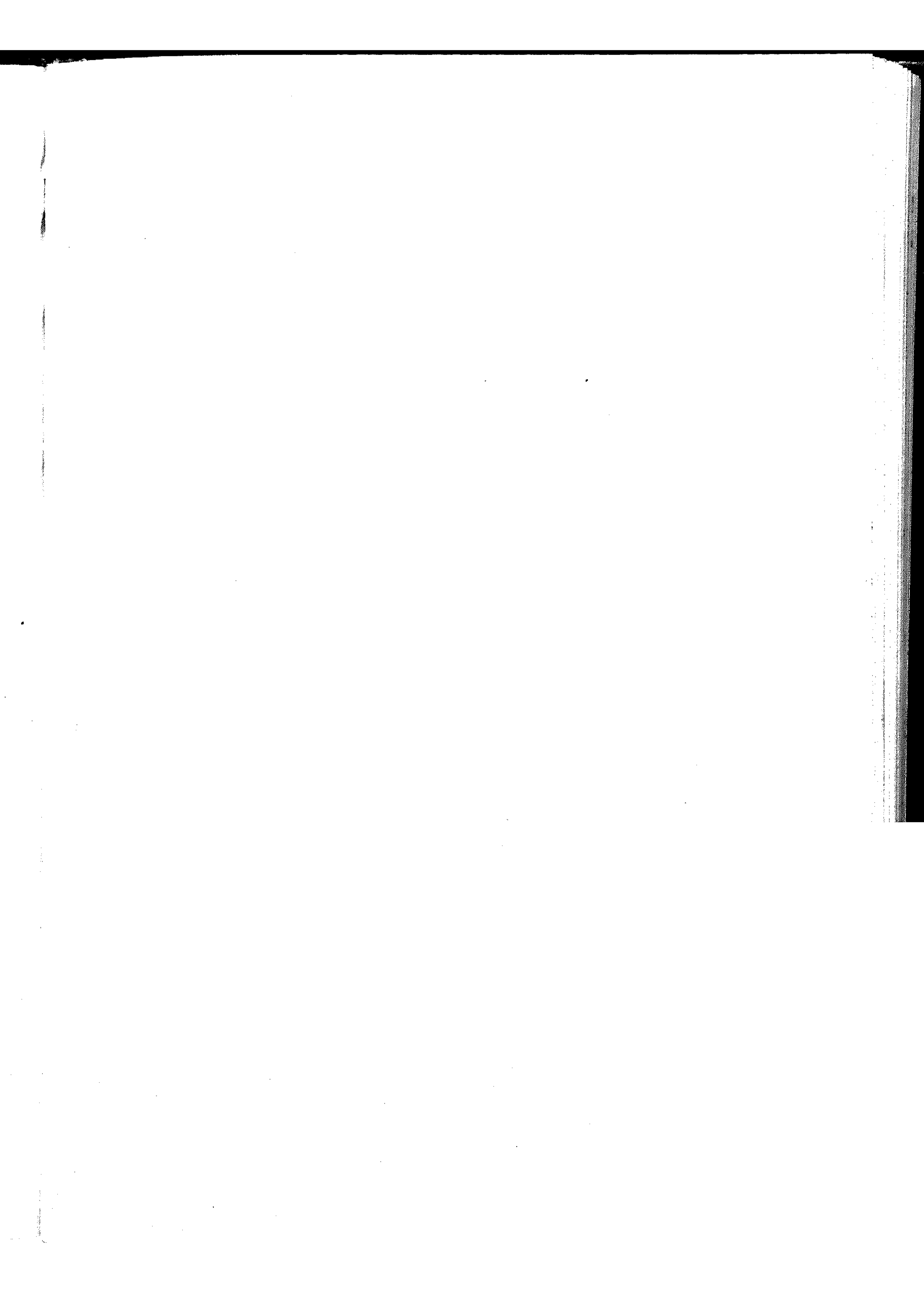
نزهة الأفكار ـ ادريس عماد الدين.
النظم السياسية ـ حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ـ محمد جمال سرور.
نور مبين قبل الله المتين ـ علي محمد جبارة.
الهمة في آداب اتباع الأئمة ـ محمد كامل حسين.
وفيات الاعيان ـ ابن خلكان.

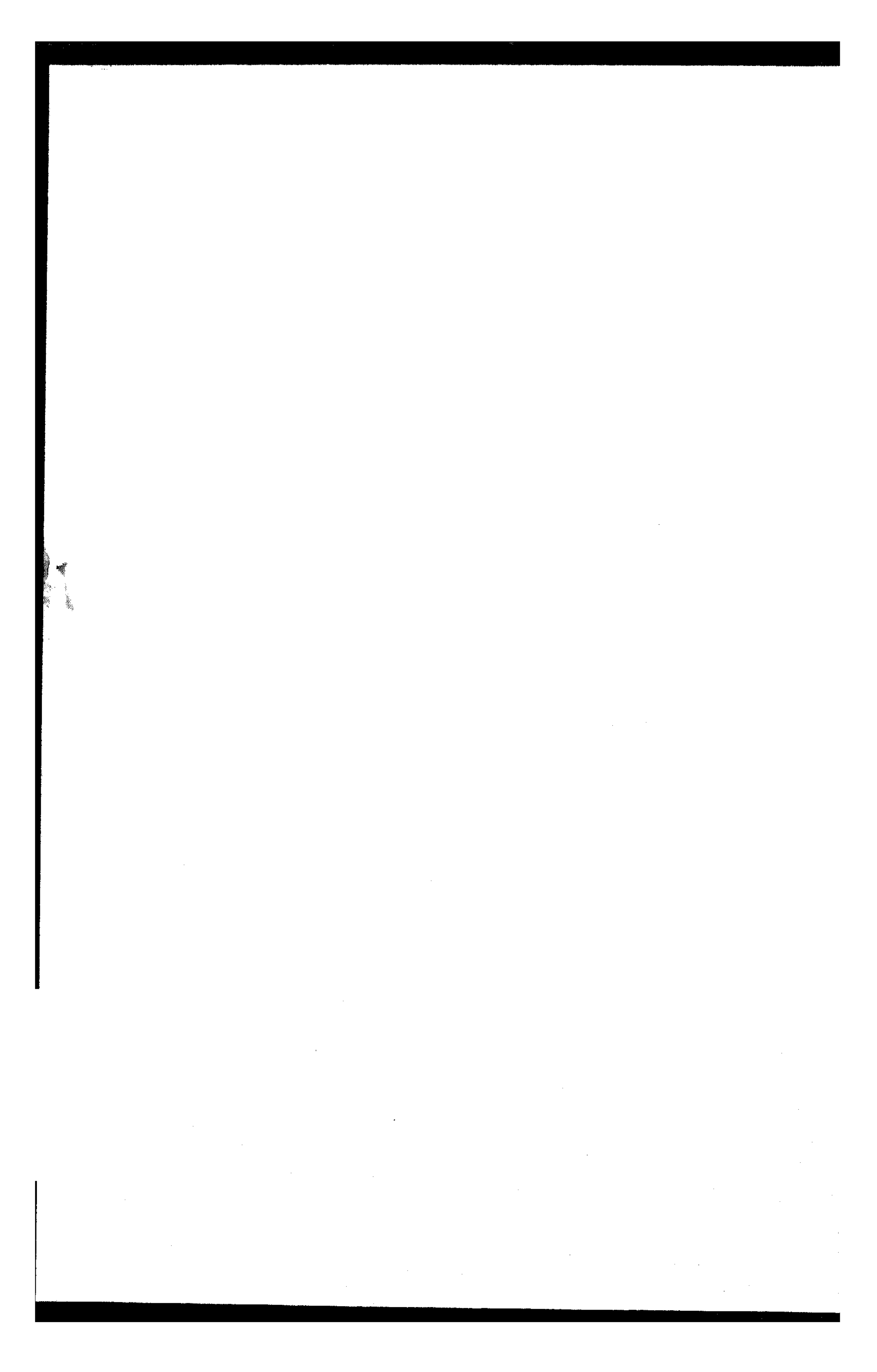
المصادر الأجنبية

A Short History of the Fatimid - Khalifate - London 1923.
A Guide to Ismaili Literature - W. Ivanow - London 1934.
A Chronological List of the imams and Dais of the Monstalian Ismaïlis. "Fyzee - Asaf" Royal asiatic Society - London 1934.
A Compendium of Ismaili es oteries Islamic Culture. H. Hamdani - 1937.
Cadi an-Numan (J,B,R,A,S) Asaf Fyzee - London 1934.
Cairo - Jerusalem and Damascus - Margoliotte - Oxford 1907.
Essai sur l'histoire de l'islamisme - Dozy. R.P.A. - Paris 1879.
Essai sur l'histoire des Ismaeleens de la perse Defrenery M.C. - Leyden.
Etudes sur la Conquete de l'Afrique par les Arabes - H. Fouruel - Paris 1881.
Esquisse d'une bibliographie Carmathe. L. Massignon - Cambridge 1922.
Enguête au pays du Levant. M. Barres - Paris 1924.
Fragments relatifs a la doctrine des ismailis. S. Guard - Paris 1874.
Ferishta - Mohamed Kassim - (history of the rise of the Mughal) Power of India. 4 vol. translated by. John Briggs - London 1928, and - Cambridge - History of India 111 pages or Big. Si Tahr.
A forgotten branch of Ismailis' - W. Nanow - J.R.A.S. 1938.
Geschichte des Fatimids Caliph. Gottingen, 1881.
Histoire des Muslumans d'Espagne.
Histoire de L'ordre des Assassins - Hammer - Paris 1833.
Literary History of Persia - E. Browne. G. - London 1909.
Les siècles obsucres du Maghreb - Paris 1927.
Le Dogme et la loi de L'islam - Paris 1920.
La fin de L'empire des Carmathe du Bahrein. De Geoje M. - Leyden 1895.
Literary History of the arabes - Nicholson - Cambridge 1930.
Mémoires sur les Carmathes du Baherein et les Fatimides - D. Geoje M. - Leiden 1886.
Some unknown Isamaïli authors and their works. H. Hamdani 1933.
Mémoires historiques sur la Dynastie de Khalifs Fatimid's - Paris 1836.
The preaching of Islam. A. Thomas - London 1935.

The rise of the Fatimids - Calcuta - W. Ivanow 1942.
The Karmathians - De Goeje - 1895.
The Ismailian Low of Muta - Assaf - Fyzee - London 1929.
The origins of Ismailism . B. Lewis - Cambridge 1940.
The story of Cairo - Lane poole - London 1912.
On the Gèneology of Fatimid Caliphs. - H. Hamdani Cairo 1958.
The Quddahid Legend - A. Hamdani 1963.
The Shia of India .. J. N. Hollister.








1855130742